(٥١) سُورة الذاريات مكية وآياتها ستون

سورة الذاريات مكية ، وأهدافها نفسُ أهداف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وتهتم ببناء صرح الإيمان على أسسٍ متينة من اليقين والتصديق بوحدانية الله ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والحساب والجزاء . ومحور السورة الكريمة يدور حول الاعتقاد بوحدانية الله ، وأنه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المتصرف في الكون بما يشاء ، وجميعُ الخَلقِ عبيدُه ، خاضعون لجلاله ، محتاجون إليه ، وهو الغني الحميد ، وقد حشدت السورة الكريمة بعض الآيات الكونية الدالة على قدرته تعالى وعظيم سلطانه للإشارة إلى أنه الواحد المعبود ، كما ذكرت قصص الأنبياء « إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، ونوح ، وهود ، وصالح » بشيءٍ من الإيجاز للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، وهي تعريف الخلق بالإله الخالق ، الواحد الأحد ، وتجريدُ القلب لعبادته جل وعلا ، ووصله بالسماء بالإيمان واليقين .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بأنواع من المخلوقات – تَبْدو للعَيان وكأنها خفيفة يسيرة ، وهي عظيمة جليلة لآثارها الكبيرة – بالرياحِ التي تذرو الغبار وهي تحمل معها الحياة وتحمل الدمار ، وبالسحب الموقرة بالأمطار يسوقها الله إلى حيث شاء ، وبالسفن الجاريات في يُسْرٍ على سطح الماء بقدرته جل وعلا الذي سخَّر لها

مكتبة المحتسب أبي الحسن ... المدينة المنورة ١٤٣٠هـ وقف على طلبة العلم والعامة

الأنهار والبحار ، وبالملائكة التي تحمل أوامر الله لتبليغها لرسل الله الأبرار ، أقسم تعالى بهذه الأشياء الأربعة « الرياح ، السحب ، السفن ، الملائكة » على وقوع المعاد والحساب والجزاء ﴿والذاريات ذرواً . فالحاملات وقْراً . فالجاريات يُسْراً . فالمقسِّمات أمراً . إن ما توعدون لصادق . وإنَّ الدين لواقع﴾ وهو قسم يتجلى فيه أهمية الحساب والجزاء ، وعظمة شأن الآخرة .

ثم انتقلت السورة إلى قسم آخر ﴿والسماءِ ذاتِ الحُبُك . إنكم لفي قول مختلف . يؤْفك عنه من أُفِك﴾ أقسم تعالى بالسماء المنسَّقة المحكمةِ التركيب ، كتنسيق الزَرَد المتشابك المتداخل الحلقات ، على أنهم في قول مختلف مضطرب ، لا قَوام له ولا قَرار ، ولا ثبات ولا استقرار ، فهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون على حق ويقين ، ولذلك يخبطون خبط عشواء ، وهم مغمورون بالأباطيل والأوهام لا يُفيقون ولا يستيقظون كأنهم سُكارى مذهولون ، ولذلك دعا عليهم بالقتل ، ويا لَلْهول ! ﴿قُتل الخراصون . الذين هم في غمرةٍ ساهون . يسألون أيان يومُ الدين ؟ يوم هم على النار يُفتنون . ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ .

وبعد الحديث عن المكذبين الفجار ، تتحدث السورة الكريمة عن المؤمنين الأبرار ، وهم يُكرَّمون في دار النعيم لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ وعيون . آخذينَ ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم﴾ ثم تلتفت السورة إلى آيات الله في الأرض ، وفي الأنفس ، وتوجّه الأنظار إلى مصدر الرزق ، وتختم بقسم عظيم أنَّ الرزق مضمون ، مثل ما أنهم ينطقون ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تُبصرون ؟ وفي

السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحقٌ مثل ما أنكم تنطقون﴾ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن الملائكة الذين بعثهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط ، وقد مرُّوا بطريقهم على إبراهيم الخليل ، ليبشروه بغلامٍ عليم من زوجه العقيم ، ودخلوا عليه وهم في صورة بشر ولذلك لم يعرفهم ، وأسرع إلى تقديم الطعام لهم ظناً منه أنهم ضيوفٌ قدموا عليه ، ومن حق الضيف أن يُكرم ، وبأسلوب مشوِّق يجذب الأسماع إلى الانتباه للحديث ، يأتي التعبير عن قصة الخليل وضيوفه ﴿هل أتاك حديث ضيفِ إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمين . فقرَّبَه إليهم قال ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأتُه في صَرَّة فصكَّتْ وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلِك قالَ ربُّكِ إنه هو الحكيم العليم﴾ ثم تمضي الآيات تتحدث عن الغاية التي جاءوا من أجلها وهي إهلاك المجرمين من قوم لوط ، بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين ، وإنذاراً وإعذاراً للمشركين أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم من الأمم ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إنّا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسوَّمة عند ربكَ للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين . وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم﴾ .

وتتعاقب النُّذُر والعظات ، تتحدث عن الأمم الطاغية الذين كذبوا رسلَ الله فأهلكهم الله ، وأخذهم بأنواعٍ من العذاب والدمار ، بالغرق أو بالريح أو بالصيحة أو الصاعقة ، وتذكر منهم فرعون وعاداً وثمود وقوم نوح ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطانٍ مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم

وهو مُليم . وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوْا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين﴾ وبعد أن تذكر السورة آثار قدرة الله الباهرة تعقّب بهذا التعقيب ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتَوَاصَوْا به بل هم قوم طاغون﴾ .

وتختم السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وبيان عاقبة المكذبين ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ .

سورة الذاريات

[٨٦٩] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله [ﷺ] بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾(١).

[٨٧٠] واخرج ابن منيع وابن راهوية والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي قال لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤﴾(٢) لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي [ﷺ] أن يتول عنا فنزلت: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾(٣) فطابت أنفسنا.

[٨٧١] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾(٤) الآية اشتد على أصحاب رسول الله [ﷺ] ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٥).

* * *

---

[٨٦٩] (١) سورة الذاريات: الآية (١٩).
[٨٧٠] (٢) سورة الذاريات: الآية (٥٤).
(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٥).
[٨٧١] (٤) سورة الذاريات: الآية (٥٤).
(٥) سورة الذاريات: الآية (٥٥).

سورة الذاريات

ستون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، وذلك لأنه تعالى لما بيّن الحشر بدلائله وقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم، لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ . . . ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] وقال في آخرها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

وفي تفسير الآيات مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا الحكمة وهي في القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة والصافات، ونعيدها ههنا وفيها وجوه: الأول: أن الكفار كانوا في بعض الأوقات يعترفون بكون النبي ﷺ غالبًا في إقامة الدليل، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله، وإنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال، كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة، يقول: إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل وعجزي عن ذلك، وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي. فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين، فيقول: والله إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل. وذلك لأنه لو سلك طريقًا آخر من ذكر دليل آخر، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول: إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل. فلا يبقى إلا السكوت أو التمسك بالإيمان وترك إقامة البرهان. الثاني: هو أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع، ثم إن النبي ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتًا، وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبًا، وإلا لأصابه شؤم الأيمان ولناله المكروه في بعض الأزمان. الثالث: وهو أن الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، مثاله قول القائل لمنعمه: (وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك) فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم، كذلك هـ[ذه] الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة، فإن قيل: فلمَ أخرجها مخرج الأيمـ[ـان]

نقول: لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم، فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه، فخرج لهم البرهان المبين، والتبيان المتين في صورة اليمين، وقد استوفينا الكلام في سورة والصافات.

المسألة الثانية: في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف، كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوحدانية والرسالة والحشر، وهي التي يتم بها الإيمان، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ حيث قال فيها: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] على سبيل الإنكار، وكانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أقوالهم، وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] فلم يبالغوا في الحقيقة في إنكار المطلوب الأول، فاكتفى بالبرهان، ولم يُكثر من الأيمان، وفي سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد ﷺ، وكونه رسولاً في إحداهما بأمر واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ١، ٢] وفي الثانية بأمرين وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٣] وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١، ٣] وقد ذكرنا الحكم فيه أن معجزات النبي ﷺ القرآن، فأقسم به ليكون في القسم الإشارة واقعة إلى البرهان، وفي باقي السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به؛ لكون إنكارهم في ذلك خارجًا عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في صورة القسم بالحروف.

المسألة الثالثة: أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة في سور خمس، ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة في سورة أصلاً، فلم يقل: والصالحين من عبادي، ولا المقربين... إلى غير ذلك، مع أن المذكر أشرف، وذلك لأن جموع السلامة بالواو والنون في الأمر الغالب لمن يعقل، وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا في صورة ظهور الأمر فيه، وحصول الاعتراف منهم به، ولا للرسالة لحصول ذلك في صور القسم بالحروف والقرآن.

بقي أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح، وعذاب الطالح، ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل، فكان الأمر يقتضي أن يكون القسم بغيرهم، والله أعلم.

المسألة الرابعة: في السورة التي أقسم لإثبات الوحدانية، أقسم في أول الأمر بالساكنات حيث قال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١] وفي السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات، فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] ويؤيده قوله تعالى:

﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾ . . . ﴿فَالسَّٰبِقَٰتِ﴾ [النازعات: ٣، ٤] وقال: ﴿وَالْعَٰدِيَٰتِ﴾ [العاديات: ١] وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق، أو أن نقول: في جميع السور الأربع أقسم بالرياح على ما بين وهي التي تجمع وتفرق، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تعالى.

المسألة الخامسة: في الذاريات أقوال. الأول: هي الرياح تذرو التراب وغيره، كما قال تعالى: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. الثاني: هي الكواكب، من ذرا يذرو إذا أسرع. الثالث: هي الملائكة. الرابع: رب الذاريات، والأول أصح.

المسألة السادسة: الأمور الأربعة جاز أن تكون أمورًا متباينة، وجاز أن تكون أمرًا له أربع اعتبارات: الأول: هو ما روي عن علي عليه السلام، أن الذاريات هي الرياح، والحاملات هي السحاب، والجاريات هي السفن، والمقسِّمات هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق[١].
والثاني وهو الأقرب: أن هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات هي الرياح التي تنشئ السحاب أولاً، والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقل من جبال، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار، ويحتمل أن يقال: هذه أمور أربعة مذكورة في مقابلة أمور أربعة بها تتم الإعادة، وذلك لأن الأجزاء التي تفرقت بعضها في تخوم الأرضين، وبعضها في قعور البحور، وبعضها في جو الهواء، وهي الأجزاء اللطيفة البخارية التي تنفصل عن الأبدان، فقوله تعالى: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ﴾ يعني الجامع للذاريات من الأرض، على أن الذارية هي التي تذرو التراب عن وجه الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ هي التي تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملاً، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملاً، بل تنقله من موضع وترميه في موضع، بخلاف السحاب، فإنه يحمله وينقله في الجو حملاً لا يقع منه شيء، وقوله: ﴿فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ إشارة إلى الجامع من الماء، فإن من يُجري السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر، فإذا تبين أن الجمع من الأرض، وجو الهواء ووسط البحار ممكن، وإذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأمر الله، وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلاً، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾.

(١) لم أجده.

المسألة السابعة: ما هذه المنصوبات من حيث النحو؟ فنقول: أما ﴿ذَرْوًا﴾ فلا شك في كونه منصوبًا على أنه مصدر، وأما ﴿وِقْرًا﴾ فهو مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلاً ثقيلاً، ويحتمل أن يكون اسمًا أقيم مقام المصدر، كما يقال: (ضربه سوطًا) يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو. وأما ﴿يُسْرًا﴾ فهو أيضًا منصوب على أنه صفة مصدر، تقديره جريًا ذا يسر، وأما ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ فهو إما مفعول به، كما يقال: فلان قسَّم الرزق أو المال وإما حال أتى على صورة المصدر، كما يقال: قتلته صبرًا، أي مصبورًا، كذلك هاهنا ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ أي مأمورة، فإن قيل: إن كان ﴿وِقْرًا﴾ مفعوله به فلمَ لم يُجمع، وما قيل: والحاملات أوقارًا؟ نقول: لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح، وهي تتوارد على وقر واحد، فإن ريحًا تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب، فتهب أخرى وتسوقها، وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح، وكذلك القول في المقسمات أمرًا، إذا قلنا هو مفعول به؛ لأن جماعة يكونون مأمورين تنقسم أمرًا واحدًا، أو نقول: هو في تقدير التكرير، كأنه قال: فالحاملات وقرًا وقرًا، والمقسمات أمرًا أمرًا.

المسألة الثامنة: ما فائدة الفاء؟ نقول: إن قلنا: إنها صفات الرياح فلبيان ترتيب الأمور في الوجود، فإن الذاريات تنشئ السحاب فتقسم الأمطار على الأقطار، وإن قلنا: إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب في القسم لا للترتيب في المقسم به، كأنه يقول: أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات.

وقوله: ﴿فَالْحَٰمِلَٰتِ﴾ وقوله: ﴿فَالْجَٰرِيَٰتِ﴾ إشارة إلى بيان ما في الرياح من الفوائد، أما في البر فإنشاء السحب، وأما في البحر فإجراء السفن، ثم المقسِّمات إشارة إلى ما يترتب على حمل السحب وجري السفن من الأرزاق، والأرياح التي تكون بقسمة الله تعالى فتجري سفن بعض الناس كما يشتهي ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾

(ما) يحتمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق و(أن) تكون موصولة أي الذي توعدون صادق، والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية، ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة، فكما أن من قال (فلان لُطف محض وحِلْم) يجب أن يكون قد بالغ، كذلك من قال: كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك، يكون قد بالغ، والوجه فيه هو أنه إذا قال: (هو لطف) بدل قوله (لطيف) فكأنه قال اللطيف شيء له لطف ففي اللطيف لطف وشيء آخر، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفًا، وفي الثاني لما كان الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه، فكأنه قال: هذا الكلام لا يحوج إلى شيء آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه، بل هو

كافٍ في إطلاق الصادق لكونه سببًا قويًا، وقوله تعالى: ﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون من وعد، ويحتمل أن يكون من أوعد، والثاني هو الحق لأن اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي الجزاء كائن، وعلى هذا فالإيعاد بالحشر في الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب، فكأنه بيّن بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أن الحساب يستوفى والعقاب يوفى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾. **وفي تفسيره مباحث:**

الأول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قيل: الطرائق، وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها، كما يقال في المحابك، ويحتمل أن يكون المراد ما في السماء من الأشكال بسبب النجوم، فإن في سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذي يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وقيل: حبكها صفاقها، يقال في الثوب الصفيق: حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [الطارق: ١١] لشدتها وقوتها وهذا ما قيل فيه.

البحث الثاني: في المقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ وفي تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة: الأول: إنكم لفي قول مختلف في حق محمد ﷺ، تارة تقولون: إنه أمين وأخرى إنه كاذب، وتارة تنسبونه إلى الجنون، وتارة تقولون: إنه كاهن وشاعر وساحر. وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا؛ لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين. الثاني: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي غير ثابتين على أمر. ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنًا في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى: والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تُظهرون الجزم لشدة عنادكم. وعلى هذا القول فيه فائدة وهي أنهم لما قالوا للنبي ﷺ: إنك تعلم أنك غير صادق في قولك، وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل. قال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ أي إنك صادق ولست معاندًا. ثم قال تعالى: بل أنتم والله جازمون بأني صادق. فعكس الأمر عليهم. الثالث: إنكم لفي قول مختلف، أي متناقض، أما في الحشر فلأنكم تقولون: لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فإذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت، فماذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم؟ وإنما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذابًا فلو علمنا شيئًا يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم إنا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر، وأما في التوحيد فتقولون: خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون: هو إله الآلهة. وترجعون إلى الشرك، وأما

في قول النبي ﷺ فتقولون: إنه مجنون ثم تقولون له: إنك تغلبنا بقوة جدلك، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز؟! إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أنه مدح للمؤمنين، أي يؤفك عن القول المختلف ويُصرف مَن صُرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوي. وثانيها: أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول. ثالثها: يؤفك عن القول بالحشر. رابعها: يؤفك عن القرآن، وقرئ: (يؤفن عنه من أُفن)، أي يُحْرم، وقرئ: (يؤفك عنه من أَفَك)، أي كذب.

ثم قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ وهذا يدل على أن المراد من قوله: ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين، بل هم يظنون ويخرصون، ومعناه (لُعن الخراصون) دعاء عليهم بمكروه، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ وفيه مسألتان: إحداهما لفظية والأخرى معنوية:

أما اللفظية: فقوله: ﴿سَاهُونَ﴾ يحتمل أن يكون خبرًا بعد خبر، والمبتدأ هو قوله: ﴿هُمْ﴾ وتقديره: هم كائنون في غمرة ساهون، كما يقال: (زيد جاهل جائر) لا على قصد وصف الجاهل بالجائر، بل الإخبار بالوصفين عن زيد، ويحتمل أن يكون ﴿سَاهُونَ﴾ خبرًا و﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ ظرف له، كما يقال: (زيد في بيته قاعد) يكون الخبر هو القاعد لا غير و(في بيته) لبيان ظرف القعود كذلك ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ لبيان ظرف السهو الذي يصح وصف المعرفة بالجملة، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة.

وأما المعنوية: فهي أن وصف الخراص بالسهو والانهماك في الباطل، يحقق ذلك كون الخراص صفة ذم، وذلك لأن ما لا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص، كما يقال في خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك، وأما الخرص في محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال: قُتل الخراصون الذين هم جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم في التخمين والحزر وقوله تعالى: ﴿سَاهُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ يفيد أنهم وقعوا في جهل وباطل ونُسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ فإن قيل: الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفًا لظرف آخر، وهاهنا جعل (أيان) ظرف (اليوم) فقال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ويقال: متى يقدم زيد؟ فيقال: يوم الجمعة. ولا يقال: متى يوم الجمعة؟ فالجواب: التقدير: متى يكون يوم الجمعة؟ وأيان يكون يوم الدين؟ و(أيان) من المركبات ركب من (أي) التي يقع بها الاستفهام و(آن) التي هي الزمان أو من (أي) و(أوان) فكأنه قال: (أي أوان) فلما رُكب بُني. وهذا منهم

جواب لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ فكأنهم قالوا: (أيان يقع؟) استهزاء وترك المسؤول في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ حيث لم يقل يسألون من، يدل على أن غرضهم ليس الجواب وإنما يسألون استهزاء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

يحتمل وجهين. أحدهما: أن يكون جوابًا عن قولهم: (أيان يقع؟) يقع وحينئذٍ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم، كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأول، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى، فإذا قال قائل: متى يقدم زيد؟ فلو قال المجيب: (يوم يقدم رفيقه) ولا يُعلم يوم قدوم الرفيق، لا يصح هذا الجواب إلا إذا كان الكلام في صورة جواب، ولا يكون جوابًا، كما أن القائل إذا قال: كم تعد عداتي تخلفها إلى متى هذا الإخلاف؟ فيغضب ويقول: إلى أشأم يوم عليك. الكلامان في صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال، ولا الثاني يريد به الجواب، فكذلك هاهنا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ مقابلة استهزائهم بالإيعاد لا على وجه الإتيان بالبيان. والثاني: أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ فإن قيل: هذا يفضي إلى الإضمار. نقول: الإضمار لا بد منه لأن قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ غير متصل بما قبله إلا بإضمار (يقال) و(يُفتنون) قيل معناه: يحرقون، والأَوْلى أن يقال: معناه يُعْرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار. وكلمة (على) تناسب ذلك، ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو في النار أليق لأن الفتنة هي التجربة، وأما ما يقال: من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة. فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن، وههنا يقال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ والفتنة الامتحان، فإن قيل: فإذا جعلت ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ مقولاً لهم ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ فما قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول. كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] إلى غير ذلك يدل عليه هاهنا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢] فإنه نوع استعجال، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل، وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾ بعد بيان حال المغترين المجرمين بين حال المحق المتقي. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن المتقي له مقامات، أدناها أن يتقي الشرك، وأعلاها أن يتقي ما سوى الله، وأدنى درجات المتقي الجنة، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها.

المسألة الثانية: الجنة تارة وحّدها كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الرعد: ٣٥] وأخرى جمعها كما في هذا المقام قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ وتارة ثناها فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] فما الحكمة فيه؟ نقول: أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لا يحصرها عدد، وأما التثنية فسنذكرها في سورة الرحمن غير أنا نقول هاهنا: الله تعالى عند الوعد وحّد الجنة، وكذلك عند الشراء حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة، والخلاف ما لو وعد بجنات، ثم كان يقول إنه في جنة لأنه دون الموعود.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعُيُونٍ﴾ يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء أو غير ذلك من المائعات، نقول: معناه في خلال العيون، وذلك بين الأنهار، بدليل أن قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ ليس معناه إلا بين جنات وفي خلالها لأن الجنة هي الأشجار، وإنما يكون بينها، كذلك القول في العيون، والتنكير مع أنها معرفة للتعظيم، يقال: (فلان رجل) أي عظيم في الرجولية.

وقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه مسائل ولطائف:

أما المسائل:

فالأولى منها: ما معنى آخذين؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: قابضين ما آتاهم شيئًا فشيئًا ولا يستوفونه بكماله؛ لامتناع استيفاء ما لا نهاية له. ثانيها: آخذين: قابلين قَبول راضٍ كما قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ١٠٤] أي يقبلها، وهذا ذكره الزمخشري. وفيه وجه ثالث: وهو أن قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ يدل على السكنى فحسب وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ يدل على التملك ولذا يقال: أخذ بلاد كذا وقلعة كذا، إذا دخلها متملكًا لها، وكذلك يقال لمن اشترى دارًا أو بستانًا أخذه بثمن قليل، أي تملكه، وإن لم يكن هناك قبض حسًّا ولا قبول برضا، وحينئذٍ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك، بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله: ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحًا، وإنما كان بإعطاء الله تعالى، وعلى هذا الوجه ﴿مَآ﴾ راجعة إلى الجنات والعيون.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى ثمنها، أي أخذوها وملكوها بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[يونس: ٢٦] بلام الملك وهي الجنة.

المسألة الثانية: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حال وهو في معنى قول القائل: (يأخذون) فكيف قال: (ما آتاهم) ولم يقل: (ما يؤتيهم) ليتفق اللفظان ويوافق المعنى لأن قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ ينبئ عن الانقراض وقوله: ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾[النساء: ١٥٢] تنبيه على الدوام، وإيتاء الله في الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول، كيف يصح أن يقال: فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس؟

نقول: أما على ما ذكرنا من التفسير لا يرد لأن معناه يتملكون ما أعطاهم، وقد يوجد الإعطاء أمس ويتملك اليوم، وأما على ما ذكروه فنقول: الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو في الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها، فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيرًا مما آتاه، ولا ينافي ذلك كونه داخلاً على تلك الهيئة، يقول القائل: جئتك خائفًا فإذا أنا آمن. وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصرًا على ما آتاهم من قبل، وليس كذلك وإنما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره، فيؤتيهم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾[يس: ٥٥] هو أخذهم ما آتاهم، وقد ذكرناه في سورة يس.

المسألة الثالثة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: يحتمل وجهين: أحدهما: قبل دخولهم لأن قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ فيه معنى الدخول، يعني قبل دخولهم الجنة أحسنوا. ثانيهما: قبل إيتاء الله ما آتاهم الحسنى وهي الجنة فأخذوها. وفيه وجوه أُخر، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم.

وأما اللطائف فقد سبق بعضها، ومنها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال: (الذين آمنوا) لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين، ولذلك دلالة أتم من قول القائل إنهم أحسنوا. اللطيفة الثانية: أما التقوى فلأنه لما قال: (لا إله) فقد اتقى الشرك، وأما الإحسان فلأنه لما قال: (إلا الله) فقد أتى بالإحسان، ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفي الإحسان قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فصلت: ٣٣] وقيل في تفسير: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠] إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله، وهما حينئذٍ لا يتفاصلان بل هما متلازمان.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين، تقول: حاتم كان سخيًّا كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده.

وفيه مباحث:

الأول: ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الظرف، تقديره: يهجعون قليلاً، تقول: قام بعض الليل، فتنصب (بعض) على الظرف وخبر (كان) هو قوله: ﴿يَهْجَعُونَ﴾ و(ما) زائدة، هذا هو المشهور، وفيه وجه آخر وهو أن يقال: كانوا قليلاً، معناه نفي النوم عنهم، وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل، وأنكر الزمخشري كون (ما) نافية، وقال: لا يجوز أن تكون نافية لأن بعد (ما) لا يعمل فيما قبلها، لا تقول: زيدًا ما ضربت، ويجوز أن يعمل ما بعد لم فيما بعدها تقول: زيدًا لم أضرب، وسبب ذلك هو أن الفعل المتعدي إنما يفعل في النفي حملاً له على الإثبات لأنك إذا قلت: ضرب زيد عمرًا، ثبت تعلق فعله بعمرو فإذا قلت: ما ضربه، لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه، لكن النفي محمول على الإثبات، فإذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة إلى الإثبات

كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل، فإنه يعمل عمل الفعل، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل، فلا تقول: زيد ضارب عمرًا أمس، وتقول: زيد ضارب عمرًا غدًا واليوم والآن؛ لأن الماضي لم يبق موجودًا ولا متوقع الوجود، فلا يتعلق بالمفعول حقيقة، لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل، إذا عرفت هذا فنقول: (ما ضرب) للنفي في المضي فاجتمع فيه النفي والمضي فضعف، وأما (لم أضرب) وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضي لكن الصيغة صيغة المستقبل، فوجد فيه ما يوجد في قول القائل: (زيد ضارب عمرًا غدًا) فأعمل. هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول: ﴿قَلِيلًا﴾ ليس منصوبًا بقوله: ﴿يَهْجَعُونَ﴾ وإنما ذلك خبر كانوا أي كانوا قليلين. ثم قال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي ما يهجعون أصلاً بل يحيون الليل جميعه و(مِن) يكون لبيان الجنس لا للتبعيض، وهذا الوجه حينئذٍ فيه معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وذلك لأنا ذكرنا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الذاريات: ١٥] فيه معنى الذين آمنوا، وقوله: ﴿مُحْسِنِينَ﴾ فيه معنى الذين عملوا الصالحات، وقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

البحث الثاني: على القول المشهور وهو أن (ما) زائدة يحتمل أن يكون قليلاً صفة مصدر تقديره: يهجعون هجوعًا قليلاً.

البحث الثالث: يمكن أن يقال: ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على أنه خبر كان و(ما) مصدرية تقديره: كان هجوعهم من الليل قليلاً، فيكون فاعل ﴿كَانُوا۟﴾ هو الهجوع، ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لأن هجوعهم متصل بهم فكأنه قال: كان هجوعهم قليلاً، كما يقال: كان زيد خلقه حسنًا، فلا يحتاج إلى القول بزيادة، واعلم أن النحاة لا يقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل (زيد حسن وجهه أو الوجه) وبين قوله (زيد وجهه حسن) فيقولون في الأول صفة وفي الثاني بدل. ونحن حيث قلنا: إنه من باب بدل الاشتمال، أردنا به معنى لا اصطلاحًا، وإلا فقليلاً عند التقديم ليس في النحو مثله عند التأخير حتى قولك (فلان قليل هجوعه) ليس ببدل، و(فلان هجوعه قليل) بدل، وعلى هذا يمكن أن تكون (ما) موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلاً من الليل. هذا ما يتعلق باللفظ.

أما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلاً في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في أواخر الآيات، بل فيه فائدتان: الأولى: هي أن الهجوع راحة لهم، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى، فلو قال: (كانوا يهجعون) كان المذكور أولاً راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول: إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون. وإذا قدم قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع، وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل؛ لأن الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة، فإن الهجوع لو لم يكن لكان نفي القلة

أَوْلى ولا كذلك قلة الهجوع لأنها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة في الظاهر.

الفائدة الثانية: في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطاعة إلا متعبد مقبل، فإن قيل: الهجوع لا يكون إلا بالليل، والنوم نهارًا لا يقال له الهجوع. قلنا: ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول: رأيت حيوانًا ناطقًا فصيحًا، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا في بعض المواضع فلا نقول: رأيت فصيحًا ناطقًا حيوانًا، إذا عرفت هذا فنقول: في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ذكر أمرًا هو كالعام يحتمل أن يكون بعده: كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك، فإذا قال: (يهجعون) فكأنه خصص ذلك العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾

إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون، يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير، وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويَمُن به.

وفيه وجه آخر ألطف منه، وهو أنه تعالى لما بيّن أنهم يهجعون قليلاً، والهجوع مقتضى الطبع، قال: ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي من ذلك القدر من النوم القليل.

وفيه لطيفة أخرى تنبيهًا في جواب سؤال، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال: كانوا كثيرًا من الليل ما يسهرون، فما الحكمة فيه، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع؟ نقول: إشارة إلى أن نومهم عبادة، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلاً، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار في وجوه الأسحار، ومَنَعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار.

وفيه مباحث:

البحث الأول: في الباء فإنها استعملت للظرف ههنا، وهي ليسَت للظرف، نقول: قال بعض النحاة: إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، يقال في الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان، فيستعمل اللام والباء وفي، وكذلك في المكان، نقول: أقمت بالمدينة كذا وفيها، ورأيته ببلدة كذا وفيها، فإن قيل: ما التحقيق فيه؟ نقول: الحروف لها معانٍ مختلفة، كما أن الأسماء والأفعال كذلك، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى، والاسم والفعل مستقلان، لكن بين بعض الحروف وبعضها تنافٍ وتباعد، كما في الأسماء والأفعال، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان، وكذلك سكن ومكث، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد، إذا عرفت هذا فنقول: بين الباء واللام وفي مشاركة، أما الباء فإنها للإلصاق، والمتمكن في مكان ملتصق به متصل، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان، فإذا قال: سار بالنهار، معناه

ذهب ذهابًا متصلاً بالنهار، وكذا قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي استغفارًا متصلاً بالأسحار مقترنًا بها؛ لأن الكائن فيها مقترنًا بها، فإن قيل: فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت؟ نقول: نعم، وذلك لأن من قال: قمت بالليل واستغفرت بالأسحار، أخبر عن الأمرين، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله: قمت في الليل؛ لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل، وكذلك قول القائل: أقمت ببلد كذا، لا يفيد أنه كان محاطًا بالبلد، وقوله: أقمت فيها، يدل على إحاطتها به، فإذن قول القائل: أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار، أعم من قوله: قمت فيه؛ لأن القائم فيه قائم به، والقائم به ليس قائمًا فيه من كل بد، إذا علمت هذا فقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتًا عن العبادة، فإنهم بالليل لا يهجعون، ومع أول جزء من السحر يستغفرون، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب؛ لأنهم وقت الانتباه في الأسحار لم يخلُ الوقت للذنب، فإن قيل: زدنا بيانًا فإن من الأزمان أزمانًا لا تُجعل ظروفًا بالباء، فلا يقال: خرجت بيوم الجمعة ويقال بفي. نقول: إن كل فعل جارٍ في زمان فهو متصل به، فالخروج يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان، ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة. نقول: الفارق بينهما الإطلاق والتقييد، بدليل أنك إن قلت: خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة، لم يحسن، ولو قلت: خرجت بيوم سعد، وخرج هو بيوم نحس، حَسُن، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء، وحيث زال الخصوص بالتنكير، وقلت خرجت بيوم كذا، عاد الجواز، والسر فيه أن مثل يوم الجمعة، وهذه الساعة، وتلك الليلة، وُجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات، وخصوصية الشيء في الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل، لكنها محصورة على الإجمال، مثاله إذا قلت: هذا الرجل، فالعام فيه هو الرجل، ثم إنك لو قلت: الرجل الطويل، ما كان يصير مخصصًا، لكنه يقرب من الخصوص، ويخرج من القِصار، فإن قلت العالِم، لم يصر مخصصًا لكنه يخرج عن الجهال، فإذا قلت: الزاهد، فكذلك، فإذا قلت: ابن عمرو، خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم، فإذا قلت: هذا يتناول تلك المخصصات التي بأجمعها لا تجتمع إلا في ذلك، فإذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان، والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشئ عن الزمان، وأما (في) فصحيح؛ لأن ما حصل في العام فهو في الخاص؛ لأن العام أمر داخل في الخاص، وأما (في) فيدخل في الذي فيه الشيء، فصح أن يقال: في يوم الجمعة، وفي هذه الساعة، وأما بحث اللام فنؤخره إلى موضعه، وقد تقدم بعضه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨].

وقوله: ﴿هُمۡ﴾ غير خالٍ عن فائدة، قال الزمخشري: فائدته انحصار المستغفرين، أي لكمالهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هو

العالم، لكماله في العلم، كأنه تفرد به. وهو جيد، ولكن فيه فائدة أخرى، وهي أن الله تعالى لما عطف ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة ﴿هُمْ﴾ لصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذي وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذي وهو يحسن، زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان. والاستغفار يحتمل وجوهًا: أحدها: طلب المغفرة بالذكر بقولهم: ربنا اغفر لنا. الثاني: طلب المغفرة بالفعل، أي بالأسحار يأتون بفعل آخر طلبًا للغفران، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات. الثالث وهو أغربها: الاستغفار من باب: استحصد الزرع، إذا جاء أوان حصاده، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة، فإن قيل: فالله لم يؤخر مغفرتهم إلى السحر؟ نقول: وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار، وهو الوقت المشهود، فيقول الله على ملأ منهم: إني غفرت لعبدي. والأول أظهر، والثاني عند المفسرين أشهر.

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

وقد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه، ولا شك أن قليل الهجوع المستغفر في وجوه الأسحار وُجد منه التعظيم العظيم، فأشار إلى الشفقة بقوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أضاف المال إليهم، وقال في مواضع: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧] وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] نقول: سببه أن في تلك المواضع كان الذكر للحث، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع، فقال: هو رزق الله والله يزرقكم فلا تخافوا الفقر وأعطوا، وأما هاهنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة.

المسألة الثانية: المشهور في الحق أنه هو القدر الذي عُلم شرعًا وهو الزكاة، وحينئذٍ لا يبقى هذا صفة مدح؛ لأن كون المسلم في ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح؛ لأن كل مسلم كذلك، بل الكافر إذا قلنا: إنه مخاطب بفروع الإسلام في ماله حق معلوم، غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات عوقب على تركه، وإن أدى من غير الإسلام لا يقع الموقع، فكيف يُفهم كونه مدحًا؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أنا نفسر السائل بمن يطلب شرعًا، والمحروم الذي لا مكنة له من الطلب ومنعه الشارع من المطالبة، ثم إن المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق، وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب، فقال تعالى في ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها، فإن ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلبًا على سبيل الجزية والزكاة، بل يسأل سؤالاً اختياريًا فيكون حينئذٍ كأنه قال: في ماله زكاة وصدقة، والصدقة في المال لا تكون إلا بفرضه هو ذلك وتقديره وإفرازه للفقراء والمساكين.

الجواب الثاني: هو أن قوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ أي مالهم ظرف لحقوقهم فإن كلمة (في)

للظرفية لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف، فكأنه تعالى قال: هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفًا للحق، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم، فجعل مالهم ظرفًا للحقوق، ولا يكون فوق هذا مدح. فإن قيل: فلو قيل: مالهم للسائل هل كان أبلغ؟ قلنا: لا وذلك لأن من يكون له أربعون دينارًا فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة، لكن إذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر، وهذا كما في الصلاة والصوم ولو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى»(١). وفي السائل والمحروم وجوه: أحدها: أن السائل هو الناطق وهو الآدمي، والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوانات المحرومة، قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ»(٢) وثانيها: وهو الأظهر والأشهر، أن السائل هو الذي يسأل، والمحروم المتعفف الذي يحسبه بعض الناس غنيًّا فلا يعطيه شيئًا. والأول: كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]. والثاني: كقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] فالقانع كالمحروم. فإن قيل: على الوجه الأول الترتيب في غاية الحسن، فإن دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم، فما وجه الترتيب في الوجه الثاني؟ نقول: فيه وجهان. أحدهما: أن السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم في الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته، والمحروم غير معلوم فلا

---

(١) **ضعيف**: البيهقي في (سننه الكبرى) (٣/ ١٨)، حديث رقم (٤٥٢٠)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ١٨٤)، حديث رقم (١١٤٧)، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٤١٥)، حديث رقم (١١٧٨)، جميعًا من طريق خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل يحيى بن المتوكل، عن محمد بن سوقة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله... به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢٨٤)، حديث رقم (٢٣٣٩). وقال: رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي وابن طاهر وأبو نعيم والقضاعي والعسكري والخطابي في العزلة عن جابر مرفوعًا بلفظ: «أن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» واختلف في إرساله ووصله، ورجح البخاري في تاريخه الإرسال، وأخرجه البيهقي أيضًا والعسكري عن عمرو بن العاص رفعه لكن بلفظ: «فإن المنبت لا سفرًا قطع، ولا ظهرًا أبقى» وزاد: «فاعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدًا، واحذر حذرًا تخشى أن تموت غدًا» وسنده ضعيف، وله شاهد ثم العسكري عن علي رفعه: «إن دينكم متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع» وفي سنده الفرات بن السائب ضعيف. اهـ بتصرف.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢١٥)، رقم (٣٦٨٦)، وأحمد (٤/ ١٧٥)، رقم (١٧٦٢٣)، قال البوصيري (٤/ ١٠٦): هذا إسناد ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق، والطبراني (٧/ ١٣١)، رقم (٦٥٩٨)، والبيهقي (٤/ ١٨٦)، رقم (٧٥٩٦)، ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٧٦)، رقم (١٠٣٢)، جميعًا من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه كعب بن مالك، عن سراقة بن مالك، وأخرجه ابن حبان (٢/ ٢٩٩)، رقم (٥٤٢)، من طريق ابن شهاب، عن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعشم... به، أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢)، رقم (٧٠٧٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٩)، رقم (١١٤) من طريق أسامة أن عمرو بن شعيب حدثه عن أبيه عن جده... به، وأخرجه الحاكم (٣/ ٧١٨)، رقم (٦٥٩٩)، وأخرجه أيضًا الطبراني (٧/ ١٣٢)، رقم (٦٦٠٠)، قال الهيثمي (٣/ ١٣١): رجاله ثقات. وأورده الألباني في الصحيحة (٢١٥٢) وقال: صحيح.

تندفع حاجته إلا بعد الاطلاع عليه، فكان الذكر على الترتيب الواقع. وثانيهما: هو أن ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطي السائل، فإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً. الثالث: هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، فإن قول القائل: إن رجوعهم إلينا وعلينا حسابهم، ليس كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى، وكما أن الإنسان الذي نَوَّر روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة، كذلك الكلام ورُب كلمة حكمية لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أحسن من حيث اللفظ من قولنا: وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للمحروم والسائل، فإن قيل: قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه، ولَم قدم المحروم على السائل في قوله: ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] لأن القانع هو الذي لا يسأل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ السائل؟ نقول: قد قيل: إن القانع هو السائل والمعتر الذي لا يسأل، فلا فرق بين الموضعين، وقيل بأن القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للأخذ بالسلام والتردد ولا يسأل، وقيل بأن القانع لا يسأل والمعتر يسأل، فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية، والزكاة لها طالب وسائل هو الساعي والإمام، فقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ إشارةً إلى الزكاة وقوله: ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أي الممنوع، إشارة إلى الصدقة المتطوع بها وإحداهما قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم.

قوله تعالى: ﴿وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾

وهو يحتمل وجهين. أحدهما: أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]. وثانيهما: أن يكون متعلقًا بأفعال المتقين، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده، وكان لهم آيات في الأرض، وفي أنفسهم على إصابتهم الحق في ذلك، فإن من يكون له في الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى، ومن له من أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل؟ قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]؟ نقول: قد ذكرنا أن اليمين آخر ما يأتي به

المبرهن وذلك لأنه أولاً يأتي بالبرهان، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لا بد له من أن ينسبه الخصم إلى إصرار على الباطل لأنه إذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه إلى المكابرة فيتعين طريقه في اليمين، فإذًا آيات الأرض لم تفدهم لأن اليمين بقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[الذاريات: ١] دلت على سبق إقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ وإن لم يحصل للمُصر المعاند منها فائدة، وأما في سورة يس وغيرها من المواضع التي جعل فيها آيات الأرض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله، فجاز أن يقال: إن الأرض آيات لمن ينظر فيها. الجواب الثاني وهو الأصح: أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين، أي حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا.

المسألة الثانية: هاهنا قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ وقال هناك: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ﴾[يس: ٣٣] نقول: لما جعل الآية ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ ذكر بلفظ الجمع لأن الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حال ويرى في كل شيء آيات دالة، وأما الغافل فلا يتنبه إلا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إشارة إلى دليل الأنفس، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[فصلت: ٥٣] وإنما اختار من دلائل الآفاق ما في الأرض لظهورها لمن على ظهورها، فإن في أطرافها وأكنافها ما لا يمكن عد أصنافها، فدليل الأنفس في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ عام، ويحتمل أن يكون مع المؤمنين، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما في نفسه أتم. وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل أن يكون المراد: وفيكم، يقال: الحجارة في نفسها صُلبة ولا يراد بها النفس التي هي منبع الحياة والحس والحركات، ويحتمل أن يكون المراد: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات. وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بالاستفهام إشارة إلى ظهورها.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: في السحاب المطر.

ثانيها: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ مكتوب.

ثالثها: تقدير الأرزاق كلها من السماء، ولولاه لما حصل في الأرض حبة قوت. وفي الآيات الثلاث ترتيب حسن، وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لا بد من سبقها حتى يوجد هو في نفسه، وأمور تقارنه في الوجود، وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها، فالأرض هي المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ ثم في نفس الإنسان أمور من الأجسام

والأعراض فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ثم بقاؤه بالرزق فقال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ولولا السماء لما كان للناس البقاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: الجنة الموعود بها لأنها في السماء. ثانيها: هو من الإيعاد لأن البناء للمفعول من أوعد يُوعَد، أي وما توعدون إما من الجنة والنار في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[الذاريات: ١٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾[الذاريات: ١٥] فيكون إيعادًا عامًّا، وإما من العذاب وحينئذٍ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال: وفي الأرض آيات للموقنين كافية، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات هي أظهر الآيات وتكفرون لها لحطام الدنيا وحب الرياسة، وفي السماء الأرزاق، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل، لما تركتم الحق لأجل الرزق، فإنه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ وفي المقسم عليه وجوه: أحدها: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي ما توعدون لحق، يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[الذاريات: ٥] وعلى هذا يعود كل ما قلناه من وجوه ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ إن قلنا: إن ذلك هو الجنة، فالمقسم عليه هو هي. ثانيها: الضمير راجع إلى القرآن، أي أن القرآن حق وفيما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾[الذاريات: ٩] دليل هذه، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ معناه تكلم به المَلَك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون. وسنذكره. ثالثها: أنه راجع إلى الدين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[الذاريات: ٦]. رابعها: أنه راجع إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[الذاريات: ١٢] يدل عليه وصف الله اليوم بالحق في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾[النبأ: ٣٩]. خامسها: أنه راجع إلى القول الذي يقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[الذاريات: ١٤].

وفي التفسير مباحث:

الأول: الفاء تستدعي تعقيب أمر لأمر فما الأمر المتقدم؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: الدليل المتقدم، كأنه تعالى يقول: إن ما توعدون لحق بالبرهان المبين، ثم بالقسم واليمين. ثانيهما: القسم المتقدم، كأنه تعالى يقول: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ثم ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل، إذ يصح أن يقال: ومررت بعمرو، فقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾[الذاريات: ١، ٢] عطف من غير إعادة حرف القسم، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع إعادة حرفه، والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين، ويحتمل أن يقال: الأمر المتقدم هو بيان الثواب في قوله: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[الذاريات: ١٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾[الذاريات: ١٥] وفيه فائدة، وهو أن الفاء تكون تنبيهًا على أن لا حاجة إلى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين، فكأنه يقول ورب السماء والأرض إنه لحق. كما يقول القائل بعدما يُظهر دعواه: هذا والله إن الأمر كما ذكرت. فيؤكد قوله باليمين، ويشير إلى ثبوته من غير يمين.

البحث الثاني: أقسم من قبل بالأمور الأرضية وهي الرياح وبالسماء في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] ولم يقسم بربها، وهاهنا أقسم بربها. نقول: كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولاً بالأدنى فإن لم يصدق به يرتقي إلى الأعلى، ولهذا قال بعض الناس: إذا قال قائل (وحياتك والله) لا يكفر، وإذا قال: (والله وحياتك) لا شك يكفر وهذا استشهاد، وإن كان الأمر على خلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب، أو باللفظ الظاهر في أمر القلب، أو بالفعل الظاهر، وما ذكره ليس بظاهر في تعظيم جانب غير الله، والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير في الذكر مفيدًا للترتيب في الوضوء وغيره.

البحث الثالث: قرئ (مثلُ) بالرفع، وحينئذٍ يكون وصفًا لقوله (لحقّ) و(مثل) وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به، تقول: رأيت رجلاً مثل عمرو؛ لأنه لا يفيده تعريفًا لأنه في غاية الإبهام. وقرئ: (مثل) بالنصب، ويحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى ما هو ضعيف وإلا جاز أن يقال: زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتمه. ثانيهما: أن يكون منصوبًا على البيان، تقديره: لحقّ حقًّا مثل، ويحتمل أن يقال: إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور، ووجهه أنا دللنا أن المراد من الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ هو القرآن، فكأنه قال: إن القرآن لحق نطق به المَلَك نطقًا ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ و(ما) مجرور لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته في بعض الأشياء، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان المراد ما ذكرت من التسلية والإنذار، فأي فائدة في حكاية الضيافة؟ نقول: ليكون ذلك إشارة إلى الفرج في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة والأغبياء، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب، قال الله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته.

المسألة الثانية: كيف سماهم ضيفًا ولم يكونوا؟ نقول: لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفًا لم يكذبه الله تعالى في حسابه إكرامًا له، يقال في كلمات المحققين: الصادق يكون ما يقول، والصِّديق يقول ما يكون.

المسألة الثالثة: ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع، فكيف وصف الواحد بالجمع؟ نقول: الضيف يقع على القوم، يقال: قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرًا، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عبادًا مكرمين، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]

وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم، فإن قيل: بماذا أكرمهم؟ قلنا: ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانيًا، وتعجيل القِرى ثالثًا، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس، وكانوا عدة من الملائكة في قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث، وفي قول عشرة، وفي آخر اثنا عشرة.

المسألة الرابعة: هم أُرسلوا للعذاب بدليل قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢] وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة في مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام؟ نقول: فيه حكمة بالغة، وبيانها من وجهين: أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه، ومن إكرام المَلِك للذي في عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسولاً إلى غيره يقول له: اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه. وثانيهما: هو أن الله تعالى لما قدر أن يهلك قومًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم: بشِّروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما العامل في إذ؟ فيه وجوه: أحدها: ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا: وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم، فيكون كأنه تعالى يقول: أُكرموا إذ دخلوا، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول. ثانيها: ما في الضيف من الدلالة على الفعل، لأنا قلنا: إن الضيف مصدر، فيكون كأنه يقول: أضافهم إذ دخلوا. وثالثها: يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره: ما أتاك حديثهم وقت دخولهم، فاسمع الآن ذلك؛ لأن (هل) ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للإعلام، وهذا أَوْلى لأنه فعل مصرّح به، ويحتمل أن يقال: اذكر إذ دخلوا.

المسألة الثانية: لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة؟ نقول: نبين أولاً وجوه النصب والرفع، ثم نبيّن وجوه الاختلاف في الإعراب، أما النصب فيحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور، ونصبه حينئذٍ على المصدر تقديره: نسلِّم سلامًا.

ثانيها: هو أن يكون السلام نوعًا من أنواع الكلام وهو كلام سَلِم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنًا سلموا من الإثم، وحينئذٍ يكون مفعولاً للقول لأن مفعول القول هو الكلام، يقال: قال فلان كلامًا، ولا يكون هذا من باب (ضربه سوطًا) لأن المضروب هناك ليس هو السوط، وهاهنا القول هو الكلام فسَّره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢١].

ثالثها: أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره: نبلغك سلامًا، لا يقال على هذا: إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام، فما كان يقول: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولا كان يقرب إليهم الطعام، ولما قال: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ﴾ [هود: ٧٠] لأنا نقول: جاز أن يقال: إنهم قالوا: نبلغك سلامًا ولم يقولوا من الله تعالى، إلى أن سألهم إبراهيم عليه السلام: ممن تبلغون لي السلام؟ وذلك لأن الحكيم لا يأتي بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة، فلو ضموا إليه الأمر العظيم الذي هو السلام من الله تعالى لانزعج إبراهيم عليه السلام، ثم إن إبراهيم عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وأخَّر السؤال إلى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام. هذا وجه النصب. وأما الرفع فنقول: يحتمل أن المراد منه السلام الذي هو التحية وهو المشهور أيضًا، وحينئذٍ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره: سلام عليكم، وكون المبتدأ نكرة يحتمل في قول القائل: سلام عليكم وويل له، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: قال جوابه سلام، ويحتمل أن يكون المراد قولاً يسلم به أو ينبئ عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام، بمعنى مسالمة لا تعلق بيني وبينكم لأني لا أعرفكم، أو يكون المبتدأ قولكم، وتقديره: قولكم سلام ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم فإن الأمر أشكل عليَّ؟ وهذا ما يحتمل أن يقال في النصب والرفع.

وأما الفرق فنقول: أما على التفسير المشهور وهو أن السلام في الموضعين بمعنى التحية فنقول: الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى.

أما من حيث اللفظ: فنقول: (سلام عليك) إنما جُوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة، من حيث إنه كالمتروك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوبًا على تقدير أسلم سلامًا وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام، والكلام التام أسلم سلامًا، كما أنك تقول: ضربت زيدًا على السطح، يكون على السطح خارجًا عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعية كثير الوقوع، قالوا نعدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية ونجعل لعليك حظًا في الكلام، فنقول سلام عليك، فتصير عليك لفائدة لا بد منها، وهي الخبرية، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه، والأصل مقدم على المأخوذ منه، فقال: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ قدم الأصل على المتفرع منه.

وأما من حيث المعنى: فذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن، فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار، فإن قولنا: (جلس زيد) لا ينبئ عنه لأن الفعل لا بد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث ولهذا لو قلت: (الله موجود الآن) لأثبت العقل الدوام إذ لا ينبئ عن التجدد، ولو قال قائل: وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما

قالوا: سلامًا قال: سلام عليكم مستمر دائم، وأما على قولنا: المراد القول ذو السلامة، فظاهر الفرق، فإنهم قالوا قولاً ذا سلام، وقال لهم إبراهيم عليه السلام: (سلام) أي قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الأمر عليّ، وإن قلنا: المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلّموا عليه تسليمًا، فنقول: فيه جمع بين أمرين: تعظيم جانب الله، ورعاية قلب عباد الله، فإنه لو قال: (سلام عليكم) وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك، فيكون الرسول قد أمنهم، فإن السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل، فيكون فاعلاً للأمر من غير إذن الله نيابة عن الله فقال: أنتم سلّمتم عليّ وأنا متوقف أمري متاركة لا تعلق بيننا إلى أن يتبين الحال، ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال في مثل هذا المعنى للنبي ﷺ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] ولم يقل قل سلامًا، وذلك لأن الأخيار المذكورين في القرآن لو سلّموا على الجاهلين لا يكون ذلك سببًا لحرمة التعرض إليهم، وأما النبي ﷺ لو سلّم عليهم لصار ذلك سببًا لحرمة التعرض إليهم، فقال: قل سلام، أي أمري معكم متاركة تركناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر. وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلامًا فنقول: هم لما قالوا: نبلغك سلامًا. ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام، أي إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرفي وإلا فقد بلغني منه سلام وبه شرفي ولا أتشرف بسلام غيره، وهذا ما يمكن أن يقال فيه، والله أعلم بمراده. الأول والثاني عليهما الاعتماد فإنهما أقوى وقد قيل بهما.

المسألة الثالثة: قال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل منهم وقال هاهنا: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم، فما الوجه فيه؟ نقول: جاز أن يحصل أولاً عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم، والذي يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس، وكانوا في أنفسهم عند كل أحد منكرين، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال: أنتم منكرون في أنفسكم عند كل أحد منا. ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة إلى الكل، لكن الحالة في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره هاهنا، فإن هاهنا لم يبين المبشر به، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق، ولم يقل هاهنا إن القوم قوم مَن وهناك قال قوم لوط، وفي الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط، فذكر فيها النكتة الزائدة، ولم يذكر هاهنا. ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة، فالإكرام أولاً ممن جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم

أحدهما على الآخر - أنواع من الإكرام وهي اللقاء الحسن والخروج إليه والتهيؤ له، ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذي دل عليه النصب في قوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ إما لكونه مؤكدًا بالمصدر أو لكونه مبلغًا ممن هو أعظم منه، ثم الرد الحسن الذي دل عليه الرفع، والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء، فإن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم، بل قال أمري مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر. فإن ذلك وإن كان مخلاً بالإكرام، لكن الغدر ليس من شيم الكرام، ومودة أعداء الله لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، ثم تعجيل القِرى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ [هود: ٦٩] وقوله هاهنا: ﴿فَرَاغَ﴾ فإن الروغان يدل على السرعة، والروغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الرواح المخفي أيضًا كذلك، ثم الإخفاء فإن المضيف إذا أحضر شيئًا ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا، وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح ويأتي بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه، ثم اختيار الأجود بقوله: ﴿سَمِينٍ﴾ ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ لأن من قَدَّم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقرًا في مقره لا يختلف عليه المكان، فإنْ نَقَلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى. ثم العرض لا الأمر حيث قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل كلوا. ثم كون المضيف مسرورًا بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين يُحضرون طعامًا كثيرًا ويكون نظره ونظر أهل بيته في الطعام متى يمسك الضيف يده عنه، يدل عليه:

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾

ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المؤاكلة، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك، يدل عليه قوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم تحسين العبارة في العذر وذلك لأن من يكون محتميًا وأُحضر لديه الطعام فهناك أمران. أحدهما: أن الطعام لا يصلح له لكونه مضرًا به. الثاني: كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغي أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لي، بل الحسن أن يأتي بالعبارة الأخرى ويقول: لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل أيضًا شيئًا، يدل عليه قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا: لا يصلح لنا الطعام والشراب، ثم أدب آخر في البشارة أن لا يُخبَر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضًا، يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا: (نبشرك) ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن

الأوصاف فإن الابن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة، واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت، وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الإخبار عن إهلاكهم قوم لوط؛ ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف، ويأتي ببدلهم خيرًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي أقبلت على أهلها، وذلك لأنها كانت في خدمتهم، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة، وقوله تعالى: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي صيحة، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئًا من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، ويحتمل أن يقال: تلك الصيحة كانت بقولها: (يا ويلتا)، تدل عليه الآية التي في سورة هود، وصك الوجه أيضًا من عادتهن، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما: أحدهما: كبر السن. والثاني: العقم؛ لأنها كانت لا تلد في صغر سنها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاءً قريبًا من الإجابة، ظنًّا منها أن ذلك منهم، كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية كقول الداعي: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولدًا. فقالوا: هذا منا ليس بدعاء. وإنما ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وقد ذكرنا تفسيرهما مرارًا، فإن قيل: لمَ قال هاهنا: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقال في هود: ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] نقول: لما بينا أن الحكاية هناك أبسط، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله، وذكَّروهم بنعمته بقولهم: ﴿حَمِيدٌ﴾ فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة، وقولهم: ﴿مَّجِيدٌ﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه، وههنا لما لم يقولوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين، فالحميد يتعلق بالفعل، والمجيد يتعلق بالقول، وكذلك الحكيم هو الذي فعله، كما ينبغي لعلمه قاصدًا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقًا للمقصود اتفاقًا، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم، فإنه لا يقال له حكيم، وأما إذا فعل فعلاً قاصدًا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها، يقال له حكيم فيه. والعليم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده، وإن لم يفعل فعلاً وهو قاصد لعلمه، وإن لم يفعل على وفق القاصد.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لما علم حالهم بدليل قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] لِم لَم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لا غير؟ نقول: إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب

المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج: ما هذه العجلة، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك؟ ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق، لا سيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم، وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل، وهو أبو الأنبياء إسحاق عليه السلام على الصحيح، فإن قيل: فما الذي اقتضى ذكره بالفاء، ولو كان كما ذكرتم لقال: ما هذا الاستعجال، وما خطبكم المعجل لكم؟ نقول: لو كان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وإيناس ما كان يقول شيئًا، فلما آنسوه قال: ما خطبكم؟ أي بعد هذا الأنس العظيم، ما هذا الإيحاش الأليم؟

المسألة الثانية: هل في الخَطْب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ؟ نقول: نعم، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر، وأما الخطب فهو الأمر العظيم، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي لعظمتكم لا تُرسَلون إلا في عظيم، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول (ما شغلكم الخطير وأمركم العظيم) للزم التطويل، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾

المسألة الثالثة: من أين عرف كونهم مرسلين؟ فنقول: قالوا له، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] وإنما لم يُذكر هاهنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة في سورة هود، أو نقول: لما قالوا لامرأته: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات: ٣٠] علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى، يدل على هذا أن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كان جواب سؤاله منهم.

المسألة الرابعة: هذه الحكاية بعينها هي المحكية في هود، وهناك قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ [هود: ٧٠] بعد ما زال عنه الروع وبشروه، وهنا قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ بعدما سألهم عن الخطب، وأيضًا قالوا هناك: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] وقالوا ههنا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ والحكاية من قولهم، فإن لم يقولوا ذلك. ورد السؤال أيضًا، فنقول: إذا قال قائل حاكيًا عن زيد: قال زيد عمرو خرج، ثم يقول مرة أخرى: قال زيد إن بكرًا خرج، فإما أن يكون صدر من زيد قولان، وإما أن لا يكون حاكيًا ما قاله زيد، والجواب عن الأول: هو أنه لما خاف جاز أنهم ما قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] فلما قال لهم: ماذا تفعلون بهم؟ كان لهم أن يقولوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لنهلكهم، كما يقول القائل: خرجت من البيت، فيقال: لماذا خرجت؟ فيقول: خرجت لأتجر. لكن ههنا فائدة معنوية، وهي أنهم إنما قالوا في جواب: ما خطبكم؟ نهلكهم بأمر الله. لتعلم براءتهم عن إيلام البريء، وإهمال الرديء،

فأعادوا لفظ الإرسال، وأما عن الثاني: نقول: الحكاية قد تكون حكاية اللفظ، كما تقول: قال زيد: بعمرو مررت، فيحكي لفظه المحكي، وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول: زيد قال: عمرو خرج، ولك أن تبدل مرة أخرى في غير تلك الحكاية بلفظة أخرى، فتقول: لما قال زيد: بكر خرج، قَلت كيت وكيت، كذلك هاهنا القرآن لفظ معجز، وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم، وسواء كان منزلاً عليهم لم يكن لفظه معجزًا، فيلزم أن لا تكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ، فكأنهم قالوا له: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ وله أن يقول: إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك؛ لأنه لا يحكي لفظهم حتى يكون ذلك واحدًا، بل يحكي كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة، ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم في السلام على أحد الوجوه في التفسير، قال في الموضعين: سلامًا وسلام، ثم بيّن ما لأجله أُرسلوا بقوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ وقد فسرنا ذلك في العنكبوت، وقلنا: إن ذلك دليل على وجوب الرمي بالحجارة على اللائط.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أي حاجة إلى قوم من الملائكة، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه؟ نقول: المَلِك القادر قد يأمر الحقير بإهلاك الرجل الخطير، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير، إظهارًا لنفاذ أمره، فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التي بها الحياة، كان أظهر في القدرة، وحيث أمر الألآف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر في نفاذ الأمر. وفيه فائدة أخرى، وهي أن من يكون تحت طاعة ملك عظيم، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره، يكون ذلك تعظيمًا منه له، وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم، لكن الله تعالى أعان لوطًا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف، وبين العددين من التفاوت ما لا يخفى، وقد ذكرنا نبذًا منه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يس: ٢٨].

المسألة الثانية: ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين؟ نقول: لأن بعض الناس يسمي البَرَد حجارة، فقوله: ﴿مِّن طِينٖ﴾ يدفع ذلك التوهم، واعلم أن بعض من يدعي النظر يقول: لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البَرَد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة. قالوا: وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندي، فيصير طينًا رطبًا، والرطب إذا نزل وتفرق استدار، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلئ الكبار، ثم في النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التي في الجو، جعلته حجارة كالآجُر المطبوخ، فينزل فيصيب مَن قَدَّر الله هلاكه، وقد ينزل كثيرًا في المواضع التي لا عمارة بها فلا يُرى ولا يُدرى به؛ ولهذا قال: ﴿مِّن طِينٖ﴾ لأن ما لا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق

لا يكون كثيرًا بحيث يمطر . وهذا تعسف، ومن يكون كامل العقل يسند الفكر إلى ما قاله ذلك القائل، فيقول: ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل، ولا بد من الانتهاء إلى مُحْدِث ليس بحادث، فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلاً مختارًا، والمختار له أن يفعل ما ذكر وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار، لكن العقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه، وما لا يصل العقل إليه يجب أخذه بالنقل، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية، وإنما المعلوم أن الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها؛ لأنها في العادة لا بد لها من مكث في النار .

قوله تعالى: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه وجوه: أحدها: مكتوب على كل واحد اسم واحد يُقتل به . ثانيها: أنها خُلقت باسمهم ولتعذيبهم، بخلاف سائر الأحجار فإنها مخلوقة للانتفاع في الأبنية وغيرها . ثالثها: مرسلة للمجرمين لأن الإرسال يقال في السوائم يقال: أرسلها لترعى، فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] إشارة إلى الاستغناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى، كما قال: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ إشارة إلى خلاف ما يقول الطبيعيون: إن الحجارة إذا أصابت واحدًا من الناس فذلك نوع من الاتفاق، فإنها تنزل بطبعها يتفق شخص لها فتصيبه . فقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي في أول ما خلق وأرسل، إذا عُلم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين، فإن قيل: إذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣] مع أن المسرف غير المجرم في اللغة؟ نقول: المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم، ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره، والمسرف هو الآتي بالكبيرة، ومن أسرف ولو في الصغائر يصير مجرمًا لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيرًا، ومن أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم، لكن فيه لطيفة معنوية، وهي أن الله تعالى سومها للمسرف المُصر الذي لا يترك الجرم، والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى، يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم، وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا: إنا أُرسلنا إلى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خُلقت لمن لا يؤمن ويُصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا في الإجرام، فإن قيل: اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد؟ نقول: لتعريف العهد، أي مسومة لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة .

فإن قيل: ما إسرافهم؟ نقول: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٣٥﴾ **فيه فائدتان:**

إحداهما: بيان القدرة والاختيار، فإن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر، فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار.

ثانيها: بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء، فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٣٧﴾

فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، وقيل في مثاله: إن العالَم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة، والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك، وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما، وإن وُجد فيه كلاهما فالحكم للغالب، فكذلك البلاد والعباد، والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة، والحق أن المسلم أعم من المؤمن، وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلمًا لا يدل على اتحاد مفهوميهما، فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتًا من المسلمين. ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين، وهذا كما لو قال قائل لغيره: من في البيت من الناس؟ فيقول له: ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد. فيكون مخبرًا له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٣٧﴾

وفي الآية خلاف: قيل: هو ماء أسود منتن، انشقت أرضهم وخرج منها ذلك. وقيل: حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي المنتفع بها هو الخائف، كما قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] في سورة العنكبوت، وبينهما في اللفظ فرق، قال هاهنا: ﴿ءَايَةً﴾ وقال هناك: ﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ وقال هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال هاهنا: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ فهل في المعنى فرق؟ نقول: هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ حيث وصفها بالظهور، وكذلك منها وفيها فإن (مِن) للتبعيض، فكأنه تعالى قال: من نفسها لكم آية باقية، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن العاقل أعم من الخائف، فكانت الآية هناك أظهر، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم، وهاهنا تسلية القلب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وقال هناك: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] من غير بيان وافٍ بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون معطوفًا على معلوم، ويحتمل أن يكون معطوفًا على مذكور، أما الأول ففيه وجوه: الأول: أن يكون المراد ذلك في إبراهيم وفي موسى؛ لأن مِن ذكر إبراهيم يُعلم ذلك. الثاني: لقومك في لوط وقومه عبرة، وفي موسى وفرعون. الثالث: أن يكون هناك معنى قوله تعالى: تفكروا في إبراهيم ولوط وقومهما، وفي موسى وفرعون، والكل قريب بعضه من بعض، وأما الثاني ففيه أيضًا وجوه: أحدها: أنه عطف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ وهو بعيد لبُعده في الذكر، ولعدم المناسبة بينهما. ثانيها: أنه عطف على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [الذاريات: ٣٧]، ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي وجعلنا في موسى، على طريقة قولهم: علفتها تبنًا وماءً باردًا، وتقلدت سيفًا ورمحًا. وهو أقرب، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ عائد إلى القرية. ثالثها: أن نقول (فيها) راجع إلى الحكاية، فيكون التقدير: وتركنا في حكايتهم آية أو في قصتهم. فيكون: وفي قصة موسى آية. وهو قريب من الاحتمال الأول، وهو العطف على المعلوم. رابعها: أن يكون عطفًا على ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وتقديره: وفي موسى حديث إذ أرسلناه، وهو مناسب إذ جمع الله كثيرًا من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦, ٣٧] وقال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

والسلطان: القوة بالحجة والبرهان، والمبين: الفارق، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فيه وجوه: الأول: الباء للمصاحبة، والركن إشارة إلى القوم، كأنه تعالى يقول: أعرض مع قومه، يقال: نزل فلان بعسكره على كذا، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ - ٢٢] قال: ﴿أَدْبَرَ﴾ وهو بمعنى تولى، وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣] وفي معنى قوله تعالى: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾. الثاني: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي اتخذ وليًا، والباء للتعدية حينئذٍ يعني تقوى بجنده. والثالث: تولى أمر موسى بقوته، كأنه قال: أقتل موسى لئلا يبدل دينكم، ولا يظهر في الأرض الفساد. فتولى أمره بنفسه، وحينئذٍ يكون المفعول غير مذكور، وركنه هو نفسه القوية، ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان، فإنه كان وزيره، وعلى هذا الوجه: الثاني أظهر.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي هذا ساحر أو مجنون، وقوله: ﴿سَٰحِرٌ﴾ أي يأتي الجن بسحره أو

يقرب منهم، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن، غير أن الساحر يأتيهم باختياره، والمجنون يأتونه من غير اختياره، فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال: هو يسحر الجن أو يُسحر، فإن كان ليس عنده منه خبر، ولا يقصد ذلك، فالجن يأتونه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾

وهو إشارة إلى بعض ما أتى به، كأنه يقول: واتخذ الأولياء فلم ينفعوه، وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعًا في اليم وهو البحر، والحكاية مشهورة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نقول: فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين، أما شرفه فلأنه قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله: إني أُريد هلاك أعدائك يا إله العالمين، فلم يكن له سبب إلا هذا، أما فرعون فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فكان سببه تلك، وهذا كما قال القائل: فلان عيبه أنه سارق، أو قاتل، أو يعاشر الناس فيؤذيهم، وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر. فتكون نسبة العيبين بعضهما إلى بعض سببًا لمدح أحدهما وذم الآخر. وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه، ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه إيمانه حين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وفيه ما ذكرنا من الوجوه التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكر أن المقصود ههنا تسلية قلب النبي ﷺ وتذكيره بحال الأنبياء، ولم يذكر في عاد وثمود أنبياءهم، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام، نقول: في ذكر الآيات ست حكايات: حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين، وحكاية موسى عليه السلام، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين؛ لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين، أما في حق إبراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر، وأما في قوم لوط فلأن الناجين وإن كانوا أهل بيت واحد، ولكن المهلكين كانوا أيضًا أهل بقعة واحدة.

وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعاف ما كان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام.

فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بالنجاة، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٥]

وفي هود قال بعد الحكايات: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢] فذكر بعدها ما يؤكد التهديد، وذكر بعد الحكايات ههنا ما يفيد التسلي، وقوله: ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ أي ليست من اللواقح لأنها كانت تكسر وتقلع، فكيف كانت تلقح والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول، وكذلك إذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور؟ وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعًا ولم يتميز المفعول عن الفاعل، فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه؛ لأنه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام محتاج إليه، فأول ما يحصل في الفعل الفاعل، ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول، تقول: فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة، ويدل على ذلك أيضًا أن التمييز بين الفاعل والمفعول جُعل بحرف ممازج للكلمة فقيل (فاعل) بألف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة، وقيل (مفعول) بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما بأحدهما، فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل، والميم والواو يختص بالمفعول، والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير، فإذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل، كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ **وفيه مباحث:**

الأول: في إعرابه، وفيه وجهان: أحدهما: نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم، ذكر الواحدي أنه وصف، فإن قيل: كيف يكون وصفًا والمعرفة لا توصف بالجمل و(ما تذر) جملة ولا يوصف بها إلا النكرات؟ نقول: الجواب فيه من وجهين: أحدهما: أنه يكون بإعادة الريح تقديرًا كأنه يقول: وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحًا ما تذر. ثانيهما: هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة، كأنه يقول: وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة، ولهذا أكثر ما ذكرها في القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] إلى غير ذلك. الوجه الثاني وهو الأصح: أنه نصب على الحال تقول: جاءني ما يفهم شيئًا فعَلّمته وفَهّمته، أي حاله كذا، فإن قيل: لم تكن حال الإرسال ما تذر والحال ينبغي أن يكون موجودًا مع ذي الحال وقت الفعل، فلا يجوز أن يقال: جاءني زيد أمس راكبًا غدًا، والريح بعدما أرسلت بزمان صارت ما تذر شيئًا.

نقول: المراد به البيان بالصلاحية، أي أرسلناها وهي على قوة وصلاحية أن لا تذر، نقول لمن جاء وأقام عندك أيامًا ثم سألك شيئًا: جئتني سائلاً، أي قبل السؤال بالصلاحية والإمكان، هذا إن قلنا: إنه نصب وهو المشهور، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي ما تذر.

البحث الثاني: ﴿مَا تَذَرُ﴾ للنفي حال التكلم، يقال: ما يخرج زيد أي الآن، وإذا أردت المستقبل تقول، لا يخرج أو لن يخرج، وأما الماضي تقول: ما خرج ولم يخرج، والريح حالة الكلام مع النبي ﷺ كانت ما تركت شيئًا إلا جعلته كالرميم، فكيف قال بلفظ الحالة ﴿مَا تَذَرُ﴾؟ نقول: الحكاية مقدرة على أنها محكية حال الوقوع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] مع أن اسم الفاعل الماضي لا يعمل وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال.

البحث الثالث: هل في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مبالغة ودخول تخصيص كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؟ نقول: هو كما وقع لأن قوله: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وصف لقوله: ﴿شَىْءٍ﴾ كأنه قال: كل شيء أتت عليه أو كل شيء تأتي عليه جعلته كالرميم، ولا يدخل فيه السموات لأنها ما أتت عليها، وإنما يدخل فيه الأجسام التي تهب عليها الرياح، فإن قيل: فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصدًا وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم، وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله، فكأنها كانت قاصدة إياهم، فما تركت شيئًا من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم، مع أن الصِّر الريحُ الباردة والمكرر لا ينفك عن المعنى الذي في اللفظ من غير تكرير، تقول حث وحثحث، وفيه ما في حث. نقول: فيه قولان:

أحدهما: أنها كانت باردة فكانت في أيام العجوز، وهي ثمانية أيام من آخر شباط وأول آذار، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرهما وتُسودهما.

والثاني: أنها كانت حارة، والصر هو الشديد لا البارد، وبالشدة فسّر قوله تعالى: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي في شدة من الحر.

البحث الرابع: في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ لأن في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ﴾ نفي الترك مع إثبات الإتيان، فكأنه تعالى قال: تأتي على أشياء وما تتركها غير محرقة. وقول القائل: ما أتى على شيء إلا جعله كذا، يكون نفي الإتيان عما لم يجعله كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ والبحث فيه وفي عاد هو ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ [الذاريات: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال بعض المفسرين: المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة، وكانت في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفرّ وجوههم وتسودّ. وهو ضعيف لأن قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات: ٤٤] بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ فإن الظاهر أن المراد هو ما قدر الله للناس من الآجال، فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل يقول له تمتع إلى آخر أجلك، فإن أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين، وإلا فما لك في الآخرة من نصيب.

قوله تعالى: ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۝ ﴾

وقوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فيه بحث وهو أن (عتا) يستعمل بعلى قال تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩] وهاهنا استعمل معه كلمة (عن) فنقول: فيه معنى الاستعتاء فحيث قال تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ كان كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وحيث قال (على) كان كقول القائل: فلان يتكبر علينا. والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا. أحدها: أنها الواقعة. والثاني: الصوت الشديد. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إشارة إلى أحد معنيين: إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع، كما يقول القائل للمضروب: (يضربك فلان وأنت تنظر؟!) إشارة إلى أنه لا يدفع، وإما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أُنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه، ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أُخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج، كما يقول المبارز الشجاع: أخبرتك بقصدي إياك فانتظرني.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلاً عن أن يهرب؟! وعلى هذا فيه لطائف لفظية: إحداها: قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ فإن الاستطاعة دون القدرة؛ لأن في الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبئ عن عدم القدرة والاستقلال، فمن استطاع شيئًا كان دون من يقدر عليه، ولهذا يقول المتكلمون: (الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل) إشارة إلى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢] على قراءة من قرأ بالتاء وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أبلغ من قول القائل: ما قدروا على قيام. ثانيها: قوله تعالى: ﴿مِنْ قِيَامٍ﴾ بزيادة (مِن)، وقد عرفت ما فيه من التأكيد. ثالثها: قوله: ﴿قِيَامٍ﴾ بدل قوله (هرب) لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب. الوجه الثاني: هو أن المراد من قيام: القيام بالأمر، أي ما استطاعوا من قيام به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي ما استطاعوا الهزيمة والهرب، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنه يدفع عن الروح، وهم مع ذلك ما كانوا منتصرين، وقد عرفت أن قول القائل: (ما هو بمنتصر) أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر. والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله: (ما انتصر) أي لشيء من شأنه ذلك، كما تقول: فلان لا ينصر أو فلان ليس ينصر.

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ ﴾

قرئ: (قَوْمَ) بالجر والنصب فما وجههما؟ نقول: أما الجر فظاهر عطفًا على ما تقدم في قوله

تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [الذاريات: ٣٨]، تقول: لك في فلان عبرة وفي فلان وفلان. وأما النصب فعلى تقدير: وأهلكنا قوم نوح من قبل. لأن ما تقدم دلّ على الهلاك فهو عطف على المحل، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ معناه ظاهر، كأنه يقول: (وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ) وأما على الوجه الأول فتقديره: وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بيانًا للحشر.

وأما قوله هاهنا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ وأنتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ما خلقوا منها شيئًا فلا يصح الإشراك، ويمكن أن يقال: هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع، وإذا كان العطف على جملة فعلية فما تلك الجملة؟ نقول في بعض الوجوه التي ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [الذاريات: ٤٣] تقديره: وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود، عطفًا على قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وعلى هذا يكون ما تقدم جملة فعلية لا خفاء فيه، وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفًا على ما بالنصب أَوْلى، ولأن قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ [الذاريات: ٤٠] وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ [الذاريات: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤] و﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [الذاريات: ٤٥] كلها فعليات فصار النصب مختارًا.

المسألة الثانية: كرر ذكر البناء في السموات، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] وقال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤] فما الحكمة فيه؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أن البناء باقٍ إلى قيام القيامة لم يسقط منه شيء ولم يعدم منه جزء، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يُبسط ويُطوى ويُنقل، والسماء كالبناء المبني الثابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وأما الأراضي فكم منها ما صار بحرًا وعاد أرضًا من وقت حدوثها. ثانيها: أن السماء تُرى كالقبة المبنية فوق الرءوس، والأرض مبسوطة مدحوة، والبناء بالمرفوع أليق، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨]. ثالثها: قال بعض الحكماء: السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال، والمسكن أليق بكونه بناء، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل، فقوله: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ عامل في السماء، فما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل؟ ولو قال: وبنينا السماء بأيد، كان أوجز؟ نقول: الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة، فلما كان المقصود إثبات العلم

بالصانع، قدم الدليل فقال: والسماء المزينة التي لا تشكُّون فيها بنيناها، فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا.

المسألة الرابعة: إذا كان المقصود إثبات التوحيد، فكيف قال: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ ولم يقل بنيتها أو بناها الله؟ نقول: قوله: (بنينا) أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد، وقوله (بنيتها) يمكن أن يكون فيه تشريك، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لا يورث إيهامًا بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها الضمير في ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب جعلوا الأصنام على صورها وطبائعها، فأما الأصنام المنحوتة فلا يشكُّون أنها ما بنت من السماء شيئًا، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها، وإنما يمكن أن يقال: إنما بُنيت لها وجُعلت أماكنها، فلما لم يتوهم ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لأن كل ما هو غير السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها، فإذن عُلم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أدل على نفي الشريك من بنيتها وبناها الله.

فإن قيل: لمَ قلت: إن الجمع يدل على التعظيم؟ قلنا: الجواب من الوجهين: الأول: أن الكلام على قدر فهم السامع، والسامع هو الإنسان، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه، فيقول الملك: (فَعَلنا) أي فَعَله عبادنا بأمرنا، ويكون في ذلك تعظيم، فكذلك في حق الغائب. الوجه الآخر: هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضيًا يقول القائل فعلنا كلنا كذا، وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال: قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمَر بفعل شيء لا يكون لأحد رده وكان كل واحد منقادًا له، يقول بدل فعلت فعلنا، ولهذا الملك العظيم أجمعنا، بحيث لا ينكره أحد ولا يرده نفس.

وقوله تعالى: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي قوة والأيد: القوة، هذا هو المشهور وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] يحتمل أن يقال: إن المراد جمع اليد، ودليله أنه قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١] وهو راجع في الحقيقة إلى المعنى الأول، وعلى هذا فحيث قال: ﴿خَلَقْتُ﴾ قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾ وحيث قال: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ لمقابلة الجمع بالجمع، فإن قيل: فلمَ لم يقل بنيناها بأيدينا وقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؟ نقول: لفائدة جليلة، وهي أن السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله والأنعام ليست كذلك، فقال هناك: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ تصريحًا بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة، وكذلك ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وفي السماء ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ من غير إضافة للاستغناء عنها. وفيه لطيفة أخرى وهي أن هناك لما أثبت الإضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول، فلم يقل خلقته بيدي ولا قال

عملته أيدينا وقال هاهنا: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول، فلم يقل خلقته ولا عملته، وأما السماء فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة فقال: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ بعود الضمير تصريحًا بأنها مخلوقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه من السعة، أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط به من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها - كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء عجيب فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض. ثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي قدرتها، والمناسبة حينئذٍ ظاهرة، ويحتمل أن يقال بأن ذلك حينئذٍ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر، كأنه يقول: بنينا السماء، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. ثالثها: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الرزق على الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ استدلالاً بالأرض، وقد عُلم ما في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش، وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي نحن. أو فنِعم الماهدون ماهدوها.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ استدلالاً بما بينهما، والزوجان إما الضدان فإن الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما كذلك، وإما المتشاكلان فإن كل شيء له شبيه ونظير وضد وند، قال المنطقيون: المراد بالشيء: الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كل جنس خلق نوعين، من الجوهر مثلاً المادي والمجرد، ومن المادي النامي والجامد، ومن النامي المدرك والنبات ومن المدرك الناطق والصامت، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلّكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج، وإلا لكان ممكنًا فيكون مخلوقًا ولا يكون خالقًا. أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن خالق الأزواج لا يعجز عن حشر الأجسام وجمع الأرواح.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمر بالتوحيد، وفيه لطائف: الأولى: قوله

تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ ينبئ عن سرعة الإهلاك، كأنه يقول: الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعًا وفروا. الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بيان المهروب إليه ولم يذكر الذي منه الهرب لأحد وجهين: إما لكونه معلومًا وهو هول العذاب أو الشيطان الذي قال فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وإما ليكون عامًّا، كأنه يقول: كل ما عدا الله عدوكم ففروا إليه من كل ما عداه، وبيانه هو أن كل ما عداه فإنه يتلف عليك رأس مالك الذي هو العمر، ويُفوت عليك ما هو الحق والخير، ومتلف رأس المال مفوت الكمال عدو، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لا فناء معه. والثالثة: الفاء للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد ففروا إليه واتركوا غيره تركًا مؤبدًا. الرابعة: في تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا﴾ [الذاريات: ٤٩] ثم جعل الكلام للنبي عليه السلام وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يقل: ففروا إلينا. وذلك لأن لاختلاف الكلام تأثيرًا، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيرًا؛ ولهذا يُكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذي حاد عن الجادة، ويجعل الكلام مختلفًا، نوعًا ترغيبًا ونوعًا ترهيبًا، وتنبيهًا بالحكاية، ثم يقول لغيره: تكلَّمْ معه لعلّ كلامك ينفع. لما في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر، والله تعالى ذكر أنواعًا من الكلام وكثيرًا من الاستدلالات والآيات، وذكر طرفًا صالحًا من الحكايات، ثم ذكر كلامًا من متكلم آخر هو النبي ﷺ، ومن المفسرين من يقول: تقديره: فقل لهم ففروا، وقوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ إشارة إلى الرسالة.

وفيه أيضًا لطائف: إحداها: أن الله تعالى بيّن عظمته بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ وهيبته بقوله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤٨] وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار، فحكايات لوط تدل على أن التراب الذي منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء، والماء كذلك في قوم فرعون، والهواء في عاد، والنار في ثمود، ولعلّ ترتيب الحكايات الأربع للترتيب الذي في العناصر الأربعة وقد ذكرنا في سورة العنكبوت شيئًا منه، ثم إذا أبان عظمته وهيبته قال لرسوله: عَرِّفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلإردافه بذكر الرسول فائدة.

ثانيها: في الرسالة أمور ثلاثة: المرسِل والرسول والمرسل إليه وههنا ذكر الكل، فقوله: ﴿لَكُم﴾ إشارة إلى المرسل إليهم، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ إشارة إلى المرسِل، وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ بيان للرسول، وقَدَّم المرسل إليه في الذكر؛ لأن المرسل إليه أدخل في أمر الرسالة لأن عنده يتم الأمر، والمَلِك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيرًا أو بشيرًا لا يرسل وإن كان

ملكًا عظيمًا، وإذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وإن كان غير عظيم، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث، وأما الرسول فباختياره، ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة، وأما الرسول فلا يتعين؛ لأن للملك اختيار من يشاء من عباده، فقال: ﴿مِّنْهُ﴾ ثم قال: ﴿نَذِيرٌ﴾ تأخيرًا للرسول عن المرسل.

ثالثها: قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى ما به تُعرف الرسالة؛ لأن كل حادث له سبب وعلامة، فالرسول هو الذي به تتم الرسالة، ولا بد له من علامة يُعرف به، فقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إليها وهي إما البرهان والمعجزة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إتمامًا للتوحيد، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك، وطريقة التوحيد هي الطريقة، فالمعطل يقول: لا إله أصلاً، والمشرك يقول: في الوجود آلهة، والموحد يقول: قول الاثنين باطل، ونفي الواحد باطل. فقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] أثبت وجود الله، ولما قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نفى الأكثر من الواحد، فصح التوحيد بالآيتين، ولهذا قال مرتين: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي في المقامين والموضعين، وقد ذكرنا مرارًا أن المعطل إذا قال لا واجب يجعل الكل ممكنًا، فإن كل موجود ممكن، ولكن الله في الحقيقة موجود، فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك، وجعل الله كغيره، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفي كون الإله إلهًا لما ذكرنا في تقرير دلالة التمانع، مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله للزم عجز كل واحد، فلا يكون في الوجود إله أصلاً، فيكون نافيًا للإلهية، فيكون معطلاً، فالمعطل مشرك، والمشرك معطل، وكل واحد من الفريقين معترف بأن اسمه مبطل، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم، والحمد لله الذي هدانا.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ فيه لطيفة، وهي أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة، لا يقال: فالله متخذ لقوله ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]: قلنا: الجواب عنه ظاهر، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

والتفسير معلوم مما سبق، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية، غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها، وهي أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كُذب، وحينئذٍ يَرد عليه أسئلة: الأول: هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله، وبقي القوم على ما كانوا عليه، كأنبياء بني إسرائيل مدة، وكيف وآدم لما أُرسل لم يُكَذب؟ الثاني: ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل، ولمَ يرسل رسولاً مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه؟ الثالث: قوله ﴿مَآ أَتَى﴾ . . . ﴿إِلَّا قَالُوا۟﴾ دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر، وليس كذلك

لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم، وهم ما قالوا ذلك. والجواب عن الأول هو أن نقول: أما المقرر فلا نسلِّم أنه رسول، بل هو نبي على دين رسول، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضًا ضرورة. وعن الثاني: هو أن الله لا يرسل إلا عند حاجة الخلق، وذلك عند ظهور الكفار في العلم، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولاً مع كون الإيمان به ضروريًا، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يُقبل، والجاهل إذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول: كل ما هو قضاء الله فهو خير، والشر في القدر، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور، ويجعلونها متاعًا في الأسفار وغيرها كما ذكر الله، والماء فيه مصلحة الشرب، لكن النار إنما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوي، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير، ويغرق شاة المسكين، فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر، وهذا الكلام له غور، والسُّنة أن نقول: (يفعل الله ما يشاء، ويُحكم ما يريد) وعن الثالث: أن ذلك ليس بعام، فإنه لم يقل: (إلا قال كلهم)، وإنما قال: ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ ولما كان كثير منهم، بل أكثرهم قائلين به، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ فإن قيل: فلمَ لم يذكر المصدقين، كما ذكر المكذبين، وقال: إلا قال بعضهم: صدقت، وبعضهم: كذبت؟ نقول: لأن المقصود التسلية وهي على التكذيب، فكأنه تعالى قال: لا تأس على تكذيب قومك؛ فإن أقوامًا قبلك كَذبوا، ورسلاً كُذبوا.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. أي بذلك القول، وهو قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ومعناه التعجيب، أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطئوا عليه، وقال بعضهم لبعض: لا تقولوا إلا هذا. ثم قال: لم يكن ذلك على التواطؤ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أُترفوا فاستغنوا فنسُوا الله وطغوا فكذبوا رسله، كما أن المَلِك إذا أمهل أهل بقعة، ولم يكلفهم بشيء، ثم قعد بعد مدة وطلبهم إلى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان، فيحملهم ذلك على العصيان، والقول بطاعة ملك آخر.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ هذه تسلية أخرى، وذلك لأن النبي ﷺ كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير، ويقول: إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ. فيجتهد في الإنذار والتبليغ، فقال تعالى: قد أتيتَ بما عليك، ولا يضرك التولي عنهم، وكفرهم ليس لتقصير منك، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد.

قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾

يعني ليس التولي مطلقًا، بل تولَّ وأقبِل، وأعرِض وادعُ، فلا التولي يضرك إذا كان عنهم، ولا التذكير ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين، وفيه معنى آخر ألطف منه، وهو أن الهادي إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر، فلما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ﴾ كان يقع لمتوهم أن يقول: فحينئذٍ لا يكون للنبي ﷺ ثواب عظيم، فقال بلى، وذلك لأن في المؤمنين كثرة، فإذا ذكرتهم زاد هداهم، وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم، فإن قومًا كثيرًا إذا صلّى كل واحد ركعة أو ركعتين، وقومًا قليلاً إذا صلّى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد، فالهادي له على عبادة كل مهتدٍ أجر، ولا ينقص أجر المهتدي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ [القلم: ٣]أي وإن توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يراد قوة يقينهم، كما قال تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤]وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]وقال تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]ثانيها: تنفع المؤمنين الذين بعدك، فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير نُقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجيء بعدك من المؤمنين. ثالثها: هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمنًا لأنه صار مؤمنًا، وإن لم يفد يوجد حسنة ويزاد في حسنة المؤمنين فينتفعوا، وهذا هو الذي قيل في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢].

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وهذه الآية فيها فوائد كثيرة، ولنذكرها على وجه الاستقصاء، فنقول: أما تعلقها بما قبلها فلوجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذاريات: ٥٥]يعني أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكِّرهم به وأعلِمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان. الثاني: هو أنا ذكرنا مرارًا أن شغل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله وهداية الخلق، فلما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] بيّن أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي، وأما العبادة فهي لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التي هي أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها. الثالث: هو أنه لما بيّن حال من قبله من التكذيب، ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة.

وأما التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الملائكة أيضًا من أصناف المكلفين، ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[الأعراف: ٢٠٦] فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خُلقوا له، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم. الثاني: هو أن النبي ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن، فلما قال: وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر، أي ذكر الجن والإنس. الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن، خلَق الملائكة وجعلهم مقربين، فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته، ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله. فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلَّمًا بين القوم فذكر المتنازع فيه. الرابع: قيل: الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها.
الخامس: قال بعض الناس: كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[الفرقان: ٥٩] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[فصلت: ٩] وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[ص: ٧٥] إلى غير ذلك، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] وقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤] والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان، فقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة. وهو باطل لقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[غافر: ٦٢] فالمَلَك من عالم الخلق.

المسألة الثانية: تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول: فيه وجوه: الأول: بعضها مر في المسألة الأولى. الثاني: هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم، ولا كذلك الجن.

المسألة الثالثة: فِعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملاً وهو في نفسه كامل، فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة؟ نقول: المعتزلة تمسكوا به، وقالوا: أفعال الله تعالى لأغراض. وبالغوا في الإنكار على منكري ذلك، ونحن نقول: فيه وجوه: الأول: أن التعليل لفظي ومعنوي، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة، مثاله: إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير، ففي المعنى المقصود ذلك، وفي اللفظ لا يصح، ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لأستفيد حسنة. يقال: هذا ليس بشيء ولا يصح عليه، ولو قال قائل في مثل هذه الصورة (خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه) لصَدَق، فالتعليل اللفظي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة، يقال اتجر للربح، وإن لم يكن في الحقيقة له، إذا عرفت هذا فنقول: الحقائق غير

معلومة عند الناس، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظًا والنزاع في الحقيقة في اللفظ. الثاني: هو أن ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى، وكأنه يقول: العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] أي بحيث يصير تذكرة عندكم مرجوًا، وقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أي يصير إهلاكه عندكم مرجوًّا تقولون إنه قرب. الثالث: هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضًا كما في الوقت، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] والمراد المقارنة، وكذلك في جميع الصور، وحينئذٍ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة، أي بفرض العبادة، أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة.

والذي يدل على عدم جواز التعليل الحقيقي هو أن الله تعالى مستغنٍ عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره؛ لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلاً هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة، وأما النصوص فأكثر من أن تُعد، وهي على أنواع، منها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وأمثاله، ومنها ما يدل على أن الأشياء كلها بخلق الله، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ومنها الصرايح التي تدل على عدم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولي لا إلى المفسر.

المسألة الرابعة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣] وقال: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ فهل بينها اختلاف؟ نقول: ليس كذلك فإن الله تعالى علَّل جعلهم شعوبًا بالتعارف، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك: ﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] دليل على ما ذكره ههنا وموافق له؛ لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملاً، فيكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أكرم وأعز، كالشيء الذي منفعته فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع في تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقًا للتطهير والشرب، فالصافي منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذي وُجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ.

المسألة الخامسة: ما العبادة التي خُلق الجن والإنس لها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخلُ شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يُعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل

عليهم السلام، فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل في نوعي العبادة، وقيل: إن معناه: ليعرفوني. روي عن النبي ﷺ أنه قال عن ربه «كُنْتُ كَنزًا مَخفِيًا فَأَرَدْتُ أن أعرف»[١].

قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾

فيه جواب سؤال، وهو أن الخلق للغرض ينبئ عن الحاجة، فقال: ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لي. وذلك لأن منفعة العبد في حق السيد أن يكتسب له، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له، فيحتاج إلى إخراج مال، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب، فقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي لست كالسادة في طلب العبادة بل هم الرابحون في عبادتهم. وفيه وجه آخر وهو أن يقال: هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة، وذلك لأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة، لكن العبيد على قسمين: قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد، والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه، ووضع اليمين على الشمال لديه، وقسم منهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فقال تعالى: إني خلقتهم فلا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك، فما أُريد منهم من رزق، أو هل هم ممن يُطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون، فإذن هم عبيد من القسم الأول فينبغي أن لا يتركوا التعظيم.

وفيه لطائف نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في تكرار الإرادتين، ومن لا يريد من أحد رزقًا لا يريد أن يطعمه؟ نقول: هو لما ذكرناه من قبل، وهو أن السيد قد يطلب من العبد الكسب له، وهو طلب الرزق منه، وقد يكون للسيد مال وافر يستغني عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله، فالسيد قال: لا أريد ذلك ولا هذا.

المسألة الثانية: لمَ قدم طلب الرزق على طلب الإطعام؟ نقول: ذلك من باب الارتقاء، كقول القائل: لا أطلب منك الإعانة ولا ممن هو أقوى. ولا يعكس، ويقال: فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين. ولا يعكس، فقال هاهنا: لا أطلب منكم رزقًا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد، فإن ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان الكسب لا يُطلب منهم.

---

(١) لا أصل له: أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ١٧٣)، حديث رقم (٢٠١٦)، وقال: قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ ولا يُعرف له سند صحيح.

المسألة الثالثة: لو قال: ما أريد منهم أن يرزقون، وما أريد منهم من الطعام، هل تحصل هذه الفائدة؟ نقول: على ما فُصل لا وذلك لأن بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل، فإن اشتغل بشيء ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى، وإن لم يشتغل، كالعبد المتكسب إذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلبًا يرضى منه السيد إذا كان شغله التكسب، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب، فربما لا يرضى به السيد، فالمقصود من الرزق الغنى، فلم يقل بلفظ الفعل، والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل، ولم يقل: (وما أريد منهم من طعام) هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع.

المسألة الرابعة: إذا كان المعنيّ به ما ذكرت، فما فائدة الإطعام وتخصيصه بالذكر مع أن المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم؟ نقول: لما عمم في المطلب الأول اكتفى بقوله: ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ فإنه يفيد العموم، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن يستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام، ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأَوْلى فصار كأنه تعالى قال: ما أريد منهم من عين ولا عمل.

المسألة الخامسة: على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره؛ لأن السيد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم، بل يشتريه للتجارة والربح فيه، نقول: عموم قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يتناول ذلك فإن من اشترى عبدًا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقًا.

المسألة السادسة: ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال، والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقًا لا في الحال ولا في الاستقبال، فلمَ لم يقل: لا أريد منهم من رزق ولا أريد؟ نقول: (ما) للنفي في الحال، و(لا) للنفي في الاستقبال، فالقائل إذا قال: فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل، ولو قال: (ما يفعل) لما صدق فيما ذكرنا من الصورة، مثاله: إذا كان الإنسان في الصلاة وقال قائل: إنه ما يصلي فانظر إليه. فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول: إنك لا تصلي، ولو قال القائل: (إنه ما يصلي في تلك الحالة) لما صدق، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أَوْلى لأن المراد من الحال الدنيا، والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يُطلب منه رزق أو عمل، فكان قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ مفيدًا للنفي العام، ولو قال: (لا أريد) لما أفاد ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

تعليلاً لما تقدم من الأمرين، فقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ تعليل لعدم طلب الرزق، وقوله تعالى:

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ تعليل لعدم طلب العمل؛ لأن من يطلب رزقًا يكون فقيرًا محتاجًا، ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزًا لا قوة له، فصار كأنه يقول: ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق، ولا عمل فإني قوي.

وفيه مباحث: الأول: قال: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ ولم يقل: (إني رزاق) بل قال على الحكاية عن الغائب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: قد روي أن النبي ﷺ قرأ: (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ)[1] على ما ذكرت، وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه: الأول: أن يكون المعنى قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الثاني: أن يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب، وفيه هاهنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزاقًا، وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مرارًا وتمسكنا بقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي معبوديك، وإذا كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله من غير الكسب إذ رزقه على السيد، وهاهنا لما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فقد بيّن أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ بلفظ (الله) الدال على كونه رزاقًا، ولو قال: (إني أنا الرزاق) لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا. الثالث: أن يكون (قل) مضمرًا عند قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم﴾ تقديره: قل يا محمد: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ فيكون بمعنى قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] ويكون على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ من قول النبي ﷺ ولم يقل (القوي)، بل قال: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ وذلك لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير، ولكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدًا، فإن كثيرًا من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق، فإذا كثر منه الرزق قلَّ منه الطلب؛ لأن المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلا بالمبالغة في وصف الرزق، فقال: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ وأما ما يغني عن الاستعانة بالغير فدون ذلك: وذلك لأن القوي إذا كان في غاية القوة يعين الغير، فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به، وإذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك، ولما قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ كفاه بيان نفس القوة فقال: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ إفادة معنى القوة دون القوي لأن (ذا) لا يقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمي ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق... إلى غير ذلك مما لا يلزمه لزومًا بينًا، ولا يقال في الثلاثة:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف والقراءات) (٤/ ١٧١٥)، حديث رقم (٣٩٩٣)، والترمذي في كتاب (القراءات)، باب: (سورة الذاريات) (٥/ ١٧٦)، حديث رقم (٢٩٤٠)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، كلاهما من طريق أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: أقرأني رسول الله ﷺ: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين).

ذات فردية ولا في الأربعة ذات زوجية، ولهذا لم يَرد في الأوصاف الحقيقية التي ليست مأخوذة من الأفعال ولذا لم يُسمع ذو الوجود وذو الحياة ولا ذو العلم ويقال في الإنسان: ذو علم وذو حياة لأنها عَرَض فيه عارض لا لازم بين، وفي صفات الفعل يقال: الله تعالى ذو الفضل كثيرًا وذو الخلق قليلاً لأن (ذا كذا) بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلاً عن اللزوم البين، والذي يؤيد هذا هو أنه تعالى قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقوي، ويؤيده أيضًا أنه تعالى قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] وقال تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] لأن في هذه الصور كان المراد بيان القيام بالأفعال العظيمة والمراد هاهنا عدم الاحتياج، ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر ما، ومن يقوم مستبدًا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة؛ لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه، ولو بُين هذا البحث في معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ هاهنا وبين قوله: (قوى) في تلك المواضع لكان أحسن، فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله: (قوى) لبيان أنه غير محتاج إلى النصرة، وإنما يريد أن يعلم ليثيب الناصر، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفي فيه قوة ما، فلم لم يقل: إن الله ذو القوة؟ نقول فيه: إنه تعالى قال: من ينصره ورسله، ومعناه أنه يغني رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين، وإلا فالله تعالى وعدهم بالنصر حيث قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] ولما ذكر الرسل قال: (قوي) يكون ذلك تقوية تقارب رسله المؤمنين، وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين.

البحث الثاني: قال: ﴿الْمَتِينُ﴾ وذلك لأن ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما، فزاد في الوصف بيانًا وهو الذي له ثبات لا يتزلزل، وهو مع المتين من باب واحد لفظًا ومعنى، فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته، والمتن هو الظهر الذي عليه أساس البدن، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى في مواضع ذكر القوة والعزة فقال: ﴿قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال: ﴿الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث في القوي وذي القوة، وذلك لأن المتين هو الثابت الذي لا يتزلزل والعزيز هو الغالب، ففي المتين أنه لا يُغلب ولا يُقهر ولا يُهزم، وفي العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام، والعزة أكمل من المتانة، كما أن القوي أكمل من ذي القوة، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت في كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وهو مناسب لما قبله، وذلك لأنه تعالى بيّن أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالمًا، فقال: إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير - لهم هلاك مثل هلاك من تقدم، وذلك لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه، لا يُحفظ، وإن كان في موضع يخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعًا بها بالموت أو بمرض يخلى عنها الإصطبل، والطعام الذي يتعفن يبدد ويُفرغ منه الإناء، فكذلك الكافر إذا ظلم، ووضع نفسه في غير موضعه، خرج عن الانتفاع فحسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: فيما يتعلق به الفاء، وقد ذكرنا لك في وجه التعلق.

المسألة الثانية: ما مناسبة الذَّنوب؟ نقول: العذاب مصبوب عليهم، كأنه قال تعالى: نَصبُّ من فوق رءوسهم ذَنوبًا كذَنوب صُب فوق رءوس أولئك. ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوبًا فذنوبًا، وذلك وقت عيشهم الطيب، فكأنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الدنيا وطيباتها ﴿ذَنُوبًا﴾ أي ملاء، ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب، كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذبوبًا وتركوها، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فإن الرزق ما لم يفرغ لا يأتي الأجل.

ثم أعاد ما ذكر في أول السورة فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الذاريات

مكّيةٌ في قول الجميع[1]، وهي سِتُّون آية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا عبد الله بن ناجية، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا مكّيّ بن إبراهيم، حدَّثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خُصَيفة، عن السائب بن يزيد: أنَّ رجلاً قال لعمر ﷺ: إني مررت برجل يسأل عن تفسير مُشْكِلِ القرآن، فقال عمر: اللهم أمكِنِّي منه. فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابسٌ ثياباً وعِمامة، وعمرُ يقرأ القرآن، فلما فرغ، قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقام عمر، فحسر عن ذراعيه وجعل يَجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحمِلوه على قَتَب، وابلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً طَلَبَ العلم فأخطأه. فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم[3].

وعن عامر بن واثلة: أنَّ ابن الكوَّاءِ سأل علياً ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقال له: ويلَكَ! سَلْ تَفقُّهاً، ولا تسأل تَعنُّتاً؛ «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً»: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً»: السَّحاب، «فَالْجَارِيَات يُسْراً»: السُّفُن، «فَالْمُقَسِّمَاتِ أمراً»: الملائكة[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٢٧ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨ ، والكشاف ٤/ ١٣ .

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩ . وقد سلف من وجه آخر ٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٤) سلف ١/ ٦١ بنحوه.

وروى الحارث عن عليٍّ ﷺ: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» قال: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً» قال: السحاب تَحمِل الماء كما تحمل ذواتُ الأربع الوِقْر، «فَالْجارِيَاتِ يُسْراً» قال: السفن، وقوله[(١)]: «فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً» قال: الملائكة تأتي بأمرٍ مختلف؛ جبريلُ بالغلظة، وميكائيلُ صاحب الرحمة، ومَلَكُ الموت يأتي بالموت. وقاله[(٢)] الفراء.

وقيل: تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث.

ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذْرِيه ذَرْياً[(٣)].

ثم قيل: «وَالذَّارِيَاتِ» وما بعده أقسام، وإذا أقسمَ الربُّ بشيءٍ أثبتَ له شرفاً. وقيل: المعنى: وربِّ الذارياتِ[(٤)]، والجواب: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشرِّ والثوابِ والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾: لا كَذِبَ فيه؛ ومعنى «لَصَادِقٌ»: لَصِدْق، وقع الاسمُ موقعَ المصدر. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني: الجزاءُ نازلٌ بكم. ثم ابتدأ قَسَماً آخَرَ فقال: «وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ».

وقيل: إنّ الذارياتِ النساءُ الوَلودات؛ لأن في ترائبهنَّ[(٥)] ذَرْوَ الخَلْق؛ لأنهنَّ يَذرين الأولاد، فصِرنَ ذاريات، وأقسمَ بهنَّ لِمَا في ترائبهنَّ مِن خِيرَةِ عبادِه الصالحين. وخصَّ النساءَ بذلك دون الرجال وإنْ كان كلٌّ واحدٍ منهما ذارياً؛ لأمرين: أحدهما: لأنهن أوعيةٌ دون الرجال، فلاجتماع الذَّرْوَيْن فيهنَّ خُصِّصنَ بالذِّكر. الثاني: أنَّ الذَّرْوَ فيهنَّ أطولُ زماناً[(٦)]، وهنَّ بالمباشرة أقربُ عهداً.

---

(١) في (ز): وقراءة، بدل: وقوله، وفي (م): موقرة. والمثبت من باقي النسخ.

(٢) في (ز) و(م): وقال. وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في (ف) و(ق): وأذرته تذريه ذرياً، وفي (ظ): وأذرته تذريه وذرياً، وفي (ز): وأذرته ذرياً، والمثبت من (م). وقد قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥١ : ذرت الريح وأذرت، بمعنى واحد وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨ ، وزاد المسير ٨/ ٢٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥١ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٥ .

(٥) في (ظ) و(م): ذرايتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠ ، والكلام منه.

(٦) في (ز) و(ف): لطول زمان، وفي (ظ) و(ق): أطول زمان. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾: السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثَقُلْنَ بالحَمل. والوِقْر، بكسر الواو: ثقل الحِمل على ظهر أو في بطن[1]، يقال: جاء يحمل وِقْرَه، وقد أَوْقَرَ بعيرَه. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْل البغلِ والحمار، والوَسْقُ في حِمْل البعير. وهذه امرأةٌ مُوقَرة ـ بفتح القاف ـ إذا حملت حَمْلاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة: كَثُرَ حَمْلُها؛ يقال: نخلةٌ موقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحُكي: مُوقَر، وهو على غير القياس، لأن الفعل [ليس] للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر ـ بكسر القاف ـ على [قياس] قولِك: امرأةٌ حامل، لأن حمل الشجر مشبَّهٌ بحمل النساء؛ فأما مُوقَر ـ بالفتح ـ فشاذّ، وقد روي في قول لبيدٍ يصف نخيلاً:

عُصُبٌ كَوارِعُ في خليجٍ مُحَلِّمٍ ... حَمَلتْ فمنها مُوقَرٌ مَكْمُومُ

والجمع: مَوَاقِر. فأما الوَقْر ـ بالفتح ـ فهو ثقل الأذن، وقد وَقِرَت أُذُنُه تَوْقَر وَقْراً، أي: صَمَّت، وقياسُ مصدرِه التحريك، إلَّا أنه جاء بالتسكين[2]. وقد تقدَّم في «الأنعام» القولُ فيه[3].

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: السفن تجري بالرياح يُسراً إلى حيث سُيِّرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يُسْراً على هذا القول وجهان: أحدهما: إلى حيث يسيِّرها اللهُ تعالى من البلاد والبقاع. الثاني: هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروفٌ عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها ... مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[4]

(١) المصدر السابق.

(٢) الصحاح (وقر) وما بين حاصرتين منه، والبيت في شرح ديوان لبيد ص١٢٠ ، والرواية فيه: نخل كوارع... قال شارحه: شبه الظعائن بالنخل. كوارع: أراد اللواتي في الماء. محلِّم: نهر بالبحرين، وخليجه ما اختلج منه. مكموم: مغطى بالكمامة من برد أو داء..

(٣) ٨/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦١ . وسلف البيت ١٦/١٦ .

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب[١] التي تُظِلُّ الأرض. وقيل: السماء المرفوعة[٢]. ابنُ عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ والماورديُّ وغيرهم[٣].

وفي «الْحُبُكِ» أقوالٌ سبعة:

الأول: قال ابن عباس وقتادة ومجاهدٌ والربيع: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوي. وقاله عكرمة[٤]؛ قال: ألم ترَ إلى النَّسَّاج إذا نسج الثوب فأجاد نَسْجَه؛ يقال منه: حَبَك الثوبَ يَحبِكُه ـ بالكسر ـ حَبْكاً، أي: أجاد نَسْجَه. قال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمتَه وأحسنتَ عملَه فقد احتبكتَه[٥].

الثاني: ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بنُ جبير.

وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم. وهو الثالث.

الرابع: قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لِمَا تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح: حُبُك[٦]. ونحوُه قول الفراء[٧]؛ قال: الحُبُك: تَكَسُّر كلِّ شيءٍ، كالرمل إذا مرَّت به الريحُ الساكنة، والماءُ القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك،

---

(١) في النسخ الخطية: السحاب، والمثبت من (م)، والقول في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ . والسحاب والسحب والسحائب: جمع سحابة. الصحاح (سحب).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون: وهو المشهور.

(٣) قول ابن عمر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ - ١٩٠ .

(٤) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الربيع ـ الطبري ٢١/ ٤٨٦ - ٤٨٩ .

(٥) الصحاح (حبك).

(٦) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الحسن الأول ـ الطبري ٢١/ ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٢ .

والشعرة الجَعْدة تكسُّرها حُبُك. وفي حديث الدجَّال: «إنَّ شعره حُبُك حُبُك»[(١)]. قال زهير:

مُكـلَّلٌ بـأصـول الـنَّـجـمِ تَـنـسِـجُـهُ   ريحٌ خَريقٌ لضاحي مائه حُبُكُ[(٢)]

ولكنها تَبْعُد من العباد فلا يرونها.

الخامس: ذات الشِّدَّة، قاله ابن زيد، وقرأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢][(٣)]. والمحبوك: الشديد الخَلْق من الفرس وغيره[(٤)]، قال امرؤ القيس:

قـد غـدا يَـحْـمِـلُـنـي فـي أنْـفـهِ   لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحبُوكٌ مُمَرْ[(٥)]

وقال آخر[(٦)]:

مَـرِجَ الـدِّيـنُ فـأعـددتُ لـهُ   مُشْرِفَ الحارِك مَحبُوكَ الكَتَدْ

وفي الحديث: أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي: تَشُدُّ الإزار وتُحْكمه[(٧)].

السادس: ذات الصَّفَاقة؛ قاله خُصَيف[(٨)]، ومنه: ثوبٌ صَفِيق ووجه صَفِيق: بَيِّنُ الصَّفاقة[(٩)].

---

(١) الصحاح (حبك). والخبر قطعة من حديث عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٦٢٦٠) عنه بلفظ: «إن راس الدجال من ورائه حُبُك حُبُك...».

(٢) شرح ديوان زهير ص ١٧٦ . قال شارحه: قال الأصمعي: النجم: النبت الذي يقال له: الثِّيل. وقال غيره: الماء مكلّل بالنجم، وهو كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ويقال: نَجَمَ البقل: إذا طلع. ريح خريق، يقال: هبت الشمال خريقاً: إذا هبت هبوباً شديداً. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، ضحي يضحى ضحىً، وضَحَى يضحى: برز للشمس.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ .

(٤) الصحاح (حبك).

(٥) ديوانه ص١٤٦ . وهو في وصف الغيث. قال شارحه: يحملني في أنفه: أي في أول هذه المطرة. لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكشحين. والمحبوك: المدمج الخلق، الشديد. والممر نحوه في المعنى.

(٦) هو أبو دؤاد، وسلف ص٤٣٠ من هذا الجزء.

(٧) الصحاح (حبك). والحديث أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣٥ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ .

(٩) الصحاح (صفق) وقوله: ثوب صَفِيق، أي: كثير الغزل. ووجه صَفيق، أي: وقح. القاموس (صفق).

السابع: أنَّ المراد بالطُّرُق المَجرَّةُ التي في السماء؛ سمِّيت بذلك لأنها كأثر المَجرّ(١).

و«الْحبُكُ» جمع حِبَاك، قال الراجز:

كأنَّما جَلَّلها الحُوَّاكُ طِنْفِسةً في وَشْيها حِبَاكُ(٢)

والحِبَاك والحَبِيكة: الطريقة في الرَّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك: حُبُك، وجمع الحَبِيكة: حَبَائك(٣)، والحَبَكة مثل العَبَكة، وهي الحبَّة من السَّويق، عن الجوهري(٤).

وروي عن الحسن في قوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: «الحُبْك» و«الحِبْك» و«الحِبِك» و«الحِبُك»، و«الحُبُك» كالجماعة(٥). وروي عن عِكرمة وأبي مِجْلَز: «الحُبَك»(٦).

و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة؛ و«الحُبْك» مخفَّفٌ منه. و«الحَبَك» واحدتها حَبَكة(٧). ومن قرأ: «الحُبَك» فالواحدة حُبْكَة، كبُرْقة وبُرَق، أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قرأ: «الحِبِك» فهو كإِبِل وإِطِل. و«الحِبْك» مخفف منه. ومن قرأ: «الحِبُك» فهو شاذّ؛ ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمولٌ على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر

---

(١) ينظر الصحاح واللسان (جرر). والمَجَرّ: هو الخشبة المعترضة بين الحائطين توضع عليه أطراف العوارض.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٤٨٦، والنكت والعيون ٥/٣٦٢، والمحرر الوجيز ٥/١٧٢. والطنفسة: البساط، والنُّمْروقة فوق الرحل. المعجم الوسيط (طنفس).

(٣) وحُبُك أيضاً كما في معاني القرآن للفراء ٣/٨٢، وتفسير الطبري ٢١/٤٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/٥٢. وسيذكره المصنف.

(٤) في الصحاح (حبك).

(٥) ضبطنا بالشكل القراءات الشاذة عن الحسن في هذا الحرف كما ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢، حيث قيَّدها بالحروف، وذكر أن كسر الحاء وضم الباء فيها لغة غير متوجهة، وأنه ليس في كلام العرب هذا البناء.

(٦) المحتسب ٢/٢٨٦ دون ذكر أبي مجلز.

(٧) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢ قراءة «الحَبَك» بفتح الحاء والباء لابن عباس رضي الله عنهما، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٢٨ لابن مسعود وعكرمة.

الباء، ثم تصوَّر «الحُبُك» فضمَّ الباء. قال جميعَه المهدوي[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جوابُ القسم الذي هو «والسَّمَاءِ»، أي: إنكم يا أهل مكة «فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» في محمد والقرآن، فمِن مصدِّق ومكذِّب[(٢)]. وقيل: نزلت في المقتسِمين[(٣)]. وقيل: اختلافهم قولُهم: ساحر، بل شاعر، بل افتراه، بل هو مجنون، بل هو كاهن، بل هو أساطير الأوَّلين[(٤)]. وقيل: اختلافهم أنَّ منهم مَن نَفَى الحشر، ومنهم مَن شكَّ فيه. وقيل: المراد عَبَدة الأوثان والأصنام؛ يُقِرُّون بأن الله خالقُهم ويعبدون غيره[(٥)].

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرف عن الإيمان بمحمد والقرآنِ مَن صُرِف؛ عن الحسن وغيره[(٦)]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن الإيمان مَن أراده بقولهم: هو سحر وكهانة وأساطير الأوَّلين[(٧)]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن ذلك الاختلافِ مَن عصمه الله[(٨)].

أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكاً، أي: قَلَبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[(٩)] [الأحقاف: ٢٢].

وقال مجاهد: معنى «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»: يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْن: فساد العقل[(١٠)].

---

(١) وهو بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢ - ١٧٣ .
(٢) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن قتادة.
(٣) سيرد في تفسير الآية بعدها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر ١٢/ ٢٥٥-٢٥٦ .
(٤) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن ابن زيد.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ .
(٦) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٤٩١ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٦ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٣ بمعناه، وقال: وهذا وجه حسن لا يُخلُّ به، إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين.
(٩) الصحاح (أفك).
(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩١ بنحوه.

الزمخشري[١]: وقرئ: «يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ» أي: يُحْرَمه من حُرم؛ مِن: أَفَنَ الضَّرْعَ، إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع[٢]. والمعنى واحد، وكلُّه راجعٌ إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ في التفسير: لُعِن الكذَّابون[٣]. وقال ابن عباس: أي: قُتِل المرتابون؛ يعني الكهنة[٤]. وقال الحسن: هم الذين يقولون: لسنا نبعث. ومعنى «قُتِلَ» أي: هؤلاء ممن يجب أن يُدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وقال الفرَّاء: معنى «قُتِلَ»: لُعِن؛ قال: و«الخَرَّاصُوانَ»: الكذابون الذين يتخرَّصون بما لا يعلمون[٥]؛ فيقولون: إنَّ محمداً مجنون كذَّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاءٌ عليهم؛ لأن مَن لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال ابن الأنباري: علَّمَنا الدعاءَ عليهم، أي قولوا: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ». وهو جمع خارص، والخَرْص الكذب، والخَرَّاص الكذَّاب، وقد خَرَص يَخْرُص ـ بالضم ـ خَرْصاً، أي: كَذَب؛ يقال: خَرَص واختَرص، وخَلَقَ واختلَق، وبَشَك وابتَشك، وسَرَج واسترَج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحَّاس.

والخَرْص ـ أيضاً ـ حَزْر ما على النخل من الرُّطَب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ، والاسم: الخِرْص، بالكسر؛ يقال: كم خِرْصُ نخلك[٦] والخَرَّاص الذي يخرُصها؛ فهو مشترك.

وأصل الخَرص القطع، على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[٧]. ومنه الخَرِيص

(١) في الكشاف ٤/ ١٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ .

(٣) نسبه في النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ للحسن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٢ بلفظ: لعن المرتابون.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٠ . بنحوه.

(٦) المثبت من (ق) وهو الموافق لما في الصحاح (خرص)، والكلام منه، وفي غيرها: خَرَص.

(٧) ٩/ ٧ .

للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرْصُ: حبَّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخُرصْ: العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخَرِص: الذي به جوع وبَرْد؛ لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو خَرِص أي: جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد: خَرِص، ويقال للبرد بلا جوع: خَصَر[1]. والخُرص ـ بالضمِّ والكسر ـ الحَلْقة من الذهب أو الفضة، والجمع الخُرصان. ويدخل في الخَرْص قولُ المنجِّمين وكلِّ مَن يدَّعي الحَدْس والتخمين.

وقال ابن عباس: هم المقتسمون الذين اقتسموا عِقَابَ[2] مكة، واقتسموا القولَ في نبيِّ اللهِ ﷺ؛ ليصرفوا الناسَ عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما سَتَرَ الشيءَ وغطَّاه. ومنه نهر غَمْر، أي: يَغْمُر مَن دخله، ومنه غَمَرات الموت. «سَاهُونَ» أي: لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يومُ الحساب؛ يقولون ذلك استهزاءً وشَكّاً في القيامة[3]. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ نصب «يَوْمَ» على تقدير الجزاء، أي: هذا الجزاءُ «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أي: يُحرَقون، وهو مِن قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيٌّ؛ بني لإضافته إلى غير متمكِّن، وموضعه نصبٌ على التقدير المتقدِّم، أو رفعٌ على البدل من «يَوْمُ الدِّينِ»[4]. وقال الزجَّاج[5]: تقول: يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت، وهو في موضع رفع، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع.

---

(١) الصحاح (خرص).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): أعقاب، والمثبت من (ف) و(ق)، وهو بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٤) قرأ بالرفع ابن أبي عبلة كما في الكشاف ٤/ ١٥.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٥٢. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.

وقال ابن عباس: «يُفْتَنُونَ»: يُعذَّبون[١]. ومنه قول الشاعر:

كلَّ امرئٍ من عباد الله مُضطَهدٍ ببطن مكةَ مقهورٍ ومفتونِ[٢]

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقَكم. ابن عباس: أي: تكذيبكم[٣]. يعني جزاءكم. الفرَّاء[٤]: أي: عذابكم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: «هَذَا»، ولم يقل: هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لمَّا ذكر مآلَ الكفار؛ ذَكَرَ مآلَ المؤمنين، أي: هم في بساتينَ؛ فيها عيونٌ جارية على نهاية ما يُتنزَّه به. ﴿آخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ما أعطاهم من الثواب وأنواعِ الكرامات؛ قاله الضحَّاك[٥]. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: «آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» أي: عاملين بالفرائض[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل دخولهم الجنةَ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى: كانوا قبل أن تُفْرَضَ[٧] عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم[٨].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤. وهو في قصيدة لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي يذكر مهاجري الحبشة، كما في السيرة النبوية ١/ ٣٣٠ - ٣٣١، وقبله:

يا راكباً بلِّغَنْ عني مغلغلةً مَن كان يرجو بلاغ الله والدينِ

والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. الصحاح (غلل).

(٣) أخرج هذه الآثار الطبري ٢١/ ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٨٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٥ بنحوه.

(٦) قول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

(٧) في (م): يفرض.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى «يَهْجَعُونَ»: ينامون؛ والهُجُوع: النوم ليلاً، والتَّهْجاع: النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ[(١)]

وقال عمرو بنُ مَعْدي كَرِب يتشوّق أختَه وكان أسرها الصِّمَّةُ أبو دُرَيد بنُ الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيحانةَ الدَّاعي السَّميعُ يؤرّقني وأصحابي هُجوعُ[(٢)]

يقال: هَجَعَ يَهْجَع هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغ هُبوغاً، بالغين المعجمة: إذا نام؛ قاله الجوهريّ[(٣)].

واختُلف في «ما»، فقيل: صلة زائدة، قاله إبراهيم النَّخَعيُّ، والتقدير: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، أي: ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثرَه. قال عطاء: وهذا لمَّا أُمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرٍّ يَحتجِز، ثم يأخذ العصا فيعتمد عليها، حتى نزلت الرُّخصة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية[(٤)].

وقيل: ليس «ما» صلة، بل الوقفُ عند قوله: «قَلِيلاً»، ثم تبتدئ «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ». فـ «ما» للنفي، وهو نفيُ النوم عنهم البَتَّة[(٥)]. قال الحسن: كانوا لا ينامون

---

(١) الصحاح (هجع). وسلف البيت ١١/ ٣٧٤ .

(٢) وهناك رواية ثانية تقول: إن ريحانة امرأته المطلقة، كما في الأغاني ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، والخزانة ٨/ ١٨١ - ١٨٢ . والبيت ـ أيضاً ـ في الأصمعيات ص١٧٢ ، والكامل ١/ ٢٦١ .

(٣) في الصحاح (هبغ).

(٤) أخرج الأثرين ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٨ .

(٥) وضعَّف هذا القول الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٨٤ ، ورده ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٩٠ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦ وقال: لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت.

من الليل إلَّا أقلَّه، وربما نَشِطوا فجدُّوا إلى السَّحَر[١].

روي عن يعقوب الحضرميّ أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: «كَانُوا قَلِيلاً» معناه: كان عددهم يسيراً، ثم ابتدأ فقال: «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ»[٢]. قال ابن الأنباري[٣]: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدلُّ على قلَّة نومهم لا على قلَّة عددهم، وبعدُ فلو ابتدأنا «مِن اللَّيل ما يهجعون» على معنى: من الليل يهجعون، لم يكن في هذا مدحٌ لهم؛ لأن الناس كلَّهم يهجعون من الليل، إلَّا أن تكون «ما» جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوَّله بعضُ الناس ـ وهو قول الضحَّاك[٤] ـ من أنَّ عددهم كان يسيراً، يكون الكلام متصلاً بما قبلُ مِن قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: كان المحسنون قليلاً، ثم استأنف فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[٥]. وعلى التأويل الأوَّلِ والثاني يكون «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ» خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدَّمه، ويكون الوقف على «مَا يَهْجَعُونَ»، وكذلك إن جعلتَ «قَلِيلاً» خبرَ كان، وترفع «ما» بمعنى قليل[٦]؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعُهم. فـ«ما» يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان، التقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل[٧]. وانتصابُ قوله: «قَلِيلاً» ـ إن قدَّرت «ما» زائدةً مؤكِّدة ـ بـ«يَهْجَعُونَ»، على تقدير: كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدِّر «ما» زائدة، كان قولُه: «قَلِيلاً» خبرَ كان، ولم يجز نصبُه بـ«يَهْجَعُونَ»؛ لأنه إذا قدِّر نصبه

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٢) بعدها في(م): على معنى من الليل يهجعون.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٠٦، وما قبله منه.

(٤) أخرج قوله الطبري ٢١/٥٠٧.

(٥) بعدها في النسخ الخطية: وهو قول الضحاك.

(٦) في (م): بقليل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الإيضاح لابن الأنباري ٢/٩٠٥.

(٧) وهو بدل اشتمال كما في الدر المصون ١٠/٤٥.

بـ«يَهْجَعُونَ» مع تقدير «ما» مصدراً، قدّمتَ الصِّلَةَ على الموصول[١].

وقال أنسٌ وقتادة في تأويل الآية: أي: كانوا يصلُّون بين العشاءين: المغرب والعشاء[٢]. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين[٣]. وقاله ابن وَهْب. وقال مجاهد[٤]: نزلت في الأنصار؛ كانوا يصلُّون العشاءين في مسجد النبيِّ ﷺ، ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن عليّ بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلُّوا العَتَمة[٥]. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعَهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومُطرِّف: قَلَّ ليلةٌ لا تأتي عليهم إلَّا يصلُّون لله فيها، إمَّا مِن أوَّلها، وإما من وسطها[٦].

الثانية: رُويَ عن بعض المتهجِّدين أنه أتاه آتٍ في منامه، فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ولم تَدرِ في أيِّ المجالِس تنزِلُ

ورويَ عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل، فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابَّين أحسن ما رأيت، ومعهما حُلَل، فوقفا على كلِّ مصلٍّ، وكسواه حُلَّة، ثم انتهيا إلى النِّيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذه، فقالا لي: إنها ليست حُلَّةَ لباس، إنما هي رضوانُ الله يَحُلُّ على كل مصلٍّ.

ويُروى عن أبي خَلَّادٍ أنه قال: حدَّثني صاحبٌ لي قال: بينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ مُثِّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوهُهم، وأشرقت

---

(١) الكلام بنحوه في البيان ٢/ ٣٨٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٦ - ٦٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢) من طريق قتادة عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٣.

(٤) كلمة: مجاهد، ليست في النسخ الخطية.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٢.

(٦) ذكر قولهما الواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٠. وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠٢ قول مطرف.

ألوانهم، وعليهم الحُلَلُ من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناسُ عُراة، ووجوهُهم مشرِقةٌ ووجوه الناس مغبرَّة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون(١) فهم المصلُّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوهُهم مشرقة فأصحابُ السهر والتهجُّد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب، فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناسُ مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرُّباً إلى الله تعالى، فأعطاهم الله بذلك خيرَ الثواب؛ قال: فصحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرفَ مقامَهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: مدحٌ ثان؛ أي: يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن(٢). والسَّحَر وقتٌ يُرجى فيه إجابةُ الدعاء. وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه(٣).

وقال ابن عمر ومجاهد: أي: يصلُّون وقت السَّحَر؛ فسمَّوا الصلاةَ استغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ مَدُّوا الصلاةَ من أوَّل الليلِ إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السحر(٤).

ابن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء، فيصلُّون في مسجد النبيِّ ﷺ. ابن وَهْب، عن ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: كانوا يَنْضَحون لناسٍ من الأنصار بالدِّلاء على الثمار، ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلُّون آخرَ الليل.

الضحَّاك: صلاة الفجر.

وقال الأحنف بن قيس: عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجنة؛ فإذا قومٌ قد

---

(١) كذا في النسخ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ بنحوه.

(٣) ٥/ ٥٩ .

(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٥٠٥ ، ٥١٠ .

باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم؛ «كانوا قليلاً من اللَّيل ما يهجعون». وعرضتُ عملي على أعمال أهل النار، فإذا قومٌ لا خير فيهم، يكذِّبون بكتاب الله، وبرسوله، وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرَنا منزلةً قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ مدحٌ ثالث. قال محمد بن سِيرين وقتادة: الحقُّ هنا الزكاةُ المفروضة. وقيل: إنه حقٌّ سوى الزكاة؛ يَصِل به رَحِماً، أو يَقري به ضيفاً، أو يَحْمل به كَلّاً، أو يُغني به محروماً. وقاله ابن عباس[١]؛ لأن السورة مكِّية، وفُرضت الزكاة بالمدينة[٢].

ابن العربي[٣]: والأقوى في هذه الآيةِ أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة «سأل سائل»: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٥] والحقُّ المعلوم هو الزكاة التي بيَّن الشرعُ قَدْرَها وجنسها ووقتها، فأمَّا غيرُها لمن يقول به، فليس بمعلوم؛ لأنه غيرُ مقدَّرٍ ولا مجنَّس ولا موقَّت.

الخامسة: قوله تعالى: «لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ»؛ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما. والمَحرُومِ الذي حُرم المال. واختُلف في تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسَّر له مكسبُه[٥]؛ يقال: رجل مُحارَف ـ بفتح الراء ـ أي: محدود محروم، وهو خلافُ قولك: مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان: إذا شُدِّد عليه في معاشه؛ كأنه مِيلَ برزقه عنه[٦]. وقال قتادة والزُّهري: المحروم المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئاً،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٨ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٥١١ - ٥١٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .

(٦) الصحاح (حرف).

ولا يُعلم بحاجته. وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم(١).

روي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث سَرِيَّة، فأصابوا وغَنِموا، فجاء قومٌ بعد ما فرغوا، فنزلت هذه الآية: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ»(٢).

وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال(٣). وقال زيد بن أسلم: هو الذي أُصيب ثمرُه أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾(٤) [الواقعة:٦٧] نظيرُه في قصة أصحاب الجنةِ حيث قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» [القلم:٢٧].

وقال أبو قِلابة: كان رجلٌ من أهل اليمامة له مال، فجاء سيلٌ فذهب بماله، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم، فاقسموا له(٥).

وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يُروَى عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حُمَيد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أنَّ عمر بنَ عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب، فانتزع عمر رحمه الله كَتِفَ شاةٍ، فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسبَ نفسه حتى وجبت نفقتُه في مال غيره(٦).

وروى ابن وَهْب عن مالك: أنه الذي يُحرَم الرزق(٧)، وهذا قولٌ حسن؛ لأنه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ دون ذكر الزهري. وأخرج قوله وقول قتادة الطبريُّ ٢١/ ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٦)، والطبري ٢١/ ٥١٥ - ٥١٦ عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، وهو مرسل.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ بنحوه. وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٣ بنحوه.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٨ .

يَعمُّ جميع الأقوال.

وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنةً منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليومَ بأعلمَ مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي(١).

وأصله في اللغة: الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة(٢):

ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ أَنَّى توجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة؛ يقولون: ربَّنا ظلمونا حقوقَنا التي فرضتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي لأُقرِّبنَّكم ولأُبْعِدنَّهم». ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ذكره الثعلبي(٣).

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ لمَّا ذَكَر أمر الفريقين، بيَّن أنَّ في الأرض علاماتٍ تدلُّ على قدرته على البعث والنشور، فمنها: عَوْدُ النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها: أنه قدَّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها: سيرُهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثارَ الهلاك النازلِ بالأمم المكذِّبة. والموقنون: هم العارفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّةِ نبيِّهم؛ خصَّهم بالذِّكْر لأنهم المنتفعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها.

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل: التقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آياتٌ للموقنين. وقال قتادة: المعنى: مَن سار في الأرض رأى آياتٍ وعِبَراً، ومَن

---

(١) بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣٣، وأخرج الطبري ٢١/ ٥١٨ من طريق ابن علية، عن ابن عون، عن الشعبي قال: أعياني أن أعلم ما المحروم.

(٢) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٦٦، وسلف ١٠/ ٥.

(٣) وأخرجه الطبراني في الصغير (٦٩٣)، والأوسط (٤٨١٠). قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٢: فيه الحارث بن النعمان، وهو ضعيف.

تفكَّر في نفسه علم أنه خُلق ليعبُدَ الله. ابنُ الزبير ومجاهد: المراد سبيلُ الخلاء والبول[١]. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً مَحْضاً لخرج منه الماءُ ومنه الغائط؛ فتلك الآيةُ في النفس. وقال ابن زيد: المعنى: أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. السدي: «وفي أَنْفُسِكُم» أي: في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: في الكِبَر بعد الشباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشيبِ بعد السواد[٢]. وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسِكم من نطفة، وعلقة، ومضغة، ولحم، وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة[٣]. وحسبُك بالقلوب وما رُكز[٤] فيها من العقول، وخُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتِّيها لما خُلِقت له، وما سُوِّيَ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنِّي، فإنه إذا جَسَا[٥] شيءٌ منها جاء العَجز، وإذا استرخى أناخ الذُّل، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: بصرَ القلب ليَعرفوا كمالَ قدرته.

وقيل: إنه نُجْحُ العاجز، وحرمان الحازم[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧ ، وقول ابن الزبير أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩ .

(٢) ذكر هذه الأقوال ـ عدا قول السائب ـ الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧ . وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩ - ٥٢٠ .

(٣) ذكره بنحوه مختصراً البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٦ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في النسخ الخطية: ذكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦ - ١٧ ، والكلام منه.

(٥) أي: صَلُبَ. القاموس (جسو).

(٦) هذا أحد الأقوال في تفسير قوله: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧ .

قلت: كلُّ ما ذُكر مرادٌ في الاعتبار. وقد قدَّمنا في آية التوحيد من سورة البقرة أنَّ ما في بدن الإنسان ـ الذي هو العالَم الصغير ـ شيءٌ إلَّا وله نظيرٌ في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويُغني لمن تدبَّر[١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحَّاك: الرِّزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج يَنْبت به الزرعُ ويحيا به الخلق[٢]. قال سعيد بن جبير: كلُّ عين قائمةٍ فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللهِ رزقُكم، ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم[٣].

وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ معناه: وفي المطر رزقكم؛ سُمِّي المطرُ سماءً؛ لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر[٤]:

إذا سقطَ السماءُ بأرض قومٍ ... رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

وقال ابن كَيْسان: يعني: وعلى ربِّ السماءِ رزقُكم؛ نظيرُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]. وقال سفيان الثوريّ: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى: وفي السماء تقديرُ رزقكم، وما فيه لكم مكتوبٌ في أُمِّ الكتاب[٥].

وعن سفيان ـ أيضاً ـ قال: قرأ واصل الأحدب[٦]: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ فقال: ألَا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة، فمكث ثلاثاً لا يصيب

---

(١) ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١ مختصراً.

(٣) الكشاف ٤/ ١٧. وأخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١.

(٤) هو معاوية بن مالك (معوِّد الحكماء)، وسلف البيت ١/ ٣٢٧.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.

(٦) هو واصل بن حَيَّان الأحدب الأسدي الكوفي. مات سنة ١٢٠ أو ١٢٩. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٠١.

شيئاً، فإذا هو في الثالثة بدَوْخَلةِ رُطَب[١]، وكان له أخٌ أحسنُ نيَّةً منه، فدخل معه، فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبَهما حتى فرَّق اللهُ بالموت بينهما[٢].

وقرأ ابن محيصن ومجاهد: «وفي السَّماءِ رازِقُكُمْ» بالألف[٣]، وكذلك في آخرها: «إنَّ اللهَ هو الرَّازِقُ».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة[٤]. الضحَّاك: «وَمَا تُوعَدُونَ» من الجنة والنار[٥]. وقال ابن سيرين: «وَمَا تُوعَدُونَ» من أمر الساعة. وقاله الربيع[٦].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أكَّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه: إنَّه لَحقٌّ، ثم أكَّده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. وخصَّ النُّطقَ من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواسِّ يدخله الشبيه[٧]، كالذي يُرى في المرآة، واستحالةِ الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدَّويِّ والطنين في الأذن، والنطقُ سالمٌ من ذلك، ولا يُعترَض بالصَّدَى؛ لأنه لا يكون إلَّا بعد حصول الكلام من الناطق غيرَ مَشُوبٍ بما يشكل به.

وقال بعض الحكماء: كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِق بنفسه ولا يُمْكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كلُّ إنسان يأكل رزقه، ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره[٨].

---

(١) الدَّوْخَلة؛ بتشديد اللام وتخفيفها: ما ينسج من الخُوص ويجعل فيه الرُّطَب، الصحاح (دخل).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ .

(٣) في القراءات الشاذة ص١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ عن ابن محيصن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ عن سفيان الثوري. وأخرج قول مجاهد ٢١/ ٥٢٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٢ .

(٦) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨ ، وقول ابن سيرين ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ .

(٧) في (ز) و(ف) و(م): التشبيه، والمثبت من (ظ).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ .

وقال الحسن: بلغني أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربُّهم بنفسه ثم لم يصدِّقوه»[١] قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

وقال الأصمعي: أقبلتُ ذاتَ مرَّةٍ من مسجد البصرة، إذ طلع أعرابيٌّ جِلْفٌ جافٍ على قَعُود[٢] له، متقلِّداً سيفَه، وبيده قوسُه، فدنا وسلَّم، وقال: ممَّن الرجل؟ قلت: من بني أَصْمَع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن؛ قال: وللرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛ قال: فاتْلُ عليَّ منه شيئاً؛ فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» إلى قوله: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» فقال: يا أصمعيُّ حسبُك!! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنِّي على توزيعها؛ ففرَّقناها على مَن أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرَّحل، وولَّى نحو البادية وهو يقول: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»، فمقتُّ نفسي ولُمتُها. ثم حججتُ مع الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابيِّ ناحلٌ مصفَرّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي، وقال: أتلُ عليَّ كلامَ الرحمن، وأجلسني وراء المقام، فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ»، حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، وقال: هل غيرُ هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فصاح الأعرابيُّ وقال: يا سبحان الله! مَن الذي أغضب الجليلَ حتى حلف! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجتْ بها نَفْسُه[٣].

وقال يزيد بن مَرْثد[٤]: إنَّ رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقَكَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ .

(٢) القَعُود؛ بالفتح: البعير من الإبل، وهو البَكر حين يُركب، أي: يمكّن ظهره من الركوب. وأقلُّه سنتان إلى أن يثني، فإذا أثنى سمّي جملاً. الصحاح (قعد).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٣٣٧).

(٤) أبو عثمان الهمداني، الشامي الصنعاني، من صنعاء دمشق. تابعي، ذكره ابن حبان في الثقات. وكان كثير البكاء. تهذيب الكمال ٣٢/ ٢٣٩ .

الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع ورَوِي من غير طعامٍ ولا شراب.

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لو أنَّ أحدكم فرَّ من رزقه، لتَبعه كما يَتْبعه الموت» أسنده الثعلبي رحمه الله[(١)]،

وفي سنن ابنِ ماجه عن حَبَّة وسَوَاء ابنَي خالد قالا: دخلنا على النبيِّ ﷺ وهو يعالج شيئاً، فأعنَّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما؛ فإنَّ الإنسان تلده أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه الله»[(٢)].

وروي أنَّ قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة، فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابيَّةٌ فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسَكم، وضاقت صدورُكم، هو ربُّنا والعالم بنا، رِزْقُنا عليه، يأتينا به من حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ صَمّا مُلَمْلَمةٍ مُلْسٍ[(٣)] نواحيها
رِزقٌ لنفسٍ بَرَاها الله لانفلقتْ حتى تؤدِّي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكُها لَسهَّلَ الله في المرقَى مَراقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها إنْ لم تَنلْه وإلَّا سوف يأتيها[(٤)]

قلت: وفي هذا المعنى قِصَّةُ الأشعريين حين أرسلوا رسولَهم إلى النبيِّ ﷺ،

---

(١) وأسنده ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٤٥ من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد ﷺ. وقال: لفضيل أحاديث حسان، وأرجو أن لا بأس به.

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٨٥٥). قوله: تهززت رؤوسكما، أي: تحركت؛ كناية عن الحياة. قوله: أحمر، أي: كاللحم الذي لا قشر عليه، ويحتمل أن المراد بالقشر الثوب. وفي الزوائد: إسناده صحيح، وسلّام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر من تكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. شرح سنن ابن ماجه للسندي ٢/ ٥٤١ .

(٣) في (م): ملساً. وقوله: ململمة، أي: مستديرة صلبة. الصحاح (لمم).

(٤) قال ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٤ : أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش، فذكر الأبيات.

وقال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٣٨ : ومما يروى لعلي بن أبي طالب ﷺ، وفيه نظر، فذكر الأبيات.

فسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيَّ ﷺ، وقال: ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدوابّ؛ وقد ذكرناه في سورة هود[١].

وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]. وقد مضى في «لقمان»[٢].

وقد استوفينا هذا الباب في كتاب «قَمْع الحرص بالزهد والقناعة» والحمد لله.

وهذا هو التوكُّل الحقيقيُّ الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا اللهُ إياه، ولا أحالنا على أحد سواه، بمَنِّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قراءة العامة: «مِثْلَ» بالنصب، أي: كمثل ما أنَّكم، فهو منصوبٌ على تقدير حذف الكاف، أي: كمثل نطقكم، و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيِّين[٣]. وقال الزجّاج والفرَّاء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أي: لَحَقٌّ حقًّا مِثْلَ نطقكم[٤]؛ فكأنه نعتٌ لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني؛ بُني حين أُضيف إلى غير متمكِّن[٥]، و«ما» زائدة للتوكيد. المازني: «مِثْلَ» مع «ما» بمنزلة شيءٍ واحد، فبني على الفتح لذلك[٦]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن مِن العرب مَن يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً؛ فيقول: قال لي رجلٌ مثلَك، ومررت برجل مثلَك، نصب.

وقرأ أبو بكر وحمزة والكِسائيُّ والأعمش: «مِثْلُ» بالرفع على أنه صفةٌ لحقّ[٧]؛

---

(١) ١١/ ٧٣ - ٧٤.

(٢) ١٦/ ٤٧٦ وما بعدها.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٨ بنحوه. قال السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٤٩: وفي هذا نظر، أيُّ حاجة إلى دخول الكاف ومثل تفيد فائدتها؟

(٤) المثبت من (ز)، وفي غيرها: نطقك، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٤، وللفراء ٣/ ٨٥.

(٥) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤١.

(٦) ذكر قوله أبو علي في الحجة ٦/ ٢١٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٧.

(٧) السبعة ص٦٠٩، والتيسير ص٢٠٣. وهي عن الأعمش في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦.

لأنه نكرةٌ وإن أُضيف إلى معرفة، إذ لا يختصُّ بالإضافة؛ لكثرة الأشياءِ التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و«مِثْل» مضافٌ إلى «أَنْكُمْ»، و«ما» زائدة، ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر؛ إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً[(١)]. ويجوز أن تكون بدلاً من «لَحَقٌّ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ذَكَرَ قصةَ إبراهيم عليه السلام ليبيِّنَ بها أنه أهلك المكذِّبَ بآياته كما فعل بقوم لوط.

«هَلْ أَتَاكَ» أي: ألم يأتك. وقيل: «هَلْ» بمعنى قد[(٢)]؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]. وقد مضى الكلامُ في ضيف إبراهيم في «هود» و«الحجر»[(٣)].

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: عند الله[(٤)]؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]. قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل[(٥)]؛ زاد عثمان بنُ مُحصِن[(٦)]: ورفائيل، عليهم الصلاة والسلام[(٧)]. وقال محمد بن كعب: كان جبريل

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ٢١٦.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٧ عن ابن عباس ومقاتل.

(٣) ١١/ ١٥٧ فما بعد، ١٢/ ٢٢١ فما بعد.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧، وزاد المسير ٨/ ٣٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧.

(٦) في (م): حصين، وهو خطأ. وعثمان بن محصن روى عن ابن عباس، مرسل. روى عنه نوح بن قيس الحداني. الجرح والتعديل ٦/ ١٦٧.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٤ (١١٠١٢).

ومعه تسعة[١]. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما مَلَكٌ آخر[٢]. قال ابن عباس: سمَّاهم مكرَمين لأنهم غيرُ مَدْعُوِّين[٣]. وقال مجاهد: سمَّاهم مكرمين لخدمة إبراهيمَ إياهم بنفسه[٤].

قال عبد الوهَّاب: قال لي علي بن عياض[٥]: عندي هريسة، ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسنَ رأيي فيها! قال: امضِ بنا؛ فدخلت الدار، فنادى الغلام، فإذا هو غائب، فما راعني إلَّا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت، وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أنَّ الأمر هكذا. قال: هَوِّن عليك؛ فإنك عندنا مُكرم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَنمًا﴾ تقدَّم في «الحجر»[٦]. ﴿قَالَ سَلَمٌ﴾ أي: عليكم سلام. ويجوز بمعنى: أمري سلام، أو: ردِّي لكم سلام[٧].

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصماً: «سِلْمٌ» بكسر السين[٨].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قومٌ منكرون، أي: غرباء لا نعرفكم[٩]. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم، فنكِرَهم،

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٥ .

(٢) ذكره في الكشاف ٤/ ١٧ دون نسبة.

(٣) في (ظ) و(م): مذعورين، وهو خطأ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٥ بنحوه.

(٥) في (ز): قال لي عياض. وعلي بن عياض ذكره ابن عساكر في تاريخه ١٦/٥ فيمن روى عن أحمد بن عطاء الروذباري الصوفي، فقال: القاضي أبو الحسن علي بن عياض بن أحمد بن أيوب بن أبي عقيل الصوري.

(٦) ١٢/ ٢٢٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٣ بنحوه.

(٨) السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

فقال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»[١]. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمانِ وفي تلك الأرض[٢]. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نَكِرَتْ مِن الحوادث إلّا الشَّيبَ والصَّلَعا[٣]

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قال الزجّاج[٤]: أي: عَدَلَ إلى أهله. وقد مضى في «والصافّات»[٥]. ويقال: أراغ وارتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغ، أي: تريد وتطلب، وراغ[٦] إلى كذا، أي: مال إليه سِرًّا وحاد. فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى[٧].

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي: جاء ضيفَه بعجل قد شواه لهم، كما في «هود»: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [الآية: ٦٩]. ويقال: إنَّ إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه، لئلّا يظهروا على ما يريد أن يتَّخذَ لهم من الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني العجل. ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامَّةُ مالِ إبراهيم البقر. واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم[٨]. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة؛ ذكره القشيري. وفي الصحاح: العِجل ولد البقرة، والعِجَّوْل مثلُه، والجمع العَجاجيل، والأنثى عِجْلة، عن أبي الجرَّاح، وبقرة مُعْجِل: ذات عِجْل، وعِجْل قبيلةٌ من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ أي: أحسَّ منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠ ، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥١ ، وفيه كلام؛ سلف ١١/ ١٦٣ .
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٥٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٣٧٠ .
(٥) ١٨/ ٥٣ .
(٦) في النسخ: وأراغ، والمثبت من الصحاح وغيره.
(٧) لم نقف عليه في كتب اللغة.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٦ .

لمَّا لم يَتحرَّموا بطعامه(١). ومن أخلاق الناس أنَّ مَن تَحرَّم بطعام إنسانٍ أَمِنَه.

وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة: لا نأكل إلَّا بالثمن. قال: كلوا وأدُّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تسمُّون اللهَ إذا أكلتم، وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلاً. وقد تقدَّم هذا في «هود»(٢).

ولمَّا رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكةُ الله ورسلُه. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بولد يولد له مِن سارة زوجتِه. وقيل: لمَّا أخبروه أنهم ملائكةٌ لم يصدِّقهم، فدَعَوا الله، فأحيا العجلَ الذي قرَّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدَّاد: أنَّ جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لَحِقَ بأمه، وأُمُّ العجل في الدار(٣). ومعنى «عَلِيمٍ» أي: يكون بعد بلوغه مِن أولي العلم بالله وبدينه.

والجمهور على أنَّ المبشَّر به هو إسحاق. وقال مجاهدٌ وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء؛ فإنَّ الله تعالى: يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢]. وهذا نصّ(٤).

قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجَّة؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه أُخذ صريرُ الباب، وهو صوته(٥). وقال عكرمة وقتادة: إنها الرَّنَّة والتأوُّه(٦). ولم يكن هذا الإقبالُ من مكان إلى مكان؛ قال الفرَّاء(٧): وإنما هو

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨، وقوله: يتحرموا بطعامه، أي: يحرم عليهم بسببه ما يريدون به من سوء.

(٢) ١١/ ١٦٦. وينظر النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، والكشاف ٤/ ١٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٨. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٧ ورجح خلافه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ بنحوه، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عنه وعن غيره.

(٦) ذكر قول عكرمة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨، وقول قتادة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عن قتادة.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٧.

كقولك: أقبل يشتِمني، أي: أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة، أي: في جماعة من النساء تسمع كلامَ الملائكة[١].

قال الجوهري: الصَّرَّة: الضَّجَّة والصيحة، والصَّرَّة: الجماعة، والصَّرَّة: الشِّدَّة مِن كرب وغيره، قال امرؤ القيس:

فألحقه بالهاديات ودونَهُ جَوَاحِرُها في صَرَّة لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيتُ الوجوهَ الثلاثة. وصَرَّةُ القيظ: شِدَّة حَرِّه[٢].

فلما سمعت سارة البِشارة، صَكَّت وجهها، أي: ضربت يدها على وجهها على عادة النِّسوان عند التعجُّب؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيره[٣]. وقال ابن عباس: صَكَّت وجهها: لطمته[٤]. وأصل الصَّك: الضرب؛ صكَّه، أي ضربه؛ قال الراجز:

يا كَرَواناً صُكَّ فاكبأنَّا[٥]

قال الأموي: كَبَن الظَّبي: إذا لطأ بالأرض، واكبَأنَّ: انقبض[٦].

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتلد عجوزٌ عقيم؟![٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٤ .

(٢) الصحاح (صرر). وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٢٢ ، وروايته: فألحقنا.. قال شارحه: قوله: فألحقنا بالهاديات، أي: ألحقنا الفرس بالمتقدمات من البقر. والجواحر: ما تخلف منها. والصرة: الجماعة. ومعنى: لم تزيل: لم تفرق، أي: جمع الفرس بين أواخرها وأوائلها، فلم يفت منها شيء.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٠ عن الثوري وغيره.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٩ .

(٥) الصحاح (صكك)، وينظر (كبن). والرجز لمدرك بن حصن، وهو في إصلاح المنطق ص٩٦ ، والمعاني الكبير ١/ ٢٩٤ ، واللسان (كبن)، والخزانة ٣/ ١٨٧ (دار صادر). والكَرَوان: طائر، قيل: هو الحُبَارَى: الصحاح (كرى). والمقصود به هنا عامل الزكاة هجي به، كأنه قال: يا رجلاً كرواناً، أي: يا مثل الكروان بضعفه. الخزانة.

(٦) الصحاح (كبن).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ عن مجاهد والسدي.

الزجَّاج[١]: أي: وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟! كما قالت: «يا وَيْلَتا أَأَلد وأنا عجوزٌ» [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي: كما قلنا لكِ وأخبرناك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشُكِّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سَنَة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسعٍ وتسعين سنة، وإبراهيمُ يومئذ ابن مئةِ سنة، وقد مضى هذا[٢]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله، عليمٌ بمصالح خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لمَّا تيقَّن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة، قال لهم: «فَمَا خَطْبُكُمْ» أي: ما شأنكم وقِصَّتكم «أيُّها المرسَلون» ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يريد قومَ لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: لنرجُمَهم بها.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمة. قيل: كانت مخطَّطةً بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أي: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسمُ من يَهلِك به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيم. وقد مضى هذا كلُّه في «هود»[٣]. فجَعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذهم[٤]، فلم يُفلت منهم مُخْبِر. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الله، وقد أعدَّها لرجم مَن قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخَ الآجرّ، قاله

(١) في معاني القرآن ٥/ ٥٥ .

(٢) ١١/ ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) ١١/ ١٨٧ -١٨٩ .

(٤) المثبت من (م)، وفي غيرها: شدادهم. وفي القاموس: الشُّذَّاذ: الذين لم يكونوا في حيِّهم ومنازلهم.

ابن زيد؛ وهو معنى قولِه تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[١]. وقيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مرِّ الدهور. وإنما قال: «مِنْ طِينٍ» ليعلم أنها ليست حجارةَ الماء التي هي البَرَد؛ حكاه القشيري[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمَّا أردنا إهلاكَ قوم لوط، أخرجنا مَن كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يَهلِكَ المؤمنون، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه، وفيه إضمار؛ أي: فما وجدنا فيها غيرَ أهلِ بيت. وقد يقال: بيت شريف، يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية، ولم يتقدَّم لها ذِكْر؛ لأن المعنى مفهوم[٣]. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يدلُّ على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة[٤]، والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء، فجنَّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليس كلُّ مسلم مؤمناً. فسمَّاهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلَّا وهو مسلم[٥]. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[٦]. وقولُه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات: ١٤] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وهو مقتضى حديثِ جبريل عليه السلام في صحيح مسلم[٧] وغيره. وقد بيَّناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً وعلامةً لأهل ذلك الزمانِ ومَن بعدهم؛

---

(١) ١١/١٦٨-١٦٩ .

(٢) وحكاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥ ، والكشاف ٤/ ١٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٣ .

(٦) ٢/ ٣٩٦ ، ٤٠٧ - ٤٠٨ و٥/ ٦٨ .

(٧) برقم (٨) و(٩). وسلف ٥/ ٦٨ .

نظيرُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخَرِبة[١]. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: «وفي الأَرْض آياتٌ» «وفي مُوسَى»[٢]. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة، وهي العصا. وقيل: أي: بالمعجزات؛ من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فرعون؛ أعرض عن الإيمان «بِرُكْنِهِ» أي: بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قولِ مجاهد[٣]. ومنه قولُه: «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» [هود: ٨٠] يعني المَنَعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته[٤]. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِرَاسُ الحربِ رُكْني ... ولكنْ ما تقادَم مِن زماني[٥]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٧ بنحوه.

(٢) لم نقف على كلام الفراء، وذكر الوجهين الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩.

(٣) أخرجه وقولَ ابن زيد الطبري ٢١/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) في (ظ): لقومه (كذا) والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٥٣٤ على الشك فقال: بقوته أو بقومه. أبو جعفر يشك. أي: الطبري. وأما قتادة فقد أخرج عنه ٢١/ ٥٣٥ قوله: بقومه، وكذا أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤٤، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠.

(٥) ونسبه أيضاً لعنترة المبرِّد في الكامل ١/ ٢٨٥، وليس هو في المطبوع من ديوانه. والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢.

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش[١]: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] وقاله المؤرِّج.

الجوهري[٢]: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد، أي: عِزٍّ ومَنَعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارةٌ عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً[٣]. قاله المؤرِّج والفرَّاء، وأنشد بيت جرير[٤]:

أَثَعْلَبَةَ الفَوارسَ أو رِياحا عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والخِشَابا

وقد توضع «أو» بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]. والواوُ بمعنى «أو»، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وقد تقدَّم جميع هذا[٥].

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتولِّيهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً لمن تأمَّل. ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمةَ فيها ولا بركة ولا منفعة؛

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في الصحاح (ركن).

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧ . وقد ضعفه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠ .

(٤) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن. وسلف ١٧/ ٣١٣ .

(٥) ١/ ٣٢٥ ، ٦/ ٣٣ - ٣٥ .

ومنه: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجَنُوب؛ روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن، عن النبيِّ ﷺ قال[١]: «الريح العقِيم الجَنُوب». وقال مقاتل: هي الدَّبُور[٢]، كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «نُصِرت بالصَّبَا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[٣]. وقال ابن عباس: هي النَّكْباء[٤]. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة، وما فتح على عاد منها إلا كقَدْر مَنْخِر الثور. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أنها الصَّبا[٥]؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتَّت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد[٦]. ومنه قول الشاعر[٧]:

تركْتَني حين كَفَّ الدَّهرُ مِن بصري ... وإذ بَقِيتُ كعَظْم الرِّمَّة البالي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسُّدِّيّ: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم: الرَّماد[٨]. وقال يمان: ما رَمَته الماشية من الكلأ بمِرَمَّتها. ويقال للشَّفَة: المِرَمَّة والمِقَمَّة، بالكسر، والمَرَمَّة ـ بالفتح ـ لغةٌ فيه. وأصل الكلمة مِن: رَمَّ العظمُ: إذا بَلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ ـ بالكسر ـ رِمَّة، فهو رميم،

(١) كذا في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٨، وأبو الشيخ في العظمة (٨٥١) بهذا السند عن سعيد بن المسيب من كلامه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣. والدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبا. النهاية (دبر).

(٣) صحيح البخاري (١٠٣٥)، وصحيح مسلم (٩٠٠). وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٤) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩، وابن عطية في المحرر ٥/ ١٨٠ عن علي ﷺ، وكذا أخرجه الفريابي وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ١١٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٤٠. وقول مجاهد في النكت والعيون.

(٧) هو جرير، والبيت في شرح ديوانه ٢/ ٥٨٤ باختلاف يسير، وهو براوية المصنف في النكت والعيون.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ دون ذكر أبي العالية، وقوله في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣.

قال الشاعر:

ورأى عـواقـبَ خُـلْـفِ ذاك مَـذَمَّـةً تَـبـقَـى عـلـيـه والـعِـظـامُ رَمِـيـمُ[١]

والرِّمَّة ـ بالكسر ـ العظام البالية، والجمع: رِمَم ورِمَام[٢]. ونظيرُ هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] حسَب ما تقدَّم[٣].

قـولـه تـعـالـى: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي: وفيهم أيضاً عِبْرةٌ وآية حين قيل لهم: عيشوا متمتِّعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٦٥]. وقيل: معنى «تَمَتَّعُوا» أي: أسلِموا وتمتَّعوا إلى وقت فراغ آجالِكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالَفوا أمر الله، فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. وقيل: هي كلُّ عذاب مُهلِك[٤]. قال الحسين[٥] بن واقد: كلُّ صاعقة في القرآن فهو العذاب.

وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهدٌ والكسائي: «الصَّعْقة»[٦]؛ يقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء: إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب[٧]. وقد مضى في «البقرة»[٨] وغيرها.

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (رمم).

(٣) ص٢١٤-٢١٥ من هذا الجزء.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤، والقول الأول نسباه لابن عباس.

(٥) في النسخ الخطية: الحسن.

(٦) أخرجها عن عمر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨، والطبري في تفسيره ٢١/ ٥٤٢، وهي عن الكسائي في السبعة ص٦٠٩، والتيسير ٢٠٣.

(٧) الصحاح (صعق).

(٨) ١/ ٣٣٠ - ٣٣٢.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً[١].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه: من نهوض[٢]. وقيل: ما أطاقوا أن يستقِلُّوا بعذاب الله وأن يتحمَّلوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر، أي: لا أطيقه[٣]. وقال ابن عباس: أي: ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب حين أُهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «وَقَومِ نُوحٍ» بالخفض، أي: وفي قوم نوحٍ آيةٌ أيضاً. الباقون بالنصب[٤] على معنى: وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في «أَخذَتْهُمْ»، أو الهاء في«أَخذناهُ»، أي: فأخذتْهم الصاعقة وأخذتْ قومَ نوح، أو: «نَبَذناهُمْ في اليمِّ» ونبذنا قومَ نوح[٥]، أو يكون بمعنى: اذكر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ لَمَّا بيَّن هذه الآيات قال: وفي السماء آياتٌ وعِبَرٌ تدلُّ على أنَّ الصانع قادر على الكمال، فعَطَفَ أمر السماء على قصة قوم نوحٍ

---

(١) الكشاف ٤/١٩ .

(٢) أخرج هذا القول الطبري ٢١/٥٤٣ عن قتادة.

(٣) ذكره بمعناه الفراء في معاني القرآن ٣/٨٨ .

(٤) السبعة ص٦٠٩ ، والتيسير ص٢٠٣ .

(٥) وهو الوجه الذي استحسنه الزجاج في معاني القرآن ٥/٥٧ وقال: لأن المعنى: فأغرقناه وجنودَه وأغرقنا قوم نوح من قبل.

(٦) كره الفراء في معانيه ٣/٨٨-٨٩ هذا التقدير، وكره أيضاً النصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، والعطفَ على الهاء والميم في «أخَذَتْهم». وذكر هذه الأوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/٦٨٩ .

لأنهما آيتان. ومعنى «بِأَيْدٍ» أي: بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره[١].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي: وإنَّا لذو سَعة، بخلقها وخلقِ غيرها؛ لا يضيق علينا شيءٌ نريده. وقيل: أي: وإنا لموسِعون الرزقَ على خَلْقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزقَ بالمطر. وقال الضحَّاك: أغنيناكم؛ دليلُه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٢] [البقرة:٢٣٦]. وقال القُتَبي: ذو سَعةٍ على خلقنا[٣]. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة[٤]. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ، أي: صار ذا سَعة وغِنىً، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء قادرون[٥]. فشمل جميع الأقوال.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها كالفِراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: فنعم الماهدون نحن لهم. والمعنى في الجمع التعظيمُ؛ مَهَدْت الفِراشَ مَهْداً: بَسَطْته ووطَّأته، وتمهيد الأمور: تسويتُها وإصلاحها[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى[٧]، وحلواً وحامضاً، ونحو ذلك. مجاهد[٨]: يعني الذَّكَرَ والأنثى، والسماءَ والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجِنَّ والإنس، والخير والشرَّ، والبُكْرة والعَشيَّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطُّعوم والأراييح والأصوات. أي: جعلنا هذا هكذا[٩] دَلالةً

(١) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢١/ ٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٢٢ ، وفي زاد المسير ٨/ ٤١ نقلاً عنه: أي لقادرون.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٧ .

(٥) الصحاح (وسع).

(٦) الصحاح (مهد).

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٤٨ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٩ .

(٨) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٤٧ بنحوه.

(٩) في (م): كهذا.

على قدرتنا، ومَن قَدَرَ على هذا فليقدر على الإعادة.

وقيل: «ومِنْ كلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زوجَينِ» لتعلموا أنَّ خالق الأزواج فرد، فلا يقدَّر في صفته حركةٌ ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عزَّ وجلَّ وِتر[(١)] «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لما تقدَّم ما جرى مِن تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد، أي: قل لقومك: «ففِرُّوا إلى الله إنِّي لكُمْ منه نذيرٌ مُبينٌ﴾ أي: فِرُّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فِرُّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته[(٢)]. وقال محمد بن عبد الله بنِ عمرو بن عثمان بن عفان[(٣)]: «ففِرُّوا إلى الله» اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين[(٤)] بن الفضل: احترزوا من كل شيءٍ دون الله؛ فمَن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورَّاق: فِرُّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرُّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن

(١) قوله: هو عز وجل وتر، قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه عنه أحمد (٧٦٢٣)، (٨١٤٦)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). وفي الباب عن علي ﷺ، أخرجه أحمد (٨٧٧)، وأبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي ٣/ ٢٨٨ - ٢٢٩، وابن ماجه (١١٦٩).

(٢) ذكر قوله الثاني البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤.

(٣) هو أبو عبد الله العثماني المدني، الملقب بالديباج لحسنه، كان جواداً سخياً، ذا مروءة وسؤدد وحشمة. توفي سنة ١٤٥ هـ. السير ٦/ ٢٢٤.

(٤) في (ز): الحسن.

عثمان: فِرُّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِرُّوا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرُّوا مما سوى الله إلى الله(١).

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أُنذركم عقابَه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أَمَرَ محمداً ﷺ أن يقولَ هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطابٌ من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: أُنذركم بأسَه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما كذَّبك قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذَّب مَن قبلهم وقالوا مِثْلَ قولهم.

والكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون نصباً على تقدير: أُنذركم إنذاراً كإنذار مَن تقدَّمني مِن الرسل الذين أَنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير: الأمرُ كذلك، أي: كالأول. والأوَّل تخويفٌ لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين(٢). والتمام على قوله: «كَذَٰلِكَ»(٣)، عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه! والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضُهم بعضاً، بل جمَعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم واصفح عنهم ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله؛ لأنك أدَّيت ما عليك من تبليغ الرسالة. ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوَّل قول الضحَّاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة(٤).

(١) ذكر قوله البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٠ .

(٣) المكتفى في الوقف والابتداء ص٥٣٨ .

(٤) الكلام بنحوه في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤١٩ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢ .

وقال مجاهد: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعرض عنهم[١]. «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» أي: ليس يلومك ربُّك على تقصيرٍ كان منك[٢]. «وَذَكِّرْ» أي: بالعِظة؛ فإنَّ العِظة «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن[٣] «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكِّرهم بالعقوبة وأيامِ الله[٤]. وخصَّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إنَّ هذا خاصٌّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقتُ أهل السعادة من الجنِّ والإنس إلَّا ليوحِّدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيصُ على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممَّن خُلق للعبادة، فالآية محمولةٌ على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي[٥].

وفي قراءة عبدِ الله: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥١ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤ ، والأول ذكره عن مجاهد.

(٤) معاني القرآن للزجاج بنحوه ٥/ ٥٨ .

(٥) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨١ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٨٩ ، وقول القتبي في تأويل مشكل القرآن له ص١١٧ - ١١٨ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥ .

وقال عليٌّ ﷺ: أي: وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا لآمُرَهم بالعبادة. واعتمد الزجَّاج على هذا القول[١]، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيَّته والتذلُّلِ لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلَّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفه[٢] مَن كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلُّلُ لقضائه فإنه غير ممتنع منه.

وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أي: إلَّا ليُقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كَرهاً؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٣]. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة. مجاهد: إلَّا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لَمَا عُرف وجودُه وتوحيده. ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤] [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلَّا لآمُرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلوا عليه من الشِّقوة والسعادة[٥]؛ فخَلَقَ السعداءَ من الجنِّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياءَ منهم للمعصية. وعن الكلبيِّ أيضاً: إلَّا ليوحِّدون، فأمَّا المؤمن فيوحِّدُه في الشِّدَّة والرَّخاء، وأما الكافر فيوحِّده في الشدَّة والبلاء دون النعمة والرَّخاء؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٦] [لقمان: ٣٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلَّا ليعبدون ويطيعون، فأُثيبُ العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى: إلَّا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبدٌ بيِّن العُبُودة

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٨، وقول علي ﷺ في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢.
(٢) في (م): خالفهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٤.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٣ - ٥٥٤.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥ دون نسبة.

والعبوديَّة، وأصل العبودية الخضوعُ والذُّلّ. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبَّد[١].
قال[٢]:

وظِيفاً وَظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والتعبيد الاستعباد، وهو أن يتَّخذَه عبداً، وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك[٣]. فمعنى «لِيَعْبُدُون»: لِيَذِلُّوا ويخضعوا ويعبدوا.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مِنْ» صِلة، أي: رِزقاً، بل أنا الرزَّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها[٤]. وقيل: المعنى: ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيرُه: «الرَّازِقُ»[٦]. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد القويّ.

وقرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والنَّخَعي: «المَتِينِ» بالجرِّ على النعت لـ «القوَّةِ»[٧].

الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزَّاق»، أو «ذُو» مِن قوله: «ذُو القُوَّةِ» أو يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف؛ أو نعتاً لاسم «إنّ» على الموضع، أو خبراً بعد خبر[٨]. قال

(١) الصحاح (عبد).
(٢) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٢٢، وسلف ١/ ٣٤١.
(٣) الصحاح (عبد).
(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٥٥٥ عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ لأبي الجوزاء.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥.
(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥.
(٧) ذكرها عن الأعمش ويحيى بن وثاب ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٥ عن يحيى بن وثاب.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٢.

الفرَّاء[١]: كان حقه: المتينة؛ فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكَم الفَتْلِ؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرَّاء:

لِكُلِّ دهرٍ قد لَبِسْتُ أَثْوُبا حتى اكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبا
مِن ريطةٍ واليُمْنَةَ المُعَصَّبا[٢]

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنفٌ من الثياب؛ ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي: وَعْظٌ، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] أي: الصياحُ والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا من أهل مكة[٣] ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثلَ نصيبِ الكفار من الأمم السالفة. وقال ابن الأعرابي: يقال: يومٌ ذَنُوب، أي: طويل الشرِّ لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلوُ العظيمة[٤]، وكانوا يستقون الماء، فيقسمون ذلك على الأنصباء؛ فقيل للذَّنُوب نصيبٌ مِن هذا[٥]، قال الراجز:

لنا ذَنُوبٌ ولكم ذَنُوبُ فإنْ أَبَيْتُمْ فلنا القَلِيبُ[٦]

وقال علقمة:

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٩٠.

(٢) البيت الأول والثالث في معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٦.

والأبيات ضمن أرجوزة نسبت لمعروف بن عبد الرحمن، كما ذكر محقق ديوان حميد بن ثور ص٦١. الريطة: المُلاءة من قطعة واحدة. واليُمْنَة، بضم الياء وفتحها: بُرد يمني. والمعصَّب: ضرب من البرود يصبغ غزله ثم ينسج. شرح الديوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦.

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٤٤٠، ٤٣٩.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٤٢٣، والكشاف ٤/ ٢١.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧، والكشاف ٤/ ٢١، واللسان (ذنب) دون نسبة.

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ فحُقَّ لِشَأْسٍ مِن نَداكَ ذَنُوبُ[١]

وقال آخر[٢]:

لَعَمْرُكَ والمنايا طارِقاتٌ لكلِّ بَني أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنوب: الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب: النصيب، والذَّنُوب: لحم أسفل المَتْن، والذَّنوب: الدَّلو الملأى ماءً. وقال ابن السِّكِّيت: فيها ماءٌ قريب من المَلْء، يؤنَّث ويذكَّر، ولا يقال لها وهي فارغة: ذَنُوب، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة، والكثير ذَنائِب، مثل: قَلُوص وقَلَائص[٣].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلوا نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد «فأْتنا بما تَعِدُنا إنْ كُنتَ مِن الصَّادقين» [الأعراف: ٧٠]. فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق الله تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[٤]، ثم لهم في الآخرة العذابُ الدائم، والخزيُ القائم الذي لا انقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد.

تم تفسير سورة الذاريات، والحمدُ لله

---

(١) ديوان علقمة الفحل ص٤٨ . وشأس أخوه.

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢ .

(٣) الصحاح (ذنب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ .

سُورَةُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾

مَكِّيَّةٌ، وآيُها سِتُّون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ يعني: الرِّياحَ تَذرُو التُّرابَ أو غيرَه، أو النِّساءَ الوَلُودَ فإنَّهنَّ يُذْرينَ الأولادَ، أو الأسبابَ التي تُذْرِي الخلائقَ من الملائكةِ وغيرِهم.

وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ بإدغامِ التَّاءِ في الذَّالِ[1].

(٢) ـ ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ فالسُّحُبِ الحاملةِ للأمطارِ، أو الرِّياحِ الحاملَةِ للسَّحابِ، أو النِّساءِ الحواملِ، أو أسبابِ ذلك.

وقُرِئَ: (وَقْرًا)[2] على تسميةِ المَحمولِ بالمَصدَرِ.

(٣) ـ ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ فالسُّفُنِ الجاريَةِ في البحرِ سهلًا، أو الرِّياحِ الجارِيَةِ في مَهابِّها، أو الكَواكبِ التي تجري في مَنازِلِها، و﴿يُسۡرٗا﴾ صِفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ؛ أي: جَرْيًا ذا يُسْرٍ.

(٤) ـ ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ الملائكةُ التي تُقَسِّمُ الأمورَ مِن الأمطارِ والأَرزاقِ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٥)، و«النشر» (١/ ٣٠٠).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٩/ ٣٨٨).

وغيرِهـا، أو مـا يَعمُّهُـم وغيرَهـا مِـن أسـبابِ القسـمَةِ، أو الرِّيـاحُ يُقسِّـمنَ[١] الأمطارَ بتَصريـفِ السَّـحابِ[٢].

فإن حُمِلَتْ على ذواتٍ مُختلِفَةٍ فالفاءُ لتَرتُّبِ الإقسامِ بها باعتبارِ ما بينَها مِن التَّفاوُتِ في الدلالةِ على كمالِ القُدرَةِ، وإلَّا فالفاءُ لتَرتُّبِ الأفعالِ؛ إذ الرِّيحُ مثلًا تذرو الأبخرةَ إلى الجوِّ حتى تَنعَقِدَ سحابًا فتحملَه فتجريَ به باسطةً له إلى حيثُ أُمِرَتْ به فتقسِّمُ المطرَ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جـوابٌ للقَسَـمِ، كـأنَّه اسـتدلَّ باقتِـدارِه عـلى هذه الأشـياءِ العَجيبَةِ المخالِفَـةِ لِمُقتَضى الطَّبيعَةِ علـى اقتدارِه على البعـثِ الموعـودِ، و(مـا) مَوصولـةٌ أو مَصدريَّـةٌ، و(الدِّيـنُ): الجـزاءُ، و(الواقِـعُ): الحاصِلُ.

(٧) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ ذاتِ الطَّرائقِ، والمرادُ إمَّا الطَّرائقُ[٣] المحسوسةُ التي هي مَسيرُ الكواكبِ، أو المَعقولَةُ التي يسلُكُها النُّظَّارُ ويُتوصَّلُ بها إلى المعارفِ، أو النُّجومُ فإنَّ لها طرائقَ، أو أنَّها تُزيِّنُها كما تُزيِّنُ الـمَوْشِيَّ طرائِقُ الوَشْيِ، جمعُ حَبيكَةٍ؛ كطَريقَةٍ وطُرُقٍ، أو حِباكٍ؛ كمِثَالٍ ومُثُلٍ.

وقُرِئَ: (الحُبْك) بالسُّكونِ، و(الحِبِك) كالإبِلِ، و(الحِبْكِ) كالسِّلْكِ، و(الحَبَكِ) كالجَبَلِ، و(الحِبَكِ) كالنِّعَمِ، و(الحُبَكِ) كالبُرَقِ[٤].

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «تقسِّم».

(٢) في نسخة الخيالي: «الرياح».

(٣) في نسخة التفتازاني: «الطرق».

(٤) انظر هذه القراءات مع قارئيها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥ ـ ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«الكشاف» (٨/ ٤٣٩)، و«البحر» (١٩/ ٣٩١).

(٨) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الرَّسولِ، وهو قولُهم تارةً: إنه شاعرٌ، وتارة: إنه ساحِرٌ، وتارةً: إنَّه مجنونٌ، أو في القرآنِ، أو القيامةِ، أو أمرِ الدِّيانةِ.

ولعلَّ النُّكتةَ في هذا القسَمِ تَشبيهُ أقوالِهم في اختلافِها وتنافي أغراضِها بالطَّرائقِ للسَّماواتِ في تَباعُدِها واختلافِ غاياتِها.

(٩) ـ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُصرَفُ عنه ـ والضَّمير للرَّسولِ أو القُرآنِ أو الإيمانِ ـ مَن صُرِفَ؛ إذ لا صَرْفَ أشدَّ منه، فكأنَّه لا صَرْفَ بالنِّسبَةِ إليه، أو يُصرَفُ مَنْ صُرِفَ في علمِ اللهِ وقَضائِه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الضَّميرُ للقَوْلِ على معنى: يصدرُ إِفْكُ مَن أُفِكَ عَن القولِ المختلفِ وبسبَبِه كقولِه:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُرْبِ[1]

أي: يَصدرُ تَناهيهِم عنهما وبسبَبِهما.

وقُرِئَ: (أَفَك) بالفتح[2]؛ أي: مَن أَفَكَ النَّاسَ، وهُم قريشٌ، كانوا يَصدُّون النَّاسَ عن الإيمانِ.

(١٠) ـ ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكَذَّابونَ مِن أَصحابِ القَولِ المُختَلِفِ، وأصلهُ الدُّعاءُ بالقَتلِ أُجرِيَ مجرى اللَّعنِ.

---

(١) عجز بيت ورد دون نسبة في «المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٣٨٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٧)، وصدره:

يمشون دُسْماً حولَ قُبَّتِهِ

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٤٠٢)، كلاهما عن قتادة، و«الكشاف» (٨/ ٤٤٠) عن سعيد بن جبير، و«البحر» (١٩/ ٣٩٣) عن قتادة وسعيد بن جبير.

(١١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهلٍ يَغْمُرهُم ﴿سَاهُونَ﴾ غافِلُونَ عمَّا أُمِرُوا به.

(١٢) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: فيقولونَ متى يومُ الجَزاءِ؟ أي: وقوعُه.

وقُرِئَ: (إِيَّانَ) بالكسرِ(١).

(١٣) ـ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُحرَقُونَ، جوابٌ للسُّؤالِ؛ أي: يقعُ يومَ هُم على النَّارِ يُفتَنُون، أو هو يومٌ هم على النَّارِ يُفتَنُون.

وفُتِحَ ﴿يَوْمَ﴾ لإضافتِه إلى غيرِ مُتمكِّنٍ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ بالرَّفعِ(٢).

(١٤) ـ ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: مقولًا لهم هذا القولُ.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذابُ هو الذي كُنْتُم به تَستعجِلُونَ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿هَٰذَا﴾ بدلًا مِن ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾، و﴿ٱلَّذِى﴾ صِفَتَه.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلينَ لِمَا أعطاهُم راضينَ به، ومَعناه: أنَّ كُلَّ ما آتاهُم حَسَنٌ مَرضِيٌّ مُتلَقًّى بالقَبولِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قد أَحسَنُوا أَعمالَهُم، وهو تعليلٌ لاستِحقاقِهِم ذلك.

(١٧) ـ ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسيرٌ لإحسانِهم و(ما) مَزيدةٌ؛ أي: يهجَعُونَ في طائفةٍ مِن اللَّيلِ، أو يَهجعونَ هُجوعًا قليلًا، أو مَصدريَّةٌ، أو مَوصولَةٌ؛ أي: في قليلٍ مِن اللَّيلِ هُجوعُهُم أو ما يَهجعونَ فيه، ولا يجوزُ أَنْ تكونَ نافِيةً لأنَّ ما بعدَها لا يعمَلُ فيما قبلَها.

وفيه مُبالغاتٌ لتَقليلِ نَومِهِم واستراحَتِهِم: ذكرُ القَليلِ، واللَّيلِ الذي هو وقتُ السُّباتِ، والهُجوعِ الذي هو الغِرَارُ(٣) مِن النَّومِ، وزيادةُ (ما).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٨)، عن السلمي والأعمش.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦) عن ابن أبي عبلة.

(٣) قوله: «الغِرَارُ»؛ أي: القليلُ، انظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١٨).

(١٨) ـ ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي: إنَّهُم مع قلَّةِ هُجوعِهِم وكثرةِ تَهجُّدِهم إذا أسحروا أَخذوا في الاستغفارِ كأَنَّهُم أسلفُوا في ليلِهِم الجرائمَ، وفي بناءِ الفعلِ على الضَّميرِ إشعارٌ بأَنَّهُم أَحِقَّاءُ بذلك لوُفورِ علمِهِم باللهِ وخشيتِهِمْ منه.

(١٩) ـ ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ نصيبٌ يَستَوْجِبُونَه على أَنفُسِهِم تَقرُّبًا إلى اللهِ وإشفاقًا على النَّاسِ.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ للمُستَجدِي والمُتعفِّفِ الذي يُظَنُّ غنيًّا فيُحرَمُ الصَّدقَةَ.

(٢٠) ـ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها دلائلُ مِن أنواعِ المعادنِ والحَيوانِ، أو وجوهُ دلالاتٍ مِن الدَّحوِ والسُّكونِ وارتفاعِ بَعضِها عن الماءِ واختِلَافِ أَجزائِها في الكيفيَّاتِ والخَواصِّ والمنافعِ = تدلُّ على وُجودِ الصَّانعِ وعِلمِهِ وقُدرَتِه وإرادَتِه ووحدَتِه وفَرْطِ رَحمَتِه.

(٢١) ـ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: وفي أنفُسِكُم آياتٌ؛ إذ ما في العالمِ شيءٌ إلَّا وفي الإنسانِ له نظيرٌ يدلُّ دلالتَهُ مع ما انفردَ به مِن الهيئاتِ النَّافعَةِ والمناظرِ البَهِيَّةِ والتَّركيباتِ العَجيبَةِ والتَّمكُّنِ مِن الأفعالِ الغريبَةِ واستنباطِ الصَّنائعِ المُختَلِفَةِ واستجماعِ الكَمالاتِ المُتنوِّعَةِ.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ تنظرونَ نظرَ مَن يَعتَبِرُ.

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أسبابُ رِزقِكُم، أو تَقديرُه.

وقيل: المرادُ بالسَّماءِ السَّحابُ، وبالرِّزقِ المطرُ فإنَّه سببُ الأَقواتِ.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثَّوابِ؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ السَّابعَةِ، أو لأنَّ الأعمالَ وثَوابَها مَكتوبةٌ مُقدَّرةٌ في السَّماءِ.

وقيل: إنَّه مُستأنَفٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضَّميرُ لـ(ما)، وعلى الأوَّلِ يحتملُ له ولِمَا ذُكِرَ مِن أمرِ الآياتِ والرِّزقِ والوَعيدِ.

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثلَ نُطقِكُم كمَا أنَّه لا شَكَّ لكم في أنَّكُم تنطِقُونَ، يَنبَغِي أن لا تَشُكُّوا في تَحقُّقِ ذلك، ونصبُه على الحالِ مِن المُستكنِّ في ﴿لَحَقٌّ﴾، أو الوصفِ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ؛ أي: إنَّه لحقٌّ حقًّا مِثلَ نُطقِكُم.

وقيل: إنَّه مَبنيٌّ على الفتحِ لإضافَتِه إلى غيرِ مُتمَكِّنٍ، وهو (ما) إنْ كانَتْ بمَعنى شيءٍ، و(أنَّ) بما في حيِّزِه إنْ جُعِلَتْ زائدةً، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه صِفَةٌ لـ(حق)، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وأبي بكرٍ بالرَّفعِ[١].

(٢٤) ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأنِ الحديثِ، وتنبيهٌ على أنَّه أوحيَ إليه، والضَّيفُ في الأصلِ مَصدرٌ، ولذلك يُطلَقُ للواحدِ والمتعدِّدِ.

قيل: كانوا اثنَيْ عشرَ مَلَكًا.

وقيل: ثلاثةٌ: جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، وسمَّاهُم ضيفًا لأنَّهم كانوا في صورةِ الضَّيفِ.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: مُكرمينَ عندَ اللهِ، أو عندَ إبراهيمَ إذْ خَدَمهُم بنفسِهِ وزَوجَتِه.

(٢٥) ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديثِ أو الضَّيفِ أو المكرمينَ.

﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نُسَلِّمُ عليكَ[٢] سلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكُمْ سَلامٌ، عُدِلَ به إلى الرَّفعِ بالابتداءِ لقصدِ الثَّباتِ حتَّى تكونَ تَحِيَّتُه[٣] أحسنَ مِن تَحيَّتِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣)، و«النشر» (٢/ ٣٧٧).

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «عليكم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «يكون تحية».

وقُرِئَا مَرفوعَيْنِ[١].

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾، وقُرِئَ منصوبًا[٢]، والمعنى واحِدٌ.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتُمْ قَومٌ، وإنَّما أنكرَهُم لأنَّه ظنَّ أنَّهُم بنو آدمَ ولم يَعرِفْهُم، أو لأنَّ السَّلامَ لم يَكُن تحيَّتَهُم، فإنَّه عَلَمُ الإسلامِ وهو كالتَّعرُّفِ عنهُم.

(٢٦) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ فذهبَ إليهِمْ في خُفيةٍ مِن ضيفِه، فإنَّ مِن أدبِ المضيفِ أنْ يُبادِرَ[٣] بالقِرَى حذرًا مِن أنْ يكفَّهُ الضَّيفُ أو يصيرَ منتظرًا.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنَّه كان عامَّةُ مالِه البقرَ.

(٢٧) ـ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأَنْ وضعَهُ بين أيديهِم.

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: منه، وهو مُشعِرٌ بكونِه حَنيذًا.

والهمزةُ فيه للعرضِ والحثِّ على الأكلِ على طريقَةِ الأدَبِ إن قالَهُ أوَّلَ ما وضعَهُ، وللإنكارِ إن قالَهُ حيثُمَا رأى إعراضَهُم.

(٢٨) ـ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمرَ مِنهم خوفًا لَمَّا رأى إِعراضَهُم عن طعامِه لظَنِّه أنَّهُم جاؤوهُ لشَرٍّ[٤].

وقيل: وقعَ في نَفسِه أنَّهُم مَلائِكَةٌ أُرسِلُوا للعذاب.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنَّا رسلُ اللهِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٤٨)، و«البحر» (١٩/ ٤٠٣) من غير نسبة.

(٢) انظر القراءة الأولى في «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥)، والقراءة الثانية ذكرها في «الكشاف» (٨/ ٤٤٨)، و«البحر» (١٩/ ٤٠٣) من غير نسبة.

(٣) في نسخة الفاروقي والخيالي: «يُبادِه»، وهي نسخة ذكرها الشهاب في «حاشيته»، وفي نسخة الطبلاوي: «يبادره».

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بشر».

قيل: مسحَ جبريلُ العجلَ بجَناحهِ فقامَ يدرُجُ حتَّى لحقَ بأمِّهِ فعرفَهُم[١] وأَمِنَ مِنْهُم[٢].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمُلُ علمُهُ إذا بلغَ.

(٢٩) - ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارَةُ إلى بيتِها، وكانَتْ في زاويةٍ تنظرُ إليهم.

﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحةٍ، مِن الصَّريرِ، ومحلُّه النَّصبُ على الحالِ، أو المفعولِ إن أُوِّلَ ﴿فَأَقْبَلَتِ﴾ بـ:أَخذَتْ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلَطَمتْ بأطرافِ الأصابعِ جَبْهتَها فِعلَ المُتعجِّبِ.

وقيل: وجدَتْ حرارةَ دمِ الحيضِ فلطَمَتْ وَجهَها مِن الحياءِ.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عَجوزٌ عاقِرٌ فكيفَ أَلِدُ؟

(٣٠) - ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثلَ ذلكَ الذي بشَّرْنا بهِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنَّما نُخبِرُك بهِ عنه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيكونُ قولُه حقًّا وفعلُه مُحكمًا.

(٣١) - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهم مَلائكةٌ وأَنَّهم لا ينزلونَ مُجتمعينَ إلَّا لأمرٍ عظيمٍ سألَ عَنْهُ.

(٣٢) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قومَ لوطٍ.

(٣٣) - ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريدُ السِّجِّيلَ؛ فإنَّه طينٌ مُتحجِّرٌ.

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «ففرح».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٤٩)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٠) عن عون بن أبي شداد.

(٣٤) ـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُرسلَةً، مِن أَسَمْتُ[١] الماشيةَ، أو مُعلَمةً مِن (السُّومةِ) وهي العَلَامةُ.

﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المُجاوزينَ الحدَّ في الفُجورِ.

(٣٥) ـ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قُرَى قومِ لُوطٍ، وإضمارُها ـ ولم يَجرِ ذِكرُها ـ لكونِها[٢] مَعلومةً ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممَّنْ آمنَ بلوطٍ.

(٣٦) ـ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ غيرَ أهلِ بَيتٍ مِن المُسلمينَ.

واستُدلَّ بهِ على اتِّحادِ الإيمانِ والإسلامِ، وهو ضَعيفٌ لأنَّ ذلك لا يقتَضِي إلَّا صِدقَ المُؤمنِ والمُسلمِ على مَن اتَّبعَه، وذلك لا يَقتَضِي اتِّحادَ مَفْهُومِهما لجَوازِ صدقِ المَفهوماتِ المُختَلِفَةِ على ذاتٍ واحِدَةٍ[٣].

(٣٧) ـ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علامةً ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فإنَّهُم المعتبِرونَ بها، وهي تلكَ الأحجارُ، أو صخرٌ منضودٌ فيها، أو ماءٌ أسوَدُ مُنتِنٌ.

(٣٨) ـ ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطفٌ على ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾، أو ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ على مَعنى: وجَعَلنا في موسَى، كقوله:

عَلَفْتُهَــا تِبْنًــا وَمَــاءً بَــارِدا[٤]

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أسيمت».

(٢) في نسخة التفتازاني: «لأنها».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «واحد».

(٤) صدر بيت تقدم الاستشهاد به كثيراً، وقد أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّـى شَـتَتْ هَمَّالَـةً عَيْناهَـا

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو مُعجِزاتُه كاليدِ والعَصا.

(٣٩) - ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرضَ عن الإيمانِ به، كقولِه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١]، أو فتولَّى بما كانَ يَتقوَّى به من جنودِه، وهو اسمٌ لِمَا يُركَنُ إليه الشَّيءُ ويُتقوَّى به.

وقُرِئَ بضمِّ الكافِ[١].

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحرٌ ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنَّه جعلَ ما ظهرَ عليهِ مِن الخَوارقِ مَنسوبًا إلى الجنِّ، وتَرددَ في أنَّه حصَّلَ ذلك باختيارِهِ وسَعيِه أو بغيْرِهما.

(٤٠) - ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهُمْ في البحرِ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلَامُ عليه مِن الكُفرِ والعنادِ.

والجملةُ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

(٤١) - ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ سمَّاها عَقيمًا لأنَّها أهلَكَتْهُم وقطعَتْ دابِرَهُم، أو لأنَّها لم تَتضمَّنْ مَنفعةً، وهي الدَّبُورُ أو الجَنُوبُ أو النَّكباءُ.

(٤٢) - ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مرَّتْ عليهِ ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالرَّمادِ، مِن الرَّمِّ، وهو البِلَى والتَّفتُّتُ.

(٤٣) - ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيرُه[٢] قولُه: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

(٤٤) - ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبَرُوا عن امتِثالِه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: العذابُ بعدَ الثَّلاثِ.

وقرأَ الكِسائيُّ ﴿الصَّعْقَةُ﴾[٣]، وهي المرَّةُ مِن الصَّعْقِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٤٥٣) بدون نسبة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها فإنَّها جاءَتْهُم مُعاينةً بالنَّهارِ.

(٤٥) ـ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقولِه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وقيل: هو مِن قولهم: ما يقومُ بهِ: إذا عَجزَ عَن دفعِه.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين منه.

(٤٦) ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلَكْنا قومَ نُوحٍ لأنَّ ما قبلَهُ يدلُّ عليهِ، أو اذكُرْ، ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على محلِّ ﴿وَفِي عَادٍ﴾، ويؤيِّدُه قراءةُ أبي عمرٍو وحمزةَ والكِسائيِّ بالجرِّ[1].

﴿مِّن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ هَؤلاءِ المَذكورينَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجينَ عن الاستقامَةِ بالكُفرِ والعِصيَانِ.

(٤٧) ـ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرونَ، من الوُسْعِ بمعنى الطَّاقةِ، والمُوسِعُ القادِرُ على الإنفاقِ، أو لَموسعونَ السَّماءَ، أو ما بينَها وبينَ الأرضِ، أو الرِّزقَ.

(٤٨) ـ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مَهَدْناها ليَستقرُّوا عليها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: نحن.

(٤٩) ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناسِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعَينِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتَعلَمُوا أنَّ التَّعدُّدَ مِن خواصِّ المُمكِنَاتِ، وأنَّ الواجِبَ بالذَّاتِ لا يقبَلُ التَّعدُّدَ والانقسامَ.

(٥٠) ـ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[2] مِن عقابِهِ بالإيمانِ والتَّوحيدِ ومُلازمَةِ الطَّاعةِ.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: مِن عذابِهِ المعدِّ لِمَن أشركَ أو عَصَى ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ كونُه مُنذِرًا مِن اللهِ بالمُعجِزَاتِ، أو مُبيِّنٌ ما يجِبُ أن يُحذرَ عنه.

---

(١) وقرأ الباقون بالنصب، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «إلى ثوابه».

(٥١) - ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إفرادٌ لأعظَمِ ما يَجِبُ أن يُفَرَّ منه[1].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مُرتَّبٌ على تركِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ.

(٥٢) - ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ مثلُ ذلك، والإشارةُ إلى تكذيبِهِم الرَّسولَ وتسمِيَتِهم إيَّاه ساحرًا ومجنونًا.

وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كالتَّفسيرِ له، ولا يجوزُ نصبُه بـ﴿أَتَى﴾ أو ما يفسِّرُه؛ لأنَّ ما بعدَ (ما) النَّافيةِ لا يعمَلُ فيما قبلَها.

(٥٣) - ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: كأنَّ الأوَّلينَ والآخرينَ منهم أوصى بعضُهم بعضًا بهذا القولِ حتَّى قالوه جميعًا.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أنَّ التَّواصِيَ جامِعُهم لتباعُدِ أيَّامِهم إلى أنَّ الجامِعَ لهم على هذا القولِ مُشارَكَتُهم في الطُّغيانِ الحاملِ عليه.

(٥٤) - ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن مُجادلَتِهم بعدما كرَّرْتَ عليهم الدَّعوةَ فأَبَوْا إلَّا الإصرارَ والعِنادَ.

﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراضِ بعدَما بذلتَ جُهدكَ في البَلاغِ.

(٥٥) - ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولا تَدعِ التَّذكيرَ والموعِظَةَ ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مَن قدَّرَ اللهُ إيمانَهُ، أو مَن آمنَ؛ فإنَّه يزدادُ بها[2] بصيرةً.

(٥٦) - ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لَمَّا خلَقَهُم على صُورةٍ مُتوجِّهَةٍ إلى العبادةِ مُغلِّبَةٍ لها جعلَ خلقَهُم مُغيًّا بها مبالغةً في ذلك، ولو حُمِلَ على ظاهرِهِ مع

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «به».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فإنها تزداده» وفي هامش نسخة الفاروقي نسخة: «تزيده».

أنَّ الدَّليلَ يمنعُه= لَنَافى ظاهرَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيلَ: معناه: إلَّا لِنَأمُرَهُم بالعبادةِ، أو ليَكُونوا عبادًا لي.

(٥٧) ـ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: ما أريدُ أنْ أصرِفَكُم[١] في تحصيلِ رِزقي فاشتَغِلُوا بما أنتُمْ كالمَخلوقينَ له والمأمورينَ به، والمرادُ أن يبيِّنَ أنَّ شأنَهُ مَع عبادِه ليسَ شأنَ السَّادةِ مع عبيدِهِم، فإنَّهُم إنَّما يَملِكُونَهُم ليَستَعِينُوا بهم في تحصيلِ مَعايِشِهم، ويحتملُ أن يُقَدَّرَ بـ(قل) فيكونَ بمعنى قولِه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

(٥٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ ما يفتقِرُ إلى الرِّزقِ، وفيه إيماءٌ باستغنائِه عنه.

وقُرِئَ: (إنِّي أنا الرَّزَّاقُ)[٢].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ شديدُ القُوَّةِ.

وقُرِئَ: (المتينِ)[٣] بالجرِّ صِفةً لـ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أصرفهم»، قال الخفاجي في «حاشيته»: كان مقتضى الظاهر: (أن أصرفهم) و(فليشتغلوا بما هم...) فكأنه نظر إلى أنهم وإن ذكروا بطريق الغيبة إعراضاً عنهم وتبعيداً عن ساحة الخطاب إلا أنّ إسماعهم مقصود هنا، فكأنهم مخاطبون، فلذا جوّز تقدير (قل) قبله، فتدبر.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، وكذا رواه أبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وصححه، والإمام أحمد في «المسند» (٣٧٤١)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين»، قلت: فإن صح فهو مما نسخ من القرآن.

(٣) وهي قراءة يحيى بن وثاب والأعمش، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٩).

(٥٩) ـ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ﴾ أي: للَّذينَ ظلَمُوا رسـولَ اللهِ بالتَّكذيبِ نَصِيبًا مِن العَذابِ.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثلَ نَصيبِ نُظَرائِهم مِن الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وهو مأخوذٌ مِن مُقاسمَةِ السُّقاةِ الماءَ بالدِّلاءِ، فإنَّ الذَّنُوبَ هو الدَّلوُ العظيمُ المملوءُ.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ جوابٌ لقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(٦٠) ـ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ مِن يومِ القيامَةِ أو يومِ بَدرٍ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قـرأَ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ أعطاهُ اللهُ عشرَ حَسَناتٍ بعدَدِ كلِّ ريحٍ هَبَّتْ وجَرَتْ في الدُّنيا»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٧٣)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٠٩).

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿والذاريات ذرواً﴾ قال علي رضي الله عنه: الريح، ﴿فالحاملات وقراً﴾ قال: السحاب ﴿فالجاريات يسراً﴾ قال: السفن ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قال: الملائكة(١).

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذرواً، فقال رضي الله عنه: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً، قال رضي الله عنه: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً، قال رضي الله عنه: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته(٢).
وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر وغير واحد، ولم يحك ابن جرير غير ذلك، وقد قيل: إن المراد بالذاريات (الريح) وبالحاملات وقراً (السحاب) كما تقدم لأنها تحمل الماء، فأما ﴿الجاريات يسراً﴾ فالمشهور عن الجمهور أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً، الملائكة فوق ذلك

---

(١) روي من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنّة رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فسأله ابن الكواء عن قوله تعالى ﴿والذاريات﴾ الخ.

(٢) رواه الحافظ البزار.

تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عزّ وجلّ على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صدق، ﴿وإن الدين﴾ وهو الحساب ﴿لواقع﴾ أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء،[1] وقال الضحاك: الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك، وعن أبي صالح ﴿ذات الحبك﴾ الشدة، وقال خصيف ﴿ذات الحبك﴾ ذات الصفاقة، وقال الحسن البصري: ﴿ذات الحبك﴾ حبكت بالنجوم، وقال عبدالله بن عمرو ﴿والسماء ذات الحبك﴾ يعني السماء السابعة وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالكواكب الزاهرات. وقوله تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿لفي قول مختلف﴾ مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع، وقال قتادة: ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، ينقاد له ويضل بسببه من هو مأفوك ضال. غِمْر لا فهم له. قال ابن عباس ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ يضل عنه من ضل، وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به، وقوله تعالى: ﴿قتل الخراصون﴾ قال مجاهد: الكذابون، وهي مثل التي في عبس، ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون، وقال ابن عباس ﴿قتل الخراصون﴾ أي لعن المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً، وشكاً واستبعاداً قال الله تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ قال ابن عباس: يعذبون، قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون: ﴿يفتنون﴾ يحرقون ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

* إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ
﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ
﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عزّ وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وقوله تعالى: ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾، قال ابن جرير:

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة وغيرهم.

أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿في جنات وعيون﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿محسنين﴾ كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾، ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال جلّ وعلا: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾. اختلف المفسرون في ذلك على قولين: **أحدهما**: أن (ما) نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً؛ وقال قتادة: قلّ ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عزّ وجلّ، إما من أولها أو من وسطها، وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، **والقول الثاني**: أن (ما) مصدرية تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفةٌ لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ». وقال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وروى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام»[1]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾، قال مجاهد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾، وقد ثبت في الصحاح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال ﴿وفي أموالهم حق﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم، أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[2]. وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

رضي الله عنها: هو المحارب الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء: المحروم المحارف، وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»(١). وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بآفة أو نحوها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد، والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم، في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، ثم قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ يعني المطر ﴿وما توعدون﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة: أن ما وعدهم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه إن هذا لحقّ كما أنك ههنا. وعن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا»(٢).

﴿۞ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر، فقوله: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿قوم منكرون﴾

(١) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر.

(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.

وذلك أن الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال ﴿ قوم منكرون ﴾. وقوله عزّ وجل: ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿ فجـاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله، وفي الآيـة الأُخْرى: ﴿ فما لبث أن جـاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على الرَّضْف[1] ﴿ فقربه إليهم ﴾ أي أدناه منهم، ﴿ قال ألا تأكلون ﴾؟ تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجلٌ فتيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ ألا تأكلون ﴾؟ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. وقوله تعالى: ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ البشارة له بشارة لها، لأن الولد منهما فكل منهما بشر به، وقوله تعالى: ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة[2]، وهي قولها ﴿ يا ويلتا ﴾ ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها، قال ابن عباس: لطمت أي تعجباً، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾؟ أي ما شأنكم، وفيم جئتم؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة ﴾ أي معلمة، ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾.

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ

(١) الحجارة المحماة.

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم.

عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فتولى بركنه﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه بـه موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً، قال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فتولى بركنه﴾ أي بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ والمعنى الأول قوي، ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به، من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم﴾ أي ألقيناهم ﴿في اليم﴾ وهو البحر، ﴿وهو مليم﴾ أي وهو ملوم جاحد، فاجر معاند. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ولهـذا قال تعالى: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾ أي مما تفسده الريح ﴿إلا جعلتـه كالرميم﴾ أي كالشيء الهالك البـالي، وقـد ثبت في الصحيح: «نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور» ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي من هرب ولا نهوض، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العـالم العلوي والسفلي: ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً، ﴿بأيد﴾ أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿وإنا لموسعون﴾ أي قد وسعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فنعم الماهدون﴾ أي وجعلناهـا مهداً لأهلها، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿ففروا إلى الله﴾ أي

الجأوا إليه واعتمدوا عليه في أموركم عليه، ﴿ إني لكم منه نذير مبين ◦ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أتواصوا به ﴾ ؟ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ ، أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، قال الله تعالى: ﴿ فتول عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد، ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعني لا نلومك على ذلك، ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال جلّ جلاله: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال ابن عباس: ﴿ إلا ليعبدون﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أنس إلا للعبادة . وقوله تعالى: ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ ◦ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿ إني أنا الرزاق ذو القوة المتين﴾[1] ، ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي: « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »[2] .

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى: « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » . وقوله تعالى: ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً﴾ أي نصيباً من العذاب ، ﴿ مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ ذلك فإنه واقع لا محالة ، ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة .

[آخر تفسير سورة الذاريات ، ولله الحمد والمنة]

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن غريب .

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ .

قال شعبة[١] بن الحجاج، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع عليا وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبى بزَّة، عن أبى الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الريح [قال][٢] : ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب. [قال][٣] : ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾؟ قال: السفن. [قال][٤]: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة[٥].

وقد روى فى ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبى سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ قال: هى الملائكة، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿ الْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ قال: هى السفن، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل فى بيت، فلما برأ[٦] [دعا به و][٧]ضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا. فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس.

(١) فى أ: «سعيد». (٢-٤) زيادة من م.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٥) عن محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٦) فى م: «برد». (٧) زيادة من م،أ.

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبى سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث[١].

قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر[٢]، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة فى ترجمة صبيغ مطولة[٣]. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسى لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ المزْنُ تَحْمِلُ عَذْبا زُلالا[٤]

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور ـ كما تقدم ـ: أنها السفن، تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هى النجوم تجرى يسرا[٥] فى أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك[٦]، وأبو صالح، والسدى، وقتادة، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاك، والمِنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق [طرائق][٧]، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك» يعنى بالحبك: الجعودة[٨].

وعن أبى صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٢): «فيه أبو بكر بن أبى سبرة، وهو متروك».
(٢) فى م: «مع التميمى عمر».
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٠) «القسم المخطوط».
(٤) البيت فى سيرة ابن هشام (١/ ٢٣١). (٥) فى أ: «سيراً». (٦) فى م: «وابن مالك».
(٧) زيادة من م، أ.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٨) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤١٠) من طريق إسماعيل بن علية به.

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبى الجَعْد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن عمرو البكالى، عن عبدالله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعنى: السماء السابعة.

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شىء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما[1]، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفى قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفى قول مختلف،[يعنى][2] ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غَمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ .إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ـ ١٦٣].

قال ابن عباس، والسدى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ ـ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] ،والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون.

وهكذا كان معاذ، رضى الله عنه، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون [قال مجاهد][3]: كما

---

(١) فى م،أ: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م،أ.

يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعى، وزيد بن أسلم، وسفيان الثورى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله[1] من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أى: قبل أن يفرض[2] عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضا. ثم روى عن ابن حميد، حدثنا مهْران، عن سفيان، عن أبى عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح[3] عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبى شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبى عمر البزار، عن مسلم[4] البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذى فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم[5]، أى: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله[6]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بيَّن إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن

---

(١) فى م: «ربهم». (٢) فى م: «تفرض». (٣) فى م: «لا يصح».
(٤) فى م: «عن أبى مسلم». (٥) فى م: «الله». (٦) فى م: «وقولهم».

تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى[1] الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون[2] بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُلٍ كذاب، فكان أول ماسمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام»[4].

وقال مَعْمَر فى قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان[5] الزهرى والحسن يقولان:

---

(١) فى م: «إلى». (٢) فى م: «فيكذبون».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٣٣٤).
قال الترمذى: «حسن صحيح».

(٤) المسند (٢/ ١٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ولعل تحسين الحافظ الهيثمى لحديث ابن لهيعة لأنه قد توبع: تابعه عبد الله بن وهب ـ روايته عن ابن لهيعة صحيحة ـ أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (١٠٣) «الجزء المفقود».

(٥) فى م: «قال».

كانوا كثيرا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ماينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿والمسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار فى صلاة فهو أحسن. وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»(١).

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم(٢) بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ(٣)﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذى يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن على قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثورى، به(٤) ثم أسنده من وجه آخر عن على بن أبى طالب(٥). وروى من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعا(٦).

وأما ﴿الْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨).

(٢) فى م، أ: «وصفهم». (٣) فى م ، أ: ﴿حق للسائل والمحروم﴾.

(٤) المسند (١/ ٢٠١) وسنن أبى داود برقم (١٦٦٥).

(٥) سنن أبى داود برقم (١٦٦٦).

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٣) من طريق سليمان الدمشقى عن عثمان بن فايد عن عكرمة بن عمار عن الهرماس مرفوعاً به وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف.

وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعى، ونافع ـ مولى ابن عمر ـ وعطاء ابن أبى رباح ﴿الْمَحْرُومِ﴾: المحارف.

وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومِ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»(١).

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان فى صحيحيهما من وجه آخر(٢).

وقال سعيد بن جبير: هو الذى يجىء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز فى طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.

وقال الشعبى: أعيانى أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: [هو] (٣) الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه (٤) بآفة أو نحوها.

وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥).

وهذا يقتضى أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هى مكية شاملة لما بعدها.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم (٦) فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾: قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٥) وسيأتى موصولاً.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩) من طريق شريك بن عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً.

(٣) زيادة من م.

(٤) فى م: «أو ثمرة».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٢٥).

(٦) فى م، أ: «أجسادهم».

ومجاهد، وغير واحد.

وقال سفيان الثورى: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إنى [١] أرى رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟ فدخل خربة فمكث [فيها] [٢] ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بدَوْخَلَة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما [٣].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضى الله عنه، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قال مسدد، عن ابن أبى عَدِىّ، عن عَوْف، عن الحسن البصرى قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلاً [٤].

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾.

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر» [٥] أيضا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

---

(١) فى م: «لا أرى رزقى». (٢) زيادة من م. (٣) فى م: «بينهما الموت».

(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٢٧).

(٥) تقدم تفسير ذلك فى سورة هود عند الآيات: ٦٩ ـ ٧٣، وكذلك فى سورة الحجر عند الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩] أى: مشوى على الرَّضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم، ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾: تلطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه [(١)] من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة [(٢)] وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل ،وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[(٣)].

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى، وهو[(٤)] قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى: فى صرخة عظيمة [(٥)]ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثورى، والسدى، وهى قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾. ﴿ فَصَكَّتْ[(٦)] وَجْهَهَا﴾ أى: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن [(٧)] سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أى تعجبا كما تتعجب [(٨)] النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم][(٩)]، وقد كنتُ فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[(١٠)]﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ

(١) فى م: «بطعام». (٢) فى أ: «فى سرعة».
(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «جلاء الأفهام» (ص ١٨١ ـ ١٨٤) فى الكلام على آداب الضيافة فى هذه الآيات.
(٤) فى م: «وهى». (٥) فى م، أ: «وعيطة». (٦) فى م: «وصكت».
(٧) فى م: «وأبو». (٨) فى م: «يتعجب». (٩) زيادة من أ.
(١٠) فى م: «العليم الحكيم» وهو خطأ .

الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧)﴾ .

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه [الآية](١) من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا (٢) محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [آية](٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه (٤) به موسى من الحق المبين، استكبارا

---

(١) زيادة من م.
(٢) في م، أ: «وجعل».
(٣) زيادة من م.
(٤) في م: «جاء».

وعنادا.

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدُو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].

والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أى: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أى: كالشىء الهالك البالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، حدثنى عبد الله ـ يعنى: ابن عياش[(١)] ـ القتبانى، حدثنى عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفِى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: أى رَبِّ، أرسل عليهم [من][(٢)] الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل [عليهم][(٣)] بقدر خاتم. فهى التى يقول[(٤)] الله فى كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

هذا الحديث رفعه منكر[(٥)]، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين[(٦)] أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[(٧)].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم.

---

(١) فى م: «ابن عباس». (٢، ٣)زيادة من م. (٤) فى م، أ: «قال».

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) وابن منده فى كتاب التوحيد (١/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن وهب بأطول منه.

وقال ابن منده: إسناده متصل مشهور ورواته مصريين. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبى بقوله: «بل منكر، فيه عبد الله بن عياش، ضعفه أبو داود، وعند مسلم أنه ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٦) فى م: «اللذين».

(٧) صححه مسلم برقم (٩٠٠).

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ .

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفا [محفوظا][(١)] رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثورى، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هى، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهدا لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث][(٢)] والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: [و][(٣)] لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ

---

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م.

أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾! قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إنما تنتفع [(١)] بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى، لا لاحتياجى إليهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها[(٢)] وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ قال[(٣)] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد[(٤)]، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأنى رسول الله [(٥)] ﷺ: «إنى لأنا الرزاق ذو القوة المتين».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث إسرائيل، وقال الترمذى: حسن صحيح[(٦)].

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران ـ يعنى ابن زائدة بن نَشِيط ـ عن أبيه، عن أبى خالد ـ هو الوالبى ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: «يا ابن

---

(١) فى م، أ: «فإنما ينتفع».
(٢) فى م: «وكرها».
(٣) فى م: «وقال» .
(٤) فى أ: «زيد».
(٥) فى م: «النبى».
(٦) المسند (١/ ٣٩٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٢٧).

آدم، تَفَرّغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب(١).

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبى شُرَحْبِيل، سمعت حَبّة وسواء ابنى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ـ وقال أبو معاوية: يصلح شيئا ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»(٢). و[قد ورد](٣) فى بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبنى تجدنى؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء».

وقوله: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا**﴾ أى: نصيبا من العذاب، ﴿**مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ**﴾ أى: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع [بهم](٤) لا محالة ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ يعنى: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) المسند (٢/٣٥٨) وسنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧).

(٢) المسند (٣/٤٦٩).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من أ.

سورة الذاريات[1]

مكيّة، وهي ستّون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ① فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ② فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ③ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ④
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ⑥﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ أي: الرياحِ التي تذرو الترابَ وغيرَه، وقُرئ / بإدغام "التاء" في "الذال".[2] [١٢٧و]

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أي: السُّحبِ الحاملة للمطر، أو الرياحِ الحاملة للسحاب. وقُرئ: "وَقْرًا"[3] على تسمية المحمول بالمصدر.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي: السُّفنِ الجارية في البحر، أو الرياحِ الجارية في مهابّها، أو السُّحب الجارية في الجوّ بسَوق الرِّياح أو الكواكبِ الجارية في مجاريها ومنازلها، و﴿يُسْرًا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: جريًا ذا يُسْر.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ أي: الملائكةِ التي تقسِّم الأمور مِن الأمطار والأرزاق وغيرِها، أو السُّحب التي يقسِّم الله تعالى بها أرزاق العباد. وقد جُوِّز أن يراد بالكلّ الرياح تنزيلًا لاختلاف العنوان منزلةَ اختلاف الذات، فإنّها كما تذرو ما تذروه تُثير السَّحاب وتحمله، وتجري في الجوّ جريًا سهلًا وتقسِّم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار.[4]

فإن حُملت الأمور المُقسَم بها على ذواتٍ مختلفة فـ"الفاء" لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها مِن التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلّا فهي لترتيب

---

[1] س: والذاريات.

[2] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ١/٣٠٠، ٣٧٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٠.

ما صدر عن الريح مِن الأفاعيل، فإنّها تذرو الأبخِرة إلى الجوّ حتّى تنعقد سحابًا فتجري به باسطةً له إلى ما أُمِرت به فتقسِّم المطر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جواب للقسَم. وفي تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزٌ إلى شهادتها بتحقّق مضمون الجملة المُقسَم عليها مِن حيث إنّها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمَن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود. و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة. ووصفُ الوعد بالصدق كوَصْف العيشة بالرِّضا.[1] والدِّين: الجزاء، ووقوعُه: حصوله.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنه وقتادةُ وعكرمةُ: ذات الخَلْق المستوي، وقال سعيد بن جُبير: ذات الزينة، وقال مجاهد: هي المتقنةُ البنيانِ، وقال مقاتل والكلبي والضحّاك: ذات الطرائق.[2] والمراد إمّا الطرائق المحسوسة التي هي مَسير الكواكب، أو المعقولةُ التي يسلكها النُّظّار، أو النجوم فإنّ لها طرائقَ. وعن الحسن: حُبُكها: نجومها،[3] حيث تُزيّنها كما تُزيّن المَوشيَّ طرائقُ الوَشْي. وهي إمّا جمع "حِبَاك" أو "حَبيكة" / كـ"مِثال [١٢٧ظ]
ومُثُل" و"طَريقة وطُرُق". وقُرئ: "الحُبْك" بوزن "القُفْل"، و"الحِبْك" بوزن "السِلْك"، و"الحَبَك" كـ"الجَبَل"، و"الحُبَك" كـ"البُرَق"، و"الحِبَك" كـ"النِّعَم"، و"الحِبِك" كـ"الإبِل".

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: متخالِف متناقض، وهو قولهم في حقّه عليه السلام تارةً: شاعر، وأخرى: ساحر، وفي شأن القرآن الكريم تارةً: شِعر، وتارة: سِحر، وأخرى: أساطير. وفي هذا الجواب تأييد لكون ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ عبارةً عن الاستواء كما يلوِّح به ما نُقل عن الضحّاك أنّ قول الكفرة لا يكون مستويًا،

---

[1] يعني في قوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩]، فهو مِن الإسناد المجازي.

[2] هذه الأقوال الأربعة عنهم في جامع البيان للطبري، ٤٨٦/٢١-٤٨٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧-٣٧٢.

[3] مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٨٧/٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

إنّما هو متناقض مختلِف.[١] وقيل: النكتة في هذا القسَم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف غاياتها.[٢] وليس بذاك.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرَف عن القرآن أو الرسول صلّى الله عليه وسلّم مَن صُرف؛ إذ لا صَرفَ أفظعُ منه وأشدّ. وقيل: يُصرَف عنه مَن صُرف في عِلم الله تعالى وقضائه. ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلِف، على معنى: يصدر إفكُ مَن أُفِك عن ذلك القول.[٣] وقُرئ: "مَنْ أَفَكَ"[٤] أي: مَن أَفَك الناس، وهم قريش حيث كانوا يصدُّون الناس عن الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس، ١٧/٨٠]، وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثمّ جرى مَجرى "لُعِن". والخرّاصون: الكذّابون المقدِّرون ما لا صحّةَ له، وهم أصحابُ القول المختلِف، كأنّه قيل: قُتل هؤلاء الخرّاصون. وقُرئ: "قَتَلَ الخَرَّاصِينَ"،[٥] أي: قَتَل الله.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ مِن الجهل والضلال ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عمّا أُمروا به.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى وقوع يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقةً؛ بل بطريق الاستعجال استهزاءً. وقُرئ: "إِيَّانَ"[٦] بكسر "الهمزة".

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جواب للسؤال، أي: يقع يومَ هم على النار يُحرَقون ويعذَّبون. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: هو يومٌ هم... إلخ، والفتحُ لإضافته إلى غير متمكِّن،[٧] / ويؤيِّده أنّه قُرئ بالرفع.[٨] [١٢٨و]

---

[١] مرويّ عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٣] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

[٧] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٢.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: مقولًا لهم هذا القول. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ داخلةٌ تحت القول المضمر، أي: هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء. ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلًا مِن ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بتأويل العذاب و﴿ٱلَّذِى﴾ صفته.[1]

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لا يبلغ كُنهها ولا يُقادَر قَدْرها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لِما أعطاهم راضين به على معنى أنَّ كلّ ما آتاهم حَسَن مَرضيّ يُتلقّى بحُسن القبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ أي: لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي، فلذلك نالوا ما نالوا مِن الفوز العظيم.

ومعنى الإحسان بالإجمال ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»،[2] وقد فُسِّر بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة مِن الليل، على أنّ ﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، أو كانوا يهجعون هجوعًا قليلًا، على أنّه صفة للمصدر، و﴿مَا﴾ مزيدة في الوجهين. ويجوز أن تكون مصدريّة أو موصولة مرتفعة بـ﴿قَلِيلًا﴾ على الفاعليّة، أي: كانوا قليلًا مِن الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه.[3]

وفيه مبالغاتٌ في تقليل نومهم واستراحتهم: ذِكرُ القليل، والليلُ الذي هو وقت الراحة، والهُجوعُ الذي هو الفِرار مِن النوم، وزيادةُ ﴿مَا﴾. ولا مَساغ لجعل ﴿مَا﴾ نافيةً على معنى أنّهم لا يهجعون مِن الليل قليلًا؛ بل يُحيونه كلّه لِما أنّ "ما" النافيةَ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.[4]

---

١ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.
٢ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).
٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: هم مع قِلّة هُجوعهم وكثرةِ تهجّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنّهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم. وفي بناء الفعل على الضمير إشعارٌ بأنّهم الأحقّاء بأن يُوصَفوا بالاستغفار كأنّهم المختصّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيب وافر يستوجبونه / على أنفسهم تقرّبًا إلى الله [١٢٨ظ]
تعالى[1] وإشفاقًا على الناس، ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفِّف الذي يحسبه الناس غنيًّا فيُحرَم الصدقةَ.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائلُ واضحة على شئونه تعالى على التفصيل مِن حيث إنّها مَدحوّة كالبِساط الممهَّد، وفيها مسالكُ وفِجاجٌ للمتقلِّبين في أقطارها والسالكين في مناكبها، وفيها سهلٌ وجبل، وبَرّ وبحر، وقِطَعٌ متجاورات، وعيونٌ متفجّرة ومعادنُ مُفْتَنَّةٌ، وأنّها تُلقَح بألوان النبات وأنواعِ الأشجار وأصنافِ الثِّمار المختلفة الألوانِ والطعومِ والروائحِ، وفيها دوابُّ مُنبثّة قد رُتِّب كلُّها ودُبِّر لمنافعِ ساكنيها ومصالحهم في صحّتهم واعتلالهم.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم آياتٌ؛ إذ ليس في العالم شيء إلّا وفي الأنفس له نظيرٌ يدلّ دلالتَه على ما انفرد به مِن الهيئات النافعة، والمناظرِ البهيّة، والتركيباتِ العجيبة، والتمكّنِ مِن الأفعال البديعة، واستنباطِ الصنائع المختلفة، واستجماعِ الكمالات المتنوّعة. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا تنظرون فلا تُبصرون بعين البصيرة.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، وبـ"الرِّزق" المطر،[2] فإنّه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثواب؛ لأنّ الجنّة في السماء السابعة، أو لأنّ الأعمال وثوابها مكتوبة

---

[1] م – تعالى.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٣.

مقدَّرة في السماء. وقيل: إنّه مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ على أنّ الضمير لِـ﴿مَا﴾، وأمّا على الأوّل فإمّا له وإمّا لِما ذُكر مِن أمر الآيات والرزق،[1] على أنّه مستعار لاسم الإشارة.

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: كما أنّه لا شكّ لكم في أنكم تنطِقون ينبغي ألّا تشكُّوا في حقّيّته. ونصبه على الحاليّة مِن المستكنّ في "الحقّ"، أو على أنه وصف لمصدر محذوف، أي: إنّه لَحَقّ حقًّا مثلَ نطقكم. وقيل: إنّه مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن،[2] وهو ﴿مَا﴾ إن كانت عبارةً عن شيء، و﴿أَنَّ﴾ بما في حيّزها إن جُعلت زائدة. ومحلُّه الرفع على أنّه صفةُ ﴿لَحَقٌّ﴾، ويؤيِّده القراءة بالرفع.[3]

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[١٢٩و] / ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تفخيم لشأن الحديث وتنبيهٌ على أنّه ليس ممّا عَلِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بغير طريق الوحي. و"الضيفُ" في الأصل مصدرُ "ضافَه"، ولذلك يُطلَق على الواحد والجماعة كـ"الزَّوْر" و"الصَّوْم". وكانوا اثني عشرَ مَلَكًا، وقيل: تسعةً عاشرهم جبريلُ. وقيل: ثلاثة جبريلُ وميكائيلُ ومَلَك آخرُ معهما عليهم السلام.[4] وتسميتُهم ضيفًا لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيمُ عليه السلام، أو لأنّهم كانوا في حُسبانه كذلك.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: المُكرَّمين عند الله تعالى، أو عند إبراهيمَ؛ حيث خَدَمهم بنفسه وبزوجته.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث أو لِما في الضيف مِن معنى الفعل، أو ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إن فُسِّر بإكرام إبراهيمَ. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نُسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، عَدَل به إلى الرفع بالابتداء

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٢٢.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٣.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٧.
٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٤.

للقصد إلى الثبات والدوام حتّى يكون تحيّته عليه السلام أحسَنَ مِن تحيّتهم. وقُرئا مرفوعين،[١] وقُرئ: "سِلْمٌ"،[٢] وقُرئ منصوبًا،[٣] والمعنى واحد.

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو عَلَم للإسلام، أو لأنّهم ليسوا ممّن عهدهم مِن الناس، أو لأنّ أوضاعهم وأشكالهم خلافُ ما عليه الناس، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله في نفسه مِن غير أن يُشعرهم بذلك، لا أنّه خاطبهم به جَهْرًا أو سألهم أن يعرّفوه أنفسَهم كما قيل، وإلّا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصدَّ عليه السلام لمقدِّمات الضيافة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم على خُفيةٍ مِن ضيفه، فإنّ مِن أدب المُضيف أن يُبادِرَ بالقِرى ويُبادِر به حِذارًا مِن أن يكفّه ويعذِره، أو يصير منتظِرًا. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ فصيحة مُفصِحة عن جُمل قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[٤] ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فذَبح عِجلًا فحَنَذه فجاء به. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ/ إِلَيۡهِمۡ﴾ بأن وَضَعه لديهم حسبما هو المعتاد ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إنكارًا لعدم تعرّضهم للأكل. [١٢٩ظ]

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ﴾ أضمر في نفسه ﴿خِيفَةٗ﴾ لتوهُّم أنّهم جاءوا للشرّ، وقيل: وقع في قلبه أنّهم ملائكة جاءوا للعذاب.[٥] ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ قيل: مَسَح جبريلُ عليه السلام العِجل بجناحه فقام يدرُج حتى لَحِق بأمّه فعرفهم وأَمِن منهم.[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البَرَهسم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

٤ م س: فقلنا.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.

٦ مرويّ عن ابن عون بن شدّاد في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ﴾ [الصافات، ١١٢/٣٧]، أي: بواسطتهم. ﴿بِغُلَـٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ عند بلوغه واستوائه.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم. ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحة مِن "الصرير"، ومحلُّه النصب على الحاليّة أو المفعوليّة، إن جُعل ﴿أَقْبَلَتِ﴾ بمعنى "أخذتْ"، كما يقال: أقبَلَ يشتِمُني. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمَتْه مِن الحياء لِما أنّها وجدتْ حرارةَ دم الطَّمْث. وقيل: ضربَتْ بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجِّب.[1] ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقرٌ فكيف ألِدُ؟

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنّما نحن معبّرون نخبِرك به عنه تعالى، لا أنّا نقوله مِن تِلقاء أنفسنا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ[2] ٱلْعَلِيمُ[3]﴾ فيكون قوله حقًّا وفعلُه متقنًا لا محالةَ. رُوِي أنّ جبريلَ عليه السلام قال لها: انظري إلى سقف بيتك فنظرتْ فإذا جذوعه مُورِقة مُثمِرة.[4] ولم يكن هذه المفاوضة مع سارةَ فقط؛ بل مع إبراهيمَ عليه السلام أيضًا حسبما شُرح في سورة الحجر،[5] وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما ذُكر هناك، كما أنّه لم يُذكَر هناك سارةُ اكتفاءً بما ذُكر ههنا وفي سورة هود.[6]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ عليه السلام لمّا عَلِم أنّهم ملائكة أرسِلوا لأمر: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسِلتم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.
[2] م س: العليم.
[3] م س: الحكيم.
[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.
[5] الحجر، ٥٦/١٥.
[6] هود، ٦٩/١١-٧٣.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها، حسبما فُصِّل في سائر السور الكريمة. ﴿حِجَارَةً مِن طِينٍ﴾ أي: طين متحجِّر هو السجِّيل ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مرسلةً مِن "أسَمْتُ الماشية"، أي: أرسلتُها، أو مُعْلَمةً مِن "السُّومَة" وهي العلامة، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[١] ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المُجاوِزين الحدَّ في الفجور.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾... إلى آخره حكايةٌ مِن جهته تعالى لِما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ عليهم السلام مِن الكلام، و"الفاء" فصيحةٌ مُفصِحة عن جُمَل قد حُذِفت ثقةً بذِكرها في مواضع أخرَ، كأنّه قيل: فباشَروا ما أُمِروا به ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾... إلخ [هود، ٨١/١١] ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قرى قوم لوط، وإضمارُها بغير ذِكر لشُهرتها، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممّن آمن بلوط.

﴿فَمَا وَجَدْنَا / فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غيرَ أهلِ بيت ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قيل: هم [١٣٠و]
لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجَوا ثلاثةَ عشرَ.[٢]

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿ءَايَةً﴾ علامةً دالّةً على ما أصابهم مِن العذاب. قيل: هي تلك الأحجار، أو صخر منضود فيها، أو ماء مُنتِن.[٣] ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم ورقّة قلوبهم دون مَن عداهم مِن ذوي القلوب القاسية، فإنّهم لا يعتدُّون بها ولا يعدُّونها آيةً.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ أو على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى وجعلنا في موسى آيةً، كقول مِن قال:

---

[١] في تفسير هود، ٨٣/١١.

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

عَـلَـفْـتُـهـا تِـبـنًـا ومـــاءً بــــاردًا[١]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ﴾ قيل: هو منصوب بـ﴿ءَايَةً﴾. وقيل: بمحذوف، أي: كائنةً وقت إرسالنا. وقيل: بـ﴿تَرَكْنَا﴾.[٢] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو ما ظهر على يديه مِن المعجزات الباهرة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان به وازورّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء، ٨٣/١٧]. وقيل: فتولّى بما يتقوّى به مِن مُلكه وعساكره،[٣] فإنّ الرُّكن اسم لِما يركَن إليه الشيءُ. وقُرئ: "بِرُكُنِهِ"[٤] بضمّ "الكاف". ﴿وَقَالَ سَـٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنّه نسَب ما ظهر على يديه عليه السلام مِن الخوارق العجيبة إلى الجنّ، وتردّد في أنّه حصَل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وفيه مِن الدلالة على غاية عِظَم شأن القدرة الربّانيّة ونهاية قماءة فرعونَ وقومِه ما لا يخفى. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلام عليه مِن الكفر والطغيان، والجملة حال مِن الضمير في ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ﴾.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وُصفت بالعُقم؛ لأنها أهلكَتْهم وقطعت دابرهم، أو لأنّها لم تتضمّن خيرًا ما مِن إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي النّكباء[٥] أو الدَّبور[٦] أو الجَنوب.[٧]

---

[١] في هامش م: تمامه:
حـتّـى غـــدَتْ هـمّـالـةً عـيـناهـا
المصراع الأوّل مخروم، أي: وعلفتَها. «منه». | ولا يُعرف قائله. وقال الفرّاء قبل إنشاده في معاني القرآن، ١٤/١ (البقرة، ٧/٢): «وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه». وليس في ديوان بني أسد؛ وهو في تفسير الطبري، ٢٧١/١ (البقرة، ٧/٢)؛ والصحاح للجوهري، «علف»، «قلد»؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤. وتفصيل الكلام على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ١٣٩/٣-١٤١، وقال في نسبته: «ورأيتُ في حاشية نسخة صحيحة مِن الصحاح أنّه لذي الرُّمّة، ففتشت ديوانه فلم أجده فيه».

[٢] هذه الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٩٢/١٨.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[٥] النكباء: كلّ ريح مِن الرِّياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين. لسان العرب لابن منظور، «نكب».

[٦] الدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا والقَبول، وهي ريح تهبّ مِن نحو المغرب. لسان العرب لابن منظور، «دبر».

[٧] الجنوب: ريح تخالف الشَّمال تأتي عن يمين القِبلة. لسان العرب لابن منظور، «جنب».

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: جرَتْ عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو كلّ ما رمّ وبليَ وتفتّت مِن عَظْم أو نبات أو غيرِ ذلك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

/ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود، ٦٥/١١]. قيل: قال لهم صالحٌ عليه السلام: «تُصبح وجوهكم غدًا مصفرَّةً، وبعد غدٍ محمرَّةً، واليومَ الثالث مسودَّةً، ثمّ يُصبّحكم العذاب».[1] [١٣٠ظ]

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فاستكبروا عن الامتثال به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قيل: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالحٌ عليه السلام مِن اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجّاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولمّا كان ضحوة اليوم الرابع تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا. وقُرئ: "الصَّعْقَةُ"[2] وهي المرّة مِن الصَّعْق. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها ويُعاينونها.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧] ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، فإنّ ما قبله يدلّ عليه، أو "واذكرْ". ويجوز أن يكون معطوفًا على محلّ ﴿فِي عَادٍ﴾،[3] ويُؤيّده القراءة بالجرّ.[4] وقيل: هو معطوف على مفعول ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾.[5] ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هؤلاء المُهلَكين، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه مِن الكفر والمعاصي.

---

١ مرويّ عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم، ١٥١٥/٥ (الأعراف، ٧٧/٧).

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٣ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٥/٣.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٩٩/١٨.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٣٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لَقادرون مِن "الوُسع" بمعنى الطاقة، والمُوسِع: القادر على الإنفاق، أو لمُوسعون السماءَ، أو ما بينها وبين الأرض، أو الرزقَ.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقرُّوا عليها ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: مِن الأجناس ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: نوعين ذكرًا وأنثى. وقيل: متقابلَين: السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك.[1] ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه كي تتذكَّروا فتعرِفوا أنّه خالقُ الكلّ ورازقه وأنّه المستحقّ للعبادة وأنّه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

[١٦٨و] وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / مقدَّرٌ بقول خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين. و"الفاء" إمّا لترتيب الأمر على ما حُكي مِن آثار غضبه الموجِبة للفرار منها، ومِن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها، كأنّه قيل: قلْ
[١٣١و] لهم: إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شئونه بالإيمان والطاعة / كي تنجوا مِن عقابه وتفوزوا بثوابه، وإمّا للعطف على جملة مقدَّرة مترتِّبة على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنّه قيل: قلْ لهم فتذكَّروا ففرُّوا إلى الله... إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أو لوجوب الامتثال به، فإنّ كونه عليه السلام منذِرًا منه تعالى موجِب عليه عليه السلام أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به، أي: إنّي لكم مِن جهته تعالى

[1] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٣٧٩.

منذرٌ بَيِّنٌ كونُه منذرًا منه تعالى، أو مظهرٌ لِما يجب إظهاره مِن العذاب المُنذَرِ به. وفي أمره تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى مِن عقابه وتعليلِه بأنّه عليه السلام ينذرهم مِن جهته تعالى لا مِن تلقاء نفسه وعدٌ كريم بنجاتهم مِن المهروب وفوزِهم بالمطلوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ موجِب للفرار مِن سبب العقاب بعد الأمر بالفرار مِن نفسه، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: مِن الجعل المنهيّ عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإنّ تعلّق كلمة ﴿مِنْ﴾ بالإنذار مع كون صلته "الباء" بتضمينه معنى الإفرارِ، يقال: "فرّ منه"، أي: هرَب و"أَفَرَّهُ غيره" كأنّه قيل: وفِرُّوا مِن أن تجعلوا معه تعالى اعتقادًا أو قولًا إلهًا آخرَ، وفيه تأكيدٌ لِما قبله مِن الأمر بالفِرار مِن العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريق التكرير، كما قيل: بل بالنهي عن سببه وإيجابِ الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر مثلُ ما ذُكِر مِن تكذيبهم الرسولَ وتسميتِهم له ساحرًا أو مجنونًا، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾... إلخ، تفسيرٌ له، أي: ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ مِن رسل الله ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقّه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ولا سبيلَ إلى انتصاب الكاف بـ﴿أَتَى﴾ لامتناع عمل ما بعد ﴿مَا﴾ النافية فيما قبلها.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ إنكار وتعجيب مِن حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد مِن العقلاء فضلًا عن التفوّه بها، أي: أأوصى بهذا القول بعضُهم بعضًا حتّى اتّفقوا عليه؟

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن كون مدار اتّفاقهم على الشرّ تواصيَهم بذلك، وإثباتٌ لكونه أمرًا / أقبحَ مِن التواصي وأشنعَ منه مِن الطغيان الشامل [١٣١ظ]
للكلّ الدالّ على أنّ صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كلّ واحد منهم بمقتضى جبلّته الخبيثة لا بموجَب وصيّة مَن قبلهم بذلك مِن غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن جدالهم فقد كرّرتَ عليهم الدعوةَ فأبَوا إلّا الإباءَ

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولّي بعد ما بذلتَ المجهود وجاوزتَ في الإبلاغ كل حدّ معهود.

﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: افعل التذكير والموعظة ولا تَدَعْهُما بالمرّة، أو فذكِّرهم، وقد حُذف الضمير لظهور الأمر. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين قدّر الله تعالى إيمانهم، أو الذين آمنوا بالفعل فإنّها تزيدهم بصيرةً وقوّةً في اليقين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استئناف مؤكِّد للأمر مقرِّر لمضمون تعليله، فإنّ كون خَلْقهم مُغَيًّا بعبادته تعالى ممّا يدعوه عليه السلام إلى تذكيرهم، ويُوجِب عليهم التذكّر والاتّعاظ. ولعلّ تقديمَ خَلْقِ الجنّ في الذِّكر لتقدّمه على خَلْق الإنس في الوجود.

ومعنى خَلْقهم لعبادته تعالى خَلْقُهم مستعِدِّين لها ومتمكِّنين منها أتمَّ استعداد وأكملَ تمكُّن مع كونها مطلوبةً منهم، بتنزيل ترتُّب الغاية على ما هي ثمرة له منزلةَ ترتُّب الغرض على ما هو غرض له، فإنّ استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة ممّا لا نزاع فيه قطعًا، كيف لا، وهي رحمة منه تعالى وتفضُّل على عباده، وإنّما الذي لا يليق بجنابه عزّ وجلّ تعليلُها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل، بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل مِن كلّ وجه.

وأمّا بمعنى نهاية كماليّة يُفضي إليها فعلُ الفاعلِ الحقّ فغيرُ منفيّ مِن أفعاله تعالى؛ بل كلّها جارية على ذلك المنهاج، وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة. ويكفي في تحقّق معنى التعليل -على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة- هذا المقدار، وبه يتحقَّق مدلول / "اللام". [١٣٢و]

وأمّا إرادة الفاعل لها فليست مِن مقتضيات "اللام" حتّى يلزم مِن عدم صدور العبادة عن البعض تخلُّف المراد عن الإرادة، فإنّ تعوّق البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضُد المبادي وتآخُذ المقدِّمات الموصِلة إليها لا يمنع كونها

غايةً، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم، ١/١٤] ونظائره.

وقيل: المعنى إلّا ليؤمَروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة، ٣١/٩]. وقيل: المراد سعداء الجنسين، كما أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧] أشقياؤهما،[١] ويعضده قراءة مَن قرأ: "وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ".[٢]

وقال مجاهد واختاره البغوي:[٣] معناه: إلّا ليعرفونِ،[٤] ومدارُه قوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يحكيه عن ربّ العزّة: «كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف فخلَقتُ الخلق لأعرَف».[٥] ولعلّ السرَّ في التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريقة إطلاق اسم السبب على المسبَّب التنبيهُ على أنّ المعتبر هي المعرفة الحاصلةُ بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعاليًا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، أي: ما أريدُ أن أصرِّفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم؛ بل أتفضّل عليهم برزقهم وبما يُصلِحهم ويُعيِّشهم مِن عندي فليَشتغلوا بما خُلِقوا له مِن عبادتي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كلّ ما يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويحٌ بأنّه غنيٌّ عنه. وقُرِئ: "إِنِّي أَنَا الرَّزَاقُ".[٦] ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ بالرفع على أنّه نعت لـ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

٣ هو الحسين بن مسعود بن محمّد الفرّاء البغوي، أبو محمّد (ت. ٥١٠هـ/١١١٧م). نسبته إلى بَغَا مِن قرى خراسان بين هَراة ومرو. وكان يلقّب بمحيي السنّة وبركن الدّين، الفقيه الشافعي المحدّث المفسّر. كان سيّدًا إمامًا عالمًا علّامة زاهدًا قانعًا باليسير، وكان أبوه يعمل الفِراء ويبيعها. بُورك له في تصانيفه، ومِن أشهرها: معالم التنزيل، وشرح السنّة، والمصابيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٣٩/١٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٩/٢.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٠/٧؛ والكلام عنه في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

٥ فتوح الغيب للطِّيبي، ٤٤٥/١٠ (الحج، ٦/٢٢)؛ تنزيه الشريعة لابن عرّاق، ١٤٨/١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

أو لـ﴿ذُو﴾، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمضمر. وقُرئ بالجرّ[١] على أنّه وصف
لـ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ على تأويل الاقتدار / أو الأَيْدِ.[٢] [١٣٢ظ]

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ٦٠﴾

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو وُضعوا مكانَ التصديق تكذيبًا، وهم أهل مكّة. ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا وافرًا مِن العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل أنصباء نظرائهم مِن الأمم المحكيّة، وهو مأخوذ مِن مُقاسَمة السُّقاة الماءَ بالذَّنوب وهو الدلوُ العظيم المملوء.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: لا يطلبوا منّي أن أعجِّل في المجيء به، يقال: "استعجله"، أي: حثّه على العجلة وأمَرَه بها، ويقال: "استعجله"، أي: طلب وقوعه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١/١٦]، وهو جواب لقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وُضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وإشعارًا بعلّة الحُكم. و"الفاء" لترتيب ثبوت الويلِ لهم على أنّ لهم عذابًا عظيمًا، كما أنّ "الفاء" الأولى لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك، و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ للتعليل، أي: يُوعَدونه مِن يوم بدر. وقيل: يوم القيامة،[٣] وهو الأنسب بما في صدر السورة الكريمة الآتية، والأوّل هو الأوفق لِما قبله مِن حيث إنّهما مِن العذاب الدنيوي.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ "والذاريات" أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كلّ ريح هبّت وجرَت في الدنيا».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والزّعفراني وابن وردة وقتبة طريق المطرّز عن الكسائي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧١٥.

٢ الآدُ: الصُّلب والقوّة كالأيْد. قاموس. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أود».

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٠٨/٢٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ١٧٣/٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥١

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية، ستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾: الرياحِ تَذرو الترابَ وغيرَه ﴿ذَرْوًا﴾ مصدرٌ ـ ويُقال: تَذرِيه ذَرْيًا: تهُبُّ به ـ ٢ ـ ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾: السُّحبِ تحمل الماء ﴿وِقْرًا﴾: ثِقْلاً مفعولُ الحاملات، ٣ ـ ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾: السُّفنِ تجري على وجه الماء ﴿يُسْرًا﴾: بسُهولة، مصدرٌ في موضع الحال، أي: مُيسَّرةً، ٤ ـ ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكةِ تُقسِّم الأرزاق والأمطار وغيرها بين البِلاد والعِباد،.........................

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

قولُهُ: (ذَرْيًا) لعلَّ فائدةَ ذكرِهِ أنَّ ﴿الذَّارياتِ﴾ تحتملُ الواويَّةَ واليائيَّةَ.

قولُهُ: (ثِقْلاً) كذِبْحٍ؛ بمعنى: مذبوحٍ.

قولُهُ: (بسُهولَةٍ) أو سهلاً، صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: جرياً ذا يسرٍ.

قولُهُ: (المَلائِكَةُ) نقلَ الطِّيبيُّ[١] عن الزَّجَّاجِ: أنَّ المفسِّرينَ جميعاً يقولونَ بقولِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ. لما رُوِيَ أنَّه قالَ وهو على المنبرِ: سلُونِي قبلَ أنْ لا تسألُونِي، ولنْ تسألُوا بعدِي مثلِي، فقال ابنُ الكوَّاء: ما الذَّارياتُ؟ فقال: الرِّياحُ، قال: فالحاملات؟ قال: السَّحابُ، قال: فالجاريات؟ قال: الفُلكُ، قال: فالمقسِّماتُ؟ قالَ: الملائكةُ[٢] انتهى، ....

---

(١) انظر: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (١٥/ ٦) وكلام الطيبي مقتصر على العبارة الأولى، وأما من قوله: «لما روي أنه قال وهو على المنبر... إلخ» فهو من كلام الزمخشري في «الكشاف».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٣٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

٥ ـ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ ـ ما: مصدرية ـ أي: إن وعدَهم بالبعث وغيره ﴿لَصَادِقٌ﴾: لَوعدٌ صادق، ٦ ـ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾: الجزاءَ بعد الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لا محالة.

٧ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: جمع حَبِيكة كطريقة وطُرُق، أي: صاحبةِ الطُّرُق في الخِلقة كالطرق في الرمل، ٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ﴾ ـ يا أهل مكّة ـ في شأن النبيِّ والقُرآنِ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قيل: شاعرٌ ساحر كاهن، شِعرٌ سِحر كِهانة، ٩ ـ ﴿يُؤْفَكُ﴾: يُصرَف ﴿عَنْهُ﴾: عن النبيّ والقرآن، أي: عن الإيمان به، ﴿مَنْ أُفِكَ﴾: صُرِف عن الهِداية، في عِلم الله تعالى.

وقد جاءَ هكذا عن عُمَرَ مرفوعاً[1]، كما في «الدُّرِّ»[2]، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (﴿ما﴾ مَصْدَرِيَّةٌ) أو موصولةٌ.

قولُهُ: (لَوَعْدٌ صَادِقٌ) أي: ذو صِدقٍ، والجملةُ جوابٌ للقسمِ، كأنّه استدلَّ باقتدارِهِ على هذه الأشياءِ العجيبةِ على اقتدارِهِ على البعثِ الموعودِ.

قولُهُ: (لا مَحَالَةَ) حاصِلٌ أو نازِلٌ.

قولُهُ: (في الخِلقَةِ) أخرجَ أبو الشَّيخ: عن ابنِ عبَّاسٍ قال: ذاتِ البهاءِ والجمالِ؛ لأنَّ بُنيانَها كالبردِ المسلسلِ[3]، وأخرجَ عن الحسنِ قالَ: ذاتِ الخلقِ الحسنِ، مُحَبَّكةٍ بالنُّجومِ[4]، وأخرجَ عن أبي صالحٍ قالَ: ذاتِ الخلقِ الشَّديدِ[5]، كذا ذكرَهُ السُّيوطيُّ في «الهيئةِ السَّنيَّةِ»[6].

قولُهُ: (والقُرآنِ) أو القيامةِ.

قوله: (والقُرآنِ) الواوُ؛ بمعنى: أو.

قولُهُ: (أي: عَنِ الإِيمَانِ) والأظهرُ: أو عن الإيمانِ.

قولُهُ: (فِي عِلمِ اللهِ) وقضائِهِ.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٩٩) وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ من وجه من الوجوه إلا من هذا الوجه، وإنما أتى من أبي بكر بن أبي سبرة فيما أحسب؛ لأن أبا بكر لين الحديث، وسعيد بن سلام لم يكن من أصحاب الحديث، وإنما ذكرت هذا الحديث إذ لم أحفظه عن رسول الله ﷺ إلا من هذا الوجه، فذكرته وبينت العلة فيه.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٦٤).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٥).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٦).

(٥) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٤).

(٦) انظر: «الهيئة السَّنية في الهيئة السُّنِّية» (ص: ٤٧).

١٠ ـ ﴿قُتِلَ الخَرّاصُونَ﴾: لُعِن الكذّابون أصحاب القول المختلف، ١١ ـ ﴿الَّذِينَ هُم في غَمْرةٍ﴾: جهلٍ يغمرهم ﴿ساهُونَ﴾: غافلون عن أمر الآخرة، ١٢ ـ ﴿يَسألُونَ﴾ النبيَّ استهزاءً: ﴿أيانَ يَومُ الدِّينِ﴾ أي: متى مَجيئُه؟ وجوابهم: يجيءُ ١٣ ـ ﴿يَومَ هُم عَلَى النّارِ يُفتَنُونَ﴾ أي: يُعذّبون فيها، ويقال لهم حين التعذيب: ١٤ ـ ﴿ذُوقُوا فِتنَتَكُم﴾: تعذيبَكم. ﴿هذا﴾ العذابُ ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَستَعجِلُونَ﴾ في الدنيا استهزاءً.

١٥ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وعُيُونٍ﴾ تجري فيها ١٦ ـ ﴿آخِذِينَ﴾: حال من الضمير في خبر «إنّ» ﴿ما آتاهُم﴾: أعطاهم ﴿رَبُّهُم﴾ من الثواب. ﴿إنَّهُم كانُوا قَبلَ ذلِكَ﴾ أي: قبل دُخولهم الجنّةَ ﴿مُحسِنِينَ﴾ في الدنيا، ١٧ ـ ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيلِ ما يَهجَعُونَ﴾: ينامون ـ وما: زائدة. ويهجعون: خبر «كان». وقليلاً: ظرف ـ أي: ينامون في زمن يسير من الليل، ويصلّون أكثره، ١٨ ـ ﴿وبِالأسحارِ هُم يَستَغفِرُونَ﴾ يقولون: «اللّهمّ اغفِرْ لنا»،..........................

قولُهُ: (لُعِنَ) أصلُهُ الدُّعاءُ بالقتلِ، أُجرِيَ مجرى اللَّعنِ.

قولُهُ: (أَمرِ الآخِرَةِ) أو عمَّا أُمِروا به.

قولُهُ: (مَتَى) أصلُهُ: أيُّ آنٍ مجيئُهُ أو وقوعُهُ، على حذفِ مضافٍ، فلا يردُ أنَّ ظرفَ الزَّمانِ لا يقعُ خبراً إلَّا عن حدثٍ.

قولُهُ: (يَجِيءُ) أو يقعُ الجزاءُ.

قولُهُ: (تَعذِيبَكُم) وإحراقَكُم.

قولُهُ: (العَذَابُ) أي: هو.

قوله: (أَعطَاهُم) أي: قابلينَ لما أعطاهُم راضينَ به، ومعناهُ: أنَّ كلَّ ما آتاهُم ربُّهُم حسنٌ مرضيٌّ متلقًّى بالقبولِ.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) استئنافٌ فيه معنى التَّعليلِ.

قولُهُ: (في زَمَنٍ يَسِيرٍ) أو يهجَعونَ هُجوعاً قليلاً، أو ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ أو موصولةٌ؛ أي: في قليلٍ من اللَّيلِ هجوعُهُم، أو ما يهجَعونَ فيه، ولا يجوزُ أن تكونَ نافيةً؛ لأنَّ ما بعدَ «ما» لا يعملُ فيما قبلَها خلافاً للكوفيِّينَ، ويمكنُ أن يتَّسعَ في الظَّرفِ ما لا يتَّسعُ في غيرِهِ.

قولُهُ: (يَقُولُونَ) أي: أنَّهُم مع قلَّةِ هجُوعِهِم وكثرةِ عبادتِهِم إذا أسحروا أخَذوا في الاستغفارِ؛ كأنَّهُم أسلَفوا في ليلِهِم الجرائمَ، وهم إنَّما يستغفرونَ للتَّقصيرِ في العبادةِ الحاليَّةِ، أو للتَّفريطِ في الطَّاعةِ الماضيةِ.

١٩ ـ ﴿وفي أموالِهِم حَقٌّ لِلسّائلِ والمَحرُومِ﴾: الذي لا يسأل لتعفّفه.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿وفي الأرضِ﴾ من الجِبال والبِحار والأشجار والثِّمار والنبات وغيرها ﴿آياتٌ﴾: دلالاتٌ على قُدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته ﴿لِلمُوقِنِينَ، وفي أنفُسِكُم﴾ آياتٌ أيضًا من مبدأ خلقكم إلى مُنتهاه وما في تركيب خلقكم من العجائب. ﴿أفلا تُبصِرُونَ﴾ ذلك، فتستدلّون به على صانعه وقُدرته؟ ٢٢ ـ ﴿وفي السَّماءِ رِزقُكُم﴾ أي: المطرُ المُسبَّب عنه النباتُ الذي هو رِزق ﴿وما تُوعَدُونَ﴾ من المآب والثواب والعِقاب، أي: مكتوب ذلك في السماء. ٢٣ ـ ﴿فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ، إنَّهُ﴾ أي: ما تُوعدون ﴿لَحَقٌّ مِثلُما أنَّكُم تَنطِقُونَ﴾ ـ برفع «مثل» صفةً وما: زائدة، وبفتح اللام مُركّبةً مع «ما» ـ المعنى: مِثلُ نُطقكم في حقيقته، أي: معلوميّته عِندكم ضرورةَ صُدوره عنكم.

وقولُهُ: (﴿حَقٌّ﴾) أي: نصيبٌ يستوجِبونَهُ على أنفسِهِم تقرُّباً إلى اللهِ، وإشفاقاً على النَّاسِ.

قولُهُ: (لِتَعَفُّفِهِ) الَّذي يُظَنُّ غنيًا فيُحرَمُ الصَّدقةَ.

قولُهُ: (وغَيرِهَا) كالمعادنِ والحيواناتِ.

قولُهُ: (مِنَ العَجَائِبِ) إذ ما في العالَمِ شيءٌ إلَّا وفي الإنسانِ له نظيرٌ يدلُّ دلالتَهُ، مع ما انفرَدَ به من الهيئاتِ النَّافعةِ، والمناظرِ البهيَّةِ، والتَّركيباتِ العجيبةِ، والتَّمكُّنِ من الأفعالِ الغريبةِ، واستنباطِ الصَّنائعِ المختلفةِ، واستجماعِ الكمالاتِ المتنوِّعةِ، ولذا قيل للإنسانِ: إنَّه العالمُ الأكبرُ، وفي الحديثِ: «لا يسعُنِي أرضِي ولا سمائِي، ولكن يسعُنِي قلبُ عَبدِي المؤمنِ»(١).

قولُهُ: (ذَلِكَ) أي: تنظرُونَ نظرَ من يعتبِرُ.

قولُهُ: (أي: المَطَرُ) أو سببُ رزقِكُم، بتقديرِ مضافٍ.

قولُهُ: (مَكتُوبٌ) لأنَّ الأعمالَ وثوابَها مكتوبةٌ مقدَّرةٌ في السَّماءِ؛ يعني: (اللَّوحِ المحفوظِ)، وقيل: ما توعَدونَ مِن الثَّوابِ؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ، فيكونُ المرادُ بالسَّماءِ جهةَ العلوِّ.

قولُهُ: (بِرَفعِ (مِثْلُ)) كوفيٌّ غيرُ حفصٍ(٢).

قولُهُ: (مُرَكَّبَةٌ مَعَ «ما») يعني: أنَّه مبنيٌّ على الفتحِ لإضافتِهِ إلى غيرِ متمكِّنٍ، وهو «ما» إن كانَت بمعنى: شيءٍ، وليس بشيءٍ، وأنَّ بما في حيزها إن جُعِلَت زائدةً، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه صفةٌ لـ﴿حَقٌّ﴾.

قولُهُ: (ضَرُورَةَ صُدُورِهِ) يعني: كما أنَّه لا شكَّ لكم في أنَّكُم تنطِقونَ يَنبغِي أن لا تشكُّوا في تحقُّقِ ذلك.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٨٩٠): لم أر له أصلًا.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

٢٤ ـ ﴿هَل أتاكَ﴾ ـ خِطابٌ للنبيّ ـ ﴿حَدِيثُ ضَيفِ إبراهِيمَ المُكرَمِينَ﴾ وهم ملائكة، اثنا عشَرَ أو عشَرةٌ أو ثلاثةٌ منهم جِبريلُ، ٢٥ ـ ﴿إذ﴾: ظرف لـ «حديثُ ضيف» ﴿دَخَلُوا علَيهِ، فقالُوا: سَلامًا﴾ أي: هذا اللفظَ. ﴿قالَ: سَلامٌ﴾ أي: هذا اللفظُ. ﴿قَومٌ مُنكَرُونَ﴾: لا نعرِفهم؟ قال ذلك في نفسه، وهو خبر مُبتدأ مُقدّر، أي: هؤلاء.

٢٦ ـ ﴿فراغَ﴾: مالَ ﴿إلَى أهلِهِ﴾ سِرًّا، ﴿فجاءَ بِعِجلٍ سَمِينٍ﴾ ـ وفي سورة هود: «بِعِجلٍ حَنِيذٍ» أي: مشويّ ـ ٢٧ ـ ﴿فقَرَّبَهُ إلَيهِم، قالَ: ألا تأكُلُونَ﴾. عرضَ عليهم الأكل فلم يُجيبوا، ٢٨ ـ ﴿فأوجَسَ﴾: أضمر في نفسه ﴿مِنهُم خِيفةً. قالُوا: لا تَخَفْ﴾، إنا رُسلُ ربّك. ﴿وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾: ذي علم كثير، هو إسحاق كما ذُكر في «هود»، ....

قولُهُ: (مِنهُم جِبْرِيلُ) وميكائيلُ وإسرافيلُ، أو منهم على جميعِ الأقوالِ جبريلُ، وسمَّاهُم ضيفاً؛ لأنَّهُم كانوا في صورةِ أضيافٍ، والضَّيفُ في الأصلِ مصدرٌ، ولذا يُطلَقُ للواحدِ والجمعِ.

قولُهُ: (لِـ﴿حَدِيْثُ ضَيْفِ﴾) أو الضَّيْف، أو ﴿الْمُكْرَمِيْنَ﴾.

قولُهُ: (أي: هَذا اللَّفظَ) أي: مؤدَّاهُ، أو نُسلِّمُ عليكُم سلاماً.

قولُهُ: (أي: هَذا اللَّفظُ) أو عليكم، وقُرئا مرفوعَينَ ومنصوبَينَ، وحمزةُ والكسائيُّ: (قالَ سِلْمٌ)[1] بمعنى: سلامٌ.

قولُه: (أي: هَؤُلاءِ) بل أنتُم.

قولُهُ: (سِرًّا) أي: فذهبَ إليهم للمبادرةِ إلى القِرى في خفيةٍ من ضيفِهِ حذراً من أن يمنعَهُ أو يعتذرَ أو ينتظرَ.

قولُهُ: (أي: مَشوِيٌّ) لأنَّهُ كانَ عامَّةُ مالِهِ البقرَ.

قولُهُ: (عَرَضَ) الهمزةُ فيهِ للعَرْضِ والحثُّ على الأكلِ على طريقةِ الأدبِ إن قالَه أوَّلَ ما وضعَهُ، وللإنكارِ إن قالَهُ حيثُما رأى إعراضَهُم.

قولُهُ: (أَضمَرَ) لمَّا رأى إعراضَهُم عن طعامِهِ ظنًّا أنَّهم جاؤوا بِشرٍّ.

قولُهُ: (ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ) يكملُ علمُهُ إذا بلغَ.

قولُهُ: (كَمَا في «هودٍ») ولما بعدَهُ من قولِهِ: ﴿امْرَأَتُهُ﴾، وقالَ مجاهدٌ: هو إسماعيلُ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ[2]، وقالَ الكرمانيُّ بعدَ حكايتِهِ[3]: أجمعَ المفسِّرونَ على أنَّه إسحاقُ، كذا في «المبهماتِ»[4].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٦٠).

(٣) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٤٣).

(٤) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٣).

٢٩ ـ ﴿فأقبلَتِ امرأتُهُ﴾ سارةُ ﴿في صَرَّةٍ﴾: صيحةٍ، حالٌ أي: جاءت صائحةً، ﴿فصَكَّتْ وَجهَها﴾: لَطمتْه، ﴿وقالَتْ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: لم تلدْ قطُّ. وعُمرها تسع وتسعون سنةً وعُمر إبراهيم مِائةُ سنةٍ، أو عُمره مِائةٌ وعشرون سنةً وعُمرها تِسعون سنةً. ٣٠ ـ ﴿قالُوا: كَذلِكِ﴾: مِثلَ قولنا في البِشارة ﴿قالَ رَبُّكِ. إنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ﴿العَلِيمُ﴾ بخلقه.

٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿قالَ: فما خَطبُكُم﴾ أي: شأنكم، ﴿أيُّها المُرسَلُونَ؟ قالُوا: إنّا أُرسِلْنا إلَى قَومٍ مُجرِمِينَ﴾: كافرين هم قوم لوط، ٣٣ ـ ﴿لِنُرسِلَ علَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ﴾ يُطبَخُ بالنار ٣٤ ـ ﴿مُسَوَّمةً﴾: مُعْلَمة عليها اسمُ مَن يُرمى بها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: ظرف لها، ﴿لِلمُسرِفِينَ﴾ بإتيانهم الذُّكورَ مع كُفرهم.

٣٥ ـ ﴿فأخرَجْنا مَن كانَ فِيها﴾ أي: قُرى قومِ لُوط ﴿مِنَ المُؤمِنِينَ﴾ لإهلاك الكافرين، ٣٦ ـ ﴿فما وَجَدْنا فِيها غَيرَ بَيتٍ مِنَ المُسلِمِينَ﴾ ـ وهم لُوط وابنتاه ـ وُصفوا بالإيمان والإسلام، ....

قولُهُ: (سَارَةُ) في بيتِها، وكانَتْ في زاويةٍ تنظُرُ إليهم.

قولُهُ: (صَيحَةٍ) من الصَّريرِ.

قولُهُ: (أي: جَاءَتْ) وقيل: شرعَتْ وأخذَتْ.

قولُهُ: (لَطَمَتْهُ) بأطرافِ الأصابعِ، جبهَتَها؛ فعلَ المُتعجِّبِ.

قولُهُ: (لَمْ تَلِدْ) أي: أنا عجوزٌ عاقرٌ فكيفَ ألدُ؟!

قولُهُ: (مِثْلَ قَولِنَا) الأظهرُ: مثلَ ذلك الَّذي بشَّرْناهُ به (﴿قالَ ربُّكَ﴾) وإنَّما نخبرُكَ به عنهُ.

قولُهُ: (في صُنعِهِ) فيكونُ قولُه حقًّا وفعلُهُ محكماً.

قولُهُ: (شَأنُكُم) لعلَّ المرادَ بعد هذا[1].

قولُهُ: (يُطبَخُ) يريدُ السِّجِّيلَ؛ فإنَّهُ طينٌ متحجِّرٌ[2].

قولُهُ: (مُعْلَمَةً) من السُّومةِ؛ وهي العلامةُ، أو مُرسلَةً من: أُسيمَتِ الماشيةُ.

قولُهُ: (مَعَ كُفْرِهِم) أي: المجاوزينَ الحدَّ.

قولُهُ: (أي: قُرَى) وإضمارُها وإن لم يجرِ ذكرُها، لكونِها معلومَةً.

قولُهُ: (وهُم) أي: غيرَ أهلِ بيتٍ؛ وهم لوطٌ وابنتاهُ، قالَهُ مجاهدٌ، وقال قتادةُ: وأهلُ بيتِهِ، وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ:

---

(١) ربما المراد: أنهم مرسلون.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٩).

أي: هم مُصدّقون بقُلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعاتِ، ٣٧ ـ ﴿وتَرَكْنا فِيها﴾ بعد إهلاك الكافرين ﴿آيَةً﴾: علامة على إهلاكهم ﴿لِلَّذِينَ يَخافُونَ العَذابَ الأَلِيمَ﴾، فلا يفعلون مِثل فِعلهم.

٣٨ ـ ﴿وفي مُوسَى﴾ ـ معطوفٌ على «فيها» ـ المعنى: وجعلنا في قِصّة مُوسَى آيَةً، ﴿إذ أرسَلْناهُ إلَى فِرعَونَ﴾ مُلتبسًا ﴿بِسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: بحُجّة واضحة، ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿فتَوَلَّى﴾: أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكنِهِ﴾: مع جُنوده لأنهم له كالركن، ﴿وقالَ﴾ لمُوسَى: هوَ ﴿ساحِرٌ أو مَجنُونٌ. فأخَذْناهُ وجُنُودَهُ، فنبَذْناهُم﴾: طرحناهم ﴿في اليَمِّ﴾: البحر فغرقوا، ﴿وهُوَ﴾ أي: فِرعَون ﴿مُلِيمٌ﴾: آتٍ بما يُلام عليه من تكذيب الرُّسل ودعوى الرُّبوبيّة.

٤١ ـ ﴿وفي﴾ إهلاك ﴿عادٍ﴾ آيةٌ، ﴿إذ أرسَلْنا علَيهِم الرِّيحَ العَقِيمَ﴾..........

كانوا ثلاثةَ عشرَ، أخرجَها ابنُ أبي حاتمٍ[1]، كذا في «المبهماتِ»[2].

قولُهُ: (بَعدَ إهلاكِ الكافِرِينَ) في القُرى، أو في الفِعلةِ.

قولُهُ: (عَلامَةً) وهي تلكَ الأحجارُ، أو صخرٌ منضودٌ فيها، أو ماءٌ أسودُ منتنٌ.

قولُهُ: (فلا يَفعَلُونَ) فإنَّهم المعتَبِرونَ المُنتَفِعونَ.

قولُهُ: (وَجَعَلْنا) من بابِ:

عَلفتُها تبناً وماءً بارداً[3]

أو عطفٌ على: ﴿في الأرضِ﴾.

قولُهُ: (بِحُجَّةٍ واضِحَةٍ) هي معجزاتُهُ كاليدِ والعَصا.

قولُهُ: (كَالرُّكْنِ) وهو ما يُتَقَوَّى به ويُركَنُ إليه.

قولُهُ: (لِمُوسَى) أي: لأجلِهِ وفي شأنِهِ (هُو) أو له مشافهةً؛ فيُقدَّرُ: أنت؛ ليكونَ المقولُ جملةً، و(﴿أو﴾) للتَّنويعِ أو للتَّخييرِ، أو مرّةً ومرّةً مثلَ المتحيِّرِ.

قولُهُ: (ودَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ) والجملةُ حالٌ من الضَّميرِ في: ﴿أَخَذْنَاهُ﴾.

قولُهُ: (آيَةٌ) نصبٌ، ويحتملُ الرَّفعَ.

---

(١) أثر مجاهد رواه في (١٨٦٦٢)، وأثر ابن جبير رواه في (١٨٦٦٣).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٣).

(٣) قال العيني: «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية» (٣/ ١٠٨١): هذا رجز مشهور بين القوم، ولم أر أحدًا عزاه إلى راجزه. وفي «تفسير الثعلبي» (٣/ ٧٠): وأنشد الفرّاء لرجل من عبد القيس.

- هي التي لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تُلقح الشجر، وهي الدَّبور - ٤٢ - ﴿ما تَذَرُ مِن شَيءٍ﴾ نفس أو مال، ﴿أَتَتْ علَيهِ، إلاّ جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ﴾: كالبالي المُتفتِّت.

٤٣ - ﴿وفي﴾ إهلاك ﴿ثَمُودَ﴾ آيةٌ، ﴿إذ قِيلَ لَهُم﴾ بعد عقر الناقة: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾: إلى انقضاء آجالكم كما في آيةِ «تَمَتَّعُوا في دارِكُم ثَلاثةَ أيامٍ». ٤٤ - ﴿فعَتَوا﴾: تكبّروا ﴿عَن أمرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن الله وامتثال أمره، ﴿فأخَذَتْهُمُ الصّاعِقةُ﴾ بعد مُضيّ الثلاثة أيامٍ، أي: الصيحةُ المُهلِكة، ﴿وهُم يَنظُرُونَ﴾ أي: بالنهار، ٤٥ - ﴿فما استَطاعُوا مِن قِيامٍ﴾: ما قدروا على النهوض حِين نُزول العذاب، ﴿وما كانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ على مَن أهلكهم، ٤٦ - ﴿وقَومِ نُوحٍ﴾ - بالجرّ عطفٌ على «ثمودَ» أي: وفي إهلاكهم بماء السماء والأرض آيةٌ، وبالنصب أي: وأهلكْنا قومَ نوح - ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ إهلاك هؤلاء المذكورين. ﴿إنَّهُم كانُوا قَومًا فاسِقِينَ﴾.

قولُهُ: (هِيَ الَّتِي) أي: سمَّاها عقيماً؛ لأنَّها لم تتضمَّنْ منفعةً، أو لأنَّها أهلكَتْهُم وقطعَتْ دابرَهُم.

قولُهُ: (الدَّبُورُ) أو الجنوبُ، أو النَّكباءُ[١] وهي بين الرِّيحَين.

قولُهُ: (﴿أَتَتْ﴾) أي: مَرَّتْ مما أُمِرَت به.

قولُهُ: (كَالبَالِي) أو كالرَّمادِ.

قولُهُ: (الصَّيحَةُ المُهْلِكَةُ) هذا يلائمُ قراءةَ الكسائيِّ: (الصَّعْقَةُ)[٢]، إذ هي المرَّةُ من الصَّعقِ، وهي الصَّيحةُ، وأمَّا الصَّاعقةُ: فهي نارٌ نازلةٌ من السَّماءِ على ما في «الكشَّافِ»[٣]، ويؤيِّدُه قولُه: (﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾) إليها، فإنَّها جاءَتْهُم معاينةً بالنَّهارِ.

قولُهُ: (عَلى النُّهُوضِ) كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

قولُهُ: (عَلى مَنْ أَهْلَكَهُم) الظَّاهرُ: ما كانوا ممتنعينَ منه.

قولُهُ: (بالجَرِّ) بصريٌّ وحمزةُ والكسائيُّ[٤].

قولُهُ: (أي: وأَهْلَكْنَا) لأنَّ ما قبلَهُ[٥] يدلُّ عليه، أو اذكُرْ، أو عطفٌ على محلِّ: ﴿فِي عَادٍ﴾ ويؤيِّدُه قراءةُ الجرِّ[٦].

---

(١) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال. «القاموس المحيط» (ص: ١٣٩).

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٤).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٥) وهو الهاء والميم في قوله: ﴿فأخذتهم﴾.

(٦) وهي قراءة البصري وحمزة والكسائي، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

٤٧ ـ ﴿والسَّماءَ بَنَيناها بِأيدٍ﴾: بقُوّة، ﴿وإنّا لَمُوسِعُونَ﴾: قادرون ـ يقال: آدَ الرجلُ يَئيدُ: قَوِيَ. وأوسَعَ الرجلُ: صار ذا سَعة وقُوّة ـ ٤٨ ـ ﴿والأرضَ فَرَشْناها﴾: مهّدناها. ﴿فنِعمَ الماهِدُونَ﴾ نحن! ٤٩ ـ ﴿ومِن كُلِّ شَيءٍ﴾: متعلّق بقوله: ﴿خَلَقْنا زَوجَينِ﴾: صِنفينِ كالذّكر والأُنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء، والحلو والحامض، والنور والظلمة، ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ ـ بحذف إحدى التاءين من الأصل ـ فتعلمون أنّ خالق الأزواج فرد فتعبدونه. ٥٠ ـ ﴿ففِرُّوا إلَى اللهِ﴾ أي: إلى ثوابه من عِقابه بأن تُطيعوه ولا تعصُوه ـ ﴿إنّي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار ـ ٥١ ـ ﴿ولا تَجعَلُوا مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ. إنّي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. يُقدَّر قبلَ «ففرّوا»: قلْ لهم.

٥٢ ـ ﴿كَذلِكَ، ما أتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِم مِن رَسُولٍ إلاّ قالُوا﴾: هو ﴿ساحِرٌ أو مَجنُونٌ﴾..........

قولُهُ: (قَادِرُونَ) من الوُسعِ؛ بمعنى: الطَّاقةِ، والموسعُ القادرُ على الإنفاقِ، أو ﴿لموسِعُونَ﴾ السَّماءَ، أو ما بينَها وبينَ الأرضِ أو الرِّزقَ.

قولُهُ: (قَوِيَ) ومنه التَّأييدُ، وفي «القاموسِ»[1]: آدَ يئيدُ أيداً: اشتدَّ، والآدُ: الصُّلبُ، والقوَّةُ، كالأيدِ.

قولُهُ: (مَهَّدْنَاهَا) لتستقرُّوا عليها.

قولُهُ: (صِنفَيْنِ) أو نوعينِ.

قولُهُ: (مِنَ الأَصلِ) للكوفيِّ غيرَ شعبةَ، والباقونَ بالتَّشديدِ[2].

قولُهُ: (فَرْدٌ) إذ التَّعدُّدُ مِن خواصِّ الممكناتِ، والواجبُ بالذَّاتِ لا يقبلُ التَّعدُّدَ والانقسامَ.

قولُهُ: (مِنْ عِقَابِهِ) أو ففِرُّوا إلى اللهِ ممَّا سواهُ.

قولُهُ: (بَيِّنُ الإِنذَارِ) من عذابِهِ المُعَدِّ لمن أشرَكَ أو عَصى، أو ﴿مبينٌ﴾ ما يجبُ أن يحذرَ منه، وكرَّرَ قولَه: ﴿إنِّي لَكُم نَذِيرٌ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مرتَّبٌ على تركِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ، وأُفرِدَ؛ لأنَّهُ أعظمُ ما يجبُ أن يُفَرَّ بسببِهِ.

قولُهُ: (يُقَدَّرُ) لا حاجةَ إلى التَّقديرِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٦٦).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

أي: مِثلُ تكذيبهم لك بقولهم: «إنك ساحرٌ أو مجنون» تكذيبُ الأمم قبلهم لرُسلهم بقولهم ذلك. ٥٣ ـ ﴿أتواصَوا﴾ كُلّهم ﴿بِهِ﴾؟ استفهام بمعنى النفي، ﴿بَل هُم قومٌ طاغُونَ﴾، جمَعَهم على هذا القول طغيانُهم. ٥٤ ـ ﴿فتوَلَّ﴾: أعرِض ﴿عَنهُم ـ فما أنتَ بِمَلُومٍ﴾ لأنك بلّغتَهم الرسالةَ ـ ٥٥ ـ ﴿وذَكِّرْ﴾: عِظْ بالقرآن. ﴿فإنَّ الذِّكرَى تَنفعُ المُؤمِنِينَ﴾: مَن عَلِمَ اللهُ ـ تعالى ـ أنه يُؤمن.

٥٦ ـ ﴿وما خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعبُدُونِ﴾ ـ ولا يُنافي ذلك عدمَ عِبادة الكافرين لأن الغاية لا يلزم وجودُها كما في قولك: بَريتُ هذا القلمَ لأكتب به. فإنك قد لا تكتب به ـ........

قولُهُ: (مِثْلُ تَكذِيبِهِم) بالرَّفعِ.

قولُهُ: (بِقَولِهِم) أي: تسميتِهِم إيَّاكَ ساحراً أو مجنوناً؛ أي: كذلك الأمرُ، وقولُهُ: (﴿مَا أَتَى﴾) كالتَّفسيرِ له، ولا يجوزُ نصبُهُ بـ﴿أَتَى﴾؛ لأنَّ ما بعدَها لا يعملُ في ما قَبلَها.

قولُهُ: (كلُّهُم) كأنَّ الأوَّلينَ والآخرينَ منهم أوصى بعضُهُم بعضاً بهذا القولِ حتَّى قالوهُ جميعاً.

قولُهُ: (بِمَعنَى النَّفيِ) لتباعُدِ أيَّامِهِم.

قولُهُ: (طُغيَانُهُمْ) الحامِلُ عليه.

قولُهُ: (أَعْرِضْ) عن مجادلَتِهِم بعدَ ما كرَّرتَ عليهم الدَّعوةَ فأَبَوا إلَّا الإصرارَ والعنادَ.

قولُهُ: (بَلَّغْتَهُم) فلا عتبَ عليكَ في الإعراضِ.

قولُهُ: (وَعِظْ) أي: ولا تدعِ التَّذكيرَ والموعظةَ.

قولُهُ: (مَنْ عَلِمَ) أو مَن آمنَ، فإنَّها تزيدُهُ بصيرةً.

قولُهُ: (عِبَادَةِ الكَافِرِينَ) وفيه أنَّهُم يعبدونَهُ لكن بطريقٍ غيرِ مستقيمٍ، أو المرادُ بالعبادةِ: المعرفةُ كما فسَّرَهُ ابنُ عبَّاسٍ[1]، وكلُّهُم يعرفونَ اللهَ في الجملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مع أنَّه لا يلزمُ مِن عدمِ معرفةِ البعضِ خلافُ مرادِهِ تعالى سيَّما إذا أُريْدَ بِهِما الجنسُ، وقيل: اللَّامُ فيهما للعهدِ فلا ينافي قولَهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقيل: معناهُ لنأمرَهُم بالعبادةِ، أو ليكونوا عباداً لي.

قولُهُ: (فَإِنَّكَ قَد لا تَكْتُبُ) هذا بالنِّسبةِ إلينا مسلَّمٌ، وأمَّا بالنِّسبةِ إليه تعالى فممنُوعٌ.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، وذكره مع نسبته لمجاهد الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٤/ ٥٦٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٨٨).

٥٧ ـ ﴿ما أُرِيدُ مِنهُم مِن رِزقٍ﴾ لي ولأنفسهم وغيرِهم، ﴿وما أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ﴾ ولا أنفُسَهم ولا غيرَهم. ٥٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو القُوّةِ المَتِينُ﴾: الشديدُ.

٥٩ ـ ﴿فإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم بالكُفر من أهل مكّة وغيرهم ﴿ذَنُوبًا﴾: نصيبًا من العذاب ﴿مِثلَ ذَنُوبِ﴾: نصيبِ ﴿أصحابِهِم﴾ الهالكين قبلهم. ﴿فلا يَستَعجِلُونِ﴾ بالعذاب، إن أخّرتُهم إلى يوم القيامة. ٦٠ ـ ﴿فوَيلٌ﴾: شِدّةُ عذابٍ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾: في ﴿يَومِهِمِ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: يومِ القيامة.

قولُهُ: (ولا غيرَهُم) وقيل: يُقدَّرُ: قل، فيكونُ بمعنى قولِه: ﴿قُل لَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

قولُهُ: (الشَّدِيدُ) القُوَّةِ.

قولُهُ: (أَنفُسَهُم) أو رسولَ اللهِ بالتَّكذيبِ.

قولُهُ: (قَبلَهُم) من الأممِ السَّالفةِ.

قولُهُ: (إنْ أَخَّرْتُهُم) جوابٌ لقولِهِم: متى هذا الوَعدُ؟.

قولُهُ: (يَومِ القِيَامَةِ) أو يومِ بدرٍ، واللهُ أعلمُ.

***

سورة الذاريات

مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما، ولم يُحكَ في ذلك خلاف. وهي ستون آيةً بالاتِّفاق، كما في كتاب «العدد»(١).

ومناسبتُها لسورة «ق» أنَّها لمَّا خُتِمَت بذكر البعثِ واشتمَلَت على ذكر الجزاء والجنةِ والنارِ وغير ذلك افتُتِحَت هذه بالإقسام على أنَّ ما وُعِدُوا من ذلك لصادق، وأنَّ الجزاءَ لواقعٌ. وأنَّه قد ذُكرَ هناك إهلاكُ كثيرٍ من القرون على وجه الإجمال، وذُكر هنا إهلاكُ بعضهم على سبيل التفصيل، إلى غير ذلك ممَّا يَظهرُ للمتأمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ①﴾ أي: الرياح التي تذرُو الترابَ وغيرَه، من «ذَرا» المعتل، بمعنى فَرَّق وبدَّد ما رَفَعه عن مكانه.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ②﴾ أي: حِمْلاً، وهي السحُبُ الحاملةُ للمطر.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③﴾ أي: جَرْياً سهلاً إلى حيث سُيِّرَت، وهي السفن.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④﴾ هي الملائكة الذين يُقسِّمُون الأمورَ بين الخلق على ما أُمرُوا به.

وتفسيرُ كلٍّ بما فُسِّر به قد صحَّ روايتُه من طُرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه،

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن ١/٢٣٢ لأبي عمرو الداني، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٨/ ٩٤.

وفي بعض الروايات أنَّ ابنَ الكَوَّاء سألَه عن ذلك وهو رضي الله عنه يخطُبُ على المنبر فأجاب بما ذكر[١].

وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّه تفسيرٌ مأثورٌ عن رسول الله ﷺ، أخرج البزار والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه وابنُ عساكر عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغٌ التميميُّ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أخبرني عن «الذارياتِ ذَرواً» قال: هي الرياح، ولولا أنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «الحاملات وِقْراً» قال: هي السحاب، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «الجاريات يُسراً» قال: هي السفنُ، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. قال: فأخبرني عن «المقسِّمات أمراً» قال: هي الملائكة، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُه ما قلتُه. ثم أَمرَ به فضُرِبَ مئةً وجُعِلَ في بيت، فلمَّا بَرأ دعاه فضَربَه مئةً أخرى وحَملَه على قَتَب، وكَتَب إلى أبي موسى الأشعريِّ: امنَع الناسَ من مجالسته، فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلَفَ له بالأيمان المغلَّظة ما يجدُ في نفسه مما كان يجدُ شيئاً، فكتَبَ إلى عمر رضي الله عنه: ما أَخالُه إلا قد صدَقَ، فخلِّي بينه وبين مجالسةِ الناس[٢].

---

(١) أخرجه بتمامه ومختصراً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤١، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨، والطبري ٢١/ ٤٨٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦-٤٦٧، والضياء المقدسي في المختارة ٢/ ١٧٦. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وابن الكوَّاء: هو عبد الله، قال الحافظ في لسان الميزان ٣/ ٣٢٩: له أخبار كثيرة مع علي، وكان يلزمه ويُعْنِيهِ في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج وعاود صحبة علي رضي الله عنه.

(٢) مسند البزار (٢٩٩)، وكشف الأستار (٢٢٥٩)، وتاريخ دمشق ٢٣/ ٤١٠، وعزاه للدارقطني في الأفراد وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١١.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٢: فيه أبو بكر بن أبي سبرة وهو متروك. قال ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩: والراوي عنه أضعف منه.
قلنا: وأصل قصة ضرب عمر للسائل أخرجه ابن الأنباري بسند صحيح كما في الإصابة ٥/ ١٦٩، وأخرجه أيضاً الدارمي (١٤٤) و(١٤٨)، والآجري في الشريعة (١٥٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١١٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ١١. وجاء في إحدى الروايتين عند الدرامي أنه كان يسأل عن متشابه القرآن.

ويدلُّ هذا أنَّ الرجل لم يكن سليم القلب، وأنَّ سؤالَه لم يكن طلباً للعلم وإلا لم يصنع به عمرُ رضي الله عنه ما صنع.

وفي رواية عن ابن عباس: أنَّ «الحاملات» هي السفن المُوْقَرة بالناس وأمتعتهم، وقيل: هي الحوامل من جميعِ الحيوانات.

وقيل: «الجارياتُ» السحبُ تجري وتسيرُ إلى حيث شاء الله عزَّ وجل. وقيل: هي الكواكبُ التي تجري في منازلها، وكلُّها لها حركةٌ وإن اختلَفَت سرعةً وبُطئاً كما بيِّن في موضعه[1]. وقيل: هي الكواكبُ السبعةُ الشهيرةُ وتسمَّى السيَّارة.

وقيل: «الذاريات» النساءُ الولود، فإنَّهنَّ يَذْرِيْنَ الأولادَ، كأنَّه شبَّه تَتَابُعَ الأولادِ بما يتطايرُ من الرياح، وباقي المتعاطفات على ما سمعتَ أولاً.

وقيل: «الذاريات» هي الأسبابُ التي تَذْري الخلائقَ، على تشبيه الأسبابِ المُعدَّة للبروز من العدم بالرياح المفرِّقة للحبوب ونحوها.

وقيل: «الحاملات» الرياحُ الحاملة للسحاب، وقيل: هي الأسبابُ الحاملة لمسبَّباتها مجازاً.

وقبل: «الجاريات» الرياح تجري في مهابِّها.

وقيل: «المقسِّمات» السحبُ يَقسِمُ الله تعالى بها أرزاقَ العباد، وقيل: هي الكواكبُ السبعةُ السيارة، وهو قولٌ باطلٌ، لا يقولُ به إلا مَن زعم أنَّها مدبِّرةٌ لعالم الكون والفساد.

وفي صحيح البخاري عن قتادة: خَلَق الله تعالى هذه النجومَ لثلاثٍ: جَعَلها زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتَدى بها، فمَن تأوَّلَ فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاعَ نصيبَه وتَكلَّف ما لا يعلم[2]. وزاد رزين: وما لا عِلْمَ له به،

---

(١) في سورة يس عند الآية (٣٨-٣٩).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في: باب في النجوم، بعد حديث (٣١٩٨)، ووصله عبد بن حميد في تفسيره كما في تغليق التعليق ٣/ ٤٨٩.

وما عَجَزَ عن عِلْمِهِ الأنبياءُ والملائكةُ[١]. وعن الربيع مثله وزادَ: واللهِ ما جَعَل اللهُ تعالى في نَجْمٍ حياةَ أحدٍ ولا رِزْقَه ولا مَوتَه، وإنما يَفتَرُون على الله تعالى الكذبَ ويتعلَّلون بالنجوم. ذكره صاحبُ «جامع الأصول»[٢]، وقد مرَّ الكلامُ في إبطال ما قاله المنجِّمون مفصَّلاً فتذكر[٣]، ولعلَّه سيأتي إن شاء الله تعالى شيءٌ من ذلك.

وجوِّز أنْ يُراد بالجميع الرياحُ، فإنَّها كما تذرو ما تذروه تُثيرُ السحابَ وتحملُه، وتجري في الجوِّ جَرْياً سهلاً، وتَقسِمُ الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار. والمعوَّل عليه ما روي عن عمر رضي الله عنه سامعاً له من رسول الله ﷺ[٤]، وقاله بابُ مدينةِ العلمِ كرم الله تعالى وجهه على المنبر، وإليه ـ كما نُقِل عن الزجَّاج ـ ذهبَ جميعُ المفسرين[٥]، أي: المعتبَرين، وقولُ الإمامِ بعدَ نقلِهِ له عن الأمير: الأقربُ أنْ تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح، جسارةٌ عظيمةٌ على ما لا يُسلَّم له، وجهلٌ منه بما رواه ابنُ المسيّب من الخبر الدالّ على أنَّ ذلك تفسيرُ النبيِّ ﷺ، فأين منه الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقول صاحب «الكشف»: إنَّه شديدُ الطِّباق للمقام، ولذا آثرَه الإمامُ، لا أُسلِّمه له أيضاً إذا صحَّ الحديث.

ثم إذا حملت هذه الصفات على أمورٍ مختلفةٍ متغايرة بالذات كما في المعوَّل عليه، فالفاءُ للترتيب في الأقسام ذكراً ورُتبةً باعتبارِ تفاوتِ مراتبها في الدلالة على كمال قدرتِهِ عزَّ وجل، وهذا التفاوتُ إما على الترقِّي أو التنزل لِمَا في كلٍّ منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وَجْهٍ وأدنى من آخر، إذا نَظَر لها ذو نظرٍ صحيح.

---

(١) جامع الأصول ١١/ ٥٨٠.
(٢) جامع الأصول ١١/ ٥٨٠.
(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٣٨-٣٩) من سورة يس.
(٤) وهو حديث ضعيف جدًا كما أسلفنا.
(٥) معاني القرآن ٥/ ٥١.

وقيل: الترتيبُ بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منَّا، وإنْ حملت على واحدٍ وهو الرياح فهي لترتيب الأفعال والصفات، إذ الريحُ تذرو الأبخرة إلى الجوِّ أولاً حتى تنعقدَ سحاباً، فتحملُه ثانياً، وتجري به ثالثاً، ناشرةً وسائقةً له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تَقسِمُ أمطاره.

وقيل: إذا حملت «الذاريات» و«الحاملات» على النساء، فالظاهرُ أنَّها للتفاوت في الدلالة على كمال القدرة، فتدبَّر.

ونصب «ذرواً» على أنَّه مفعولٌ مطلَق، و«وِقْراً» على أنَّه مفعول به، وجوَّز الإمامُ أنْ يكونَ من باب: ضربتُه سوطاً[١]. و«يُسراً» على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ بتقدير مضافٍ، أي: جَرْياً ذا يُسرٍ، أو على أنَّه حال، أي: ميسَّرةً كما نقل عن سيبويه[٢].

و«أمراً» على أنَّه مفعولٌ به، وهو واحدُ الأُمور، وقد أُريدَ به الجمعُ ولم يُعبَّر به؛ لأنَّ الفردَ أَنسبُ برؤوس الآي مع ظهور الأمر، وقيل: على أنَّه حالٌ، أي: مأمورةً، والمفعول به محذوفٌ، أو الوصف مُنزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: تَفْعَلُ التقسيمَ مأمورةً.

وقرأ أبو عمرو وحمزة: «والذاريات ذرواً» بإدغام التاء في الذال[٣]، وقرئ: «وَقراً» بفتح الواو[٤] على أنَّه مصدرُ وَقَرَه إذا حَمَلَه، كما أفاده كلام الزمخشريِّ[٥]، وناهيك به إماماً في اللغة، وعلى هذا هو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به أيضاً على تسمية المحمولِ بالمصدر، أو على أنَّه مفعولٌ مطلق لـ «حاملات» من معناها، كأنَّه قيل: فالحاملاتُ حِمْلاً.

---

(١) أي أنه اسم ناب عن المصدر، والأصل في المثال: ضربتُه ضربَ سوط، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وكلام الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب ٢٨/ ١٩٦.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ١٩٢ وما بعد، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٣٣.

(٣) النشر ١/ ٣٠٠.

(٤) الكشاف ٤/ ١٣، والبحر المحيط ٨/ ١٣٣.

(٥) الكشاف ٤/ ١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٩٤.

وقوله تعالى شأنه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ جوابٌ للقسم، و«ما» موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، أي: إنَّ الذي توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أنْ تكونَ مصدريةً، أي: إنَّ وعدَكم، أو وعيدَكم، إذ «توعدون» يحتمل أنْ يكونَ مضارعَ وَعَدَ، وأنْ يكونَ مضارع أَوْعَدَ، ولعل الثاني أنسبُ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ولأنَّ المقصودَ التخويفُ والتهويلُ، وعن مجاهد أنَّ الآية في الكفار، وهو يُؤيِّدُ الوعيدَ، ومعنى صِدْقِهِ: تحقُّق وقوعِهِ.

وفي «الكشاف»: وعدٌ صادق كـ: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، و«الدِّين» الجزاءُ، ووقوعُهُ حصولُه[١].

والأكثرون على أنَّ الموعودَ هو البعثُ، وفي تخصيص المذكوراتِ بالإقسام بها رمزٌ[٢] إلى شهادتها بتحقُّق الجملةِ المقسَم عليها من حيث إنَّها أمورٌ بديعةٌ، فمَن قَدَر عليها فهو قادرٌ على تحقيق البعث الموعود.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ أي: الطُّرُق[٣]، جمعُ حَبِيْكَة كطريقة، أو حِباك كمِثَال ومُثُل، ويقال: حُبُك الماءِ للتكسُّر الجاري فيه إذ مرَّت عليه الريحُ، وعليه قول زهير يَصِفُ غديراً:

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجم تَنسجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لِضاحي مائِهِ حُبُكُ[٤]

وحُبُكُ الشعر لآثار تَثَنِّيه وتكسُّره، وتفسيرُها بذلك مرويٌّ عن مقاتل والكلبي والضحاك، والمرادُ بها إما الطرقُ المحسوسةُ التي تسيرُ فيها الكواكبُ، أو المعقولةُ التي تُدرَك بالبصيرة، وهي ما تدلُّ على وحدةِ الصانع وقدرتِهِ وعِلْمِهِ وحِكمتِهِ جلَّ شأنه إذا تأمَّلَها الناظرُ.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤.
(٢) قوله: رمز، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٣٦.
(٣) في الأصل: الطريق، والمثبت من (م).
(٤) شرح ديوان زهير ص ١٧٦، والبيت في وصف وادٍ، وجاء في شرحه: النجم: النبت الذي يقال له: الثَّيِّل، وريح خريق: شديدة، وضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، أي: برز.

وقال ابن عباس وقتادة وعكرمة ومجاهد والربيع: ذاتُ الخَلْق المستوي الجيد، وفي روايةٍ أخرى عن مجاهد: المُتقنَة البُنْيان. وقيل: ذات الصَّفَاقة، وهي أقوالٌ متقاربةٌ، وكأنَّ الحبُك عليها من قولهم: حَبَكت الشيءَ: أَحْكَمته وأَحْسَنت عملَه، وحَبَكت العُقْدَة: أَوثقتها، وفرسٌ محبوكُ المعاقِم، وهي المفاصل، أي: مُحكَمُها.

وفي «الكشف»: أصلُ الحباكة الصَّفاقةُ وجودةُ الأثر.

وعن الحسن: حُبُكُها نجومها. والظاهرُ أنَّ إطلاقَ الحُبُك على النجوم مجازٌ؛ لأنَّها تُزيِّنُ السماء كما يُزيِّنُ الثوبَ المُوشَّى حُبُكه وطرائقُ وَشْيه، فكأنَّه قيل: ذات النجوم التي هي كالحُبُك، أي: الطرائق في التزيين.

واستظهرَ في «السماء» أنَّه جنسٌ أُريدَ به جميعُ السماوات، وكونُ كلٍّ واحدةٍ منها ذاتَ حُبُكٍ بمعنى مستوية الخَلْق جيِّدته، أو متقنة البنيان، أو صَفِيْقة، أو ذات طُرُقٍ معقولة = ظاهرٌ.

وأما كونُ كلٍّ منها كذلك بمعنى: ذات طُرُقٍ محسوسةٍ، فباعتبار أنَّ الكواكبَ في أيِّ سماءٍ كانت تَسيرُ مُسامِتَةً لسائر السماوات، فمَمَرَّاتُها باعتبار المسامَتةِ طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أنَّ النجومَ في أيِّ سماءٍ كانت تُشاهَدُ في سائر السماوات بناءً على أنَّ السماوات شفَّافة لا يحجُبُ كلٌّ منها إدراكَ ما وراءه.

وأخرجَ ابن منيع عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه أنَّه قال: هي السماء السابعةُ[1]، وعن عبد الله بن عمرو مثلُه[2]. فتدبَّر ولا تغفل.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلافٍ عنه وأبو مالك الغِفاري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو: «الحُبْك» بإسكان الباء[3] على زنة

---

(١) الذي أخرجه أحمد بن منيع عن علي رضي الله عنه كما في الدر المنثور ٦/ ١١٢ أنه قال: ذات الخلق الحسن.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩-٤٩٠، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ١١٢ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.

القُفْل، وعكرمة بفتحها جمع حُبْكة مثل طُرْفةٍ وطُرَف، وبُرْقَة وبُرَق[١].

وأبو مالك الغفاريُّ والحسنُ بخلافٍ عنه أيضاً بكسر الحاء والباء كالإبِل[٢]، وهو على ما ذكر الخفاجي اسمٌ مفردٌ وَرَدَ على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً[٣].

وأبو مالك والحسن وأبو حيوة أيضاً بكسر الحاء وإسكان الباء كالسِّلْك[٤]، وهو تخفيفُ فِعِلٍ مكسورِ الفاءِ والعين، وهو اسمٌ مفردٌ لا جَمعٌ؛ لأنَّ فِعِلاً ليس مِن أبنية الجموع. قاله في «البحر»[٥].

وابن عباسٍ وأبو مالك أيضاً بفتحهما كالجَبَل[٦]. قال أبو الفضل الرازي: فهو جَمعُ حَبَكة مثل عَقَبَة وعَقَب.

والحسن أيضاً بكسر الحاء وفَتْح الباء كالنِّعَم[٧].

وأبو مالك أيضاً بكسر الحاء وضمِّ الباء[٨]، وذكرها ابنُ عطية عن الحسن أيضاً ثم قال: هي قراءةٌ شاذةٌ غيرُ متوجِّهة، وكأنَّه بعد أنْ كَسَر الحاء تَوهَّم قراءةَ الجمهور فضمَّ الباء[٩]، وهذا من تداخل اللغاتِ، وليس في كلام العرب هذا البناء[١٠]، أي: لأنَّ فيه الانتقالُ من خِفَّةٍ إلى ثِقَلٍ على عكس ضُرِبَ مبنيّاً للمفعول، وقال

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤، والبرقة: غِلَظٌ - أي: أرض - فيه حجارة ورمل وطين مختلطةٌ. ينظر القاموس (برق)، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٩٥.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٦ للحسن.
(٧) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(٨) البحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(٩) في الأصل و(م): التاء، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤.
(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢.

صاحب «اللوامح»: هو عديمُ النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها، ولا أدري ما وراءه[١]. انتهى.

وعلى التداخُل تأوَّلَ النحاةُ هذه القراءةَ، وقال أبو حيان: الأحسنُ عندي أنْ يكونَ ذلك مما أُتبعَ فيه حركةُ الحاء لحركة تاء «ذات» في الكسر، ولم يعتدَّ باللام الساكنة؛ لأنَّ الساكن حاجزٌ غيرُ حصين.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ أي: متخالفٍ متناقضٍ في أمرِ الله عزَّ وجل حيث تقولون: إنَّه جلَّ شأنه خالقُ السماوات والأرض، وتقولون بصِحَّة عبادة الأصنامِ معه سبحانه، وفي أمر الرسول ﷺ فتقولون تارةً: إنَّه مجنون، وأخرى: إنَّه ساحرٌ، ولا يكونُ الساحر إلا عاقلاً، وفي أمر الحشر فتقولون تارةً: لا حشر ولا حياةَ بعد الموت أصلاً، وتزعمون أخرى أنَّ أصنامَكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة. إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كُلِّفوا بالإيمان به.

واقتصر بعضُهم على كون القولِ المختلفِ في أمره ﷺ.

والجملةُ جوابُ القسم ولعل النكتةَ في ذلك القسم تشبيهُ أقوالهم في اختلافها وتنافي أعراضِها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف هيئاتها، أو الإشارةُ إلى أنَّها ليست مستويةً جيدةً، أو ليست قويةً محكمةً، أو ليس فيها ما يزيِّنُها، بل فيها ما يَشينُها من التناقض.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ أي: يُصرَف عن الإيمان بما كُلِّفوا الإيمانَ به؛ لدلالة الكلام السابق عليه، وقال الحسن وقتادة: عن الرسول ﷺ. وقال غيرُ واحد: عن القرآن، والكلامُ السابق مُشعرٌ بكلِّ مَن صُرف الصرف الذي لا صرف[٢] أشدَّ منه وأعظم؛ ووجْهُ المبالغة من إسناد الفعلِ إلى مَن وُصِفَ به، فلولا غرضُ المبالغة لكان من توضيح الواضح، فكأنَّه أُثبتَ للمصروف صرفٌ آخرُ حيث قيل: يُصرَفُ عنه المصروفُ، فجاءت المبالغةُ من المضاعفة، ثم الإطلاقُ في المقام الخطابي له

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٤

(٢) قوله: صرف، ليس في (م).

مدخلٌ في تقوية أمر المضاعفة، وكذلك الإبهام الذي في الموصول، وهو قريبٌ من قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقيل: المرادُ: يُصرَف عنه في الوجود الخارجيِّ مَن صُرِفَ عنه في عِلْمِ الله تعالى وقضائه سبحانه.

وتُعقِّب بأنَّه ليس فيه كثيرُ فائدةٍ؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائنٌ معلومٌ أنَّه ثابتٌ في سابق علمه تعالى الأزلي، وليس فيه المبالغةُ السابقة.

وأُجيبَ عن الأوَّل بأنَّ فيه الإشارةَ إلى أنَّ الحُجَّةَ البالغةَ لله عزَّ وجل في صَرْفه، وكَفَى بذلك فائدةً، وهو مبنيٌّ على[1] أنَّ العلم تابعٌ للمعلوم، فافهمه.

وحَكَى الزهراوي أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ لـ «ما توعدون» أو لـ «الدين»، أَقسمَ سبحانه بـ «الذاريات» على أنَّ وقوعَ أمر القيامة حقٌّ، ثم أَقسمَ بـ «السماء» على أنَّهم في قول مختلفٍ في وقوعه، فمنهم شاكٌّ ومنهم جاحدٌ، ثم قال جل وعلا: ﴿يُؤْفَكُ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة مَن هو المأفوك، وذكر ذلك الزمخشريُّ ولم يَعْزُه[2]، وادَّعى صاحب «الكشف» أنَّه أوجهُ لتلاؤم الكلام.

وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ لـ «قولٍ مختلِف»، و«عن» للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] وقوله:

يَنْهَونَ عن أكلٍ وعن شُرْبٍ مثلَ المها يَرْتَعْنَ في خصب[3]

أي: يُصرَف بسبب ذلك القولِ المختلف مَن أراد الإسلام، وقال الزمخشري:

---

(١) قوله: على، ليس في (م).

(٢) الكشاف ٤/ ١٤.

(٣) المعاني الكبير ١/ ٣٨٢، والكشاف ١/ ٢٧٣ و٤/ ١٤، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٥، واللسان (نيه) و(نهى). ورواية البيت في المعاني والكشاف واللسان:

يمشون دُسْماً حول قُبَّته ينهون عن أكل وعن شرب

وجاء في حاشية (م): يصف الشاعر مضيافاً يَصْدُر الأضياف عنه شباعاً يتناهون في السِّمَن بسبب الأكل والشرب، وقالوا: جمل ناهٍ، إذا كان عريقاً في السمن. اهـ.

حقيقتُهُ: يصدُرُ إفكُهم عن القول المختلف[١]. وهذا محتملٌ لبقاء «عن» على أصلها من المجاوزة واعتبارِ التضمين، وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر من غير داعٍ مع ذهاب تلك المبالغةِ.

وجوَّز ابنُ عطية رجوعَ الضمير إلى القول إلا أنَّه قال: المعنى: يُصرَف عن ذلك القولِ المختلفِ بتوفيق الله تعالى للإسلام من غَلَبت سعادتُه.

وتعقبه بأنَّ فيه مخالفةً للعرف، فإنَّ عُرْفَ الاستعمال في الإفك الصرفُ من خيرٍ إلى شرٍّ، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين[٢].

ثم إنَّ ذلك على كون الخطاب في «إنَّكم» للكفار وهو الذي ذهب إليه ابن زيد وغيره.

واستظهر أبو حيان كونَه عامّاً للمسلم والكافر، واستظهر العمومَ فيما سبق أيضاً، والقولُ المختلف حينئذٍ قولُ المسلمين بصِدْق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقولُ الكفار بنقيض ذلك[٣].

وقرأ ابن جبير وقتادة: «مَن أَفَك» مبنيّاً للفاعل[٤]، أي: من أَفَكَ الناسَ عنه، وهم قريشٌ.

وقرأ زيد بنُ علي: «يَأْفَكُ عنه مَن أفك»[٥] أي: يَصرِفُ الناس عنه مَن هو أفَّاك كذَّاب.

وقرئ: «يُؤْفَنُ عنه مَنْ أُفِن» بالنون فيهما[٦]، أي: يُحرمُه مَن حُرِم، مِن أَفِنَ الضَّرعَ: إذا أنهكه حلباً.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٣٤ بنحوه.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والكشاف ٤/ ١٤، والبحر المحيط ٨/ ١٣٥.
(٥) الكشاف ٤/ ١٥، والبحر ٨/ ١٣٥.
(٦) الكشاف ٤/ ١٥، والبحر ٨/ ١٣٥.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩﴾ أي: الكذَّابون من أصحاب القول المختلف، وأصلُ الخَرْص الظنُّ والتخمينُ، ثم تُجوِّزَ به عن الكذب؛ لأنَّه في الغالب يكونُ منشأً له، وقال الراغب: حقيقةُ ذلك أنَّ كلَّ قولٍ مَقولٍ عن ظنٍّ وتخمين يُقال له خرصٌ، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إنَّ صاحبَه لم يقله عن علم ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بل اعتمدَ فيه على الظنِّ والتخمين، كفِعْل خارصِ الثمرةِ في خَرْصه، وكلُّ مَن قال قولاً على هذا النحو قد يُسمَّى كاذباً، وإنْ كان قوله مطابقاً للمقول المخبَر به كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآية[1] [المنافقون: ١]. انتهى، وفيه بحث.

وحقيقةُ القتل معروفةٌ، والمرادُ بـ «قُتِلَ» الدعاءُ عليهم مع قَطْع النظر عن المعنى الحقيقي. وعن ابن عباس تفسيرُه باللعن؛ قال ابن الأنباري: وإنما كان القتلُ بمعنى اللعن هنا لأنَّ مَن لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك[2].

وقرئ: «قَتَل الخرَّاصين» أي: قَتَل اللهُ الخرَّاصين[3].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهلٍ عظيمٍ يغمرُهم ويشملُهم شمولَ الماء الغامر لِمَا فيه ﴿سَاهُونَ ⑪﴾ غافلون عما أُمِرُوا به، فالمرادُ بالسَّهو مطلقُ الغفلة.

﴿يَسْأَلُونَ﴾ أي: بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ معمولٌ لـ «يسألون» على أنَّه جارٍ مجرى يقولون لِمَا فيه من معنى القول، أو لقولٍ مقدَّرٍ، أي: فيقولون متى وقوعُ يوم الجزاء. وقُدِّر الوقوعُ ليكونَ السؤالُ عن الحدث كما هو المعروف في «أيان»، ولا ضيرَ في جعل الزمان زمانياً، فإنَّ اليومَ لمَّا جُعِل موعوداً ومنتظراً في نحو قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ [الدخان: ١٠] صار ملحَقاً بالزمانيات، وكذلك كلُّ يومٍ له شأنٌ مثل يوم العيد والنيروز، وهذا جارٍ في عُرفَي العرب والعجم، على أنَّه يجوزُ عند الأشاعرة أنْ يكونَ للزمان زمانٌ على ما فُصِّل في مكانه.

---

(١) مفردات الراغب (خرص).
(٢) ينظر الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ٢/ ٢٩٣.
(٣) الكشاف ٤/ ١٥.

وقرئ: «إيان» بكسر الهمزة[١]، وهي لغة.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يُحرَقُون، وأصلُ الفَتْن إذابةُ الجوهر ليظهرَ غِشُّهُ، ثم استُعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك. و«يوم» نُصِب على الظرفية لمحذوفٍ دلَّ عليه وقوعُ الكلام جواباً للسؤال مضافٍ للجملة الاسمية بعده، أي: يقعُ يومُ الدين يومَ هم على النار.. إلخ.

وقال الزجّاج: ظرفٌ لمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ كذلك، أي: هو واقعٌ، أو كائن يوم... إلخ[٢].

وجوّز أنْ يكونَ هو نفسُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والفتحةُ فتحةُ بناءٍ لإضافته إلى غير [مُتمكِّن][٣]، وهي الجملة الاسمية، فإنَّ الجمل بحَسَب الأصلِ كذلك، على كلامٍ فيه بين البصريين والكوفيين مُفصَّلٍ في «شرح التسهيل»، أي: هو يومَ هم.. إلخ، والضمير قيل: راجعٌ إلى وقت الوقوع، فيكونُ هذا الكلامُ قائماً مقامَ الجواب على نحو ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٧] في جواب ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾[٤] [المؤمنون:٨٦] لأنَّ تقدير السؤال: في أيِّ وَقْت يقع، وجوابُه الأصلي: في يوم كذا، وإذا قلت: وقتُ وقوعه يومَ كذا، كان قائماً مقامه.

ويجوزُ أنْ يكونَ الضمير لليوم، والكلامُ جوابٌ بحَسَب المعنى، فالتقدير: يومُ الجزاء يومَ تعذيبِ الكفار.

ويُؤيد كونَه مرفوعَ المحلِّ خبراً لمبتدأ محذوف قراءةُ ابن أبي عبلة والزعفراني: «يومُ هم» بالرفع[٥].

وزعم بعضُ النحاة أنَّ «يوم» بدلٌ من «يومُ الدين» وفتحتُه على قراءة الجمهور فتحةُ بناءٍ، و«يوم» وما في حيِّزه من جملة كلامِ السائلين، قالوه استهزاءً وحُكِيَ على

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحتسب ٢/ ٢٨٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٥٢ بنحوه.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/ ٩٦، والبحر ٨/ ١٣٥، وحاشية الشهاب ٨/ ٩٦.
(٤) جاء في الأصل و(م): ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمثبت هو الصواب.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والكشاف ٤/ ١٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٥.

المعنى، ولو حُكي على اللفظ لقيل: يوم نحنُ على النار نُفتَنُ. وهو في غاية البعد كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ بتقدير قولٍ وَقَع حالاً من ضمير «يُفتَنون»، أي: مقولاً لهم: «ذوقوا فتنتكم» أي: عذابَكم المعدَّ لكم، وقد يُسمَّى ما يحصل عنه العذاب كالكفر فتنة، وجوَّز أنْ يكونَ منه ما هنا، كأنَّه قيل: ذوقوا كفرَكم، أي: جزاءَ كفركم، أو بجعل الكفر نفسَ العذاب مجازاً، وهو كما ترى.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤﴾ جملةٌ مِن مبتدأ وخبرٍ داخلةٌ تحت القول المضمَر، أي: هذا العذابُ الذي كنتُم تستعجلون به بطريق الاستهزاء، وجوَّز أنْ يكونَ «هذا» بدلاً مِن «فتنتكم» بتأويل العذاب، وفيه بُعْدٌ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥﴾ لا يُبلَغُ كُنْهُها ولا يُقادَر قدرُها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أي: قابلين لكلِّ ما أعطاهم عزَّ وجل راضين به، على معنى: إنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مَرْضي يُتَلَقَّى بحُسن القبول، والعمومُ مأخوذٌ من شُيوع «ما» وإطلاقِهِ في معرض المدحِ وإظهارِ منِّهِ تعالى عليهم، واعتبارُ الرضا؛ لأنَّ الأخذ قبولٌ عن قصد. ونصب «آخذين» على الحال من الضمير في الظرف.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ أي: لأعمالهم الصالحةِ، آتين بها على ما ينبغي، فلذلك استحقُّوا ما استحقُّوا من الفوز العظيم، وفَسَّر إحسانَهم بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ إلخ على أنَّ الجملةَ في محلِّ رفع بدلٍ من قوله تعالى: (كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ) حَصَل بها تفسيرُه، أو أنَّها جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب مُفسِّرة كسائر الجمل التفسيرية.

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في الآية: (ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ) مِن الفرائض (إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ) أي: كانوا قبل تَنَزُّل الفرائض يعملون(١). ولا أظنُّ صحةَ نسبته لذلك الحِبر، ولا يكادُ

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٠١، وعزاه للفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٢.

تجعلُ جملة «كانوا» إلخ عليه تفسيراً إذا صحَّ ما نُقل عنه في تفسيرها، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى.

والهجوع النومُ، وقيده الراغب بقوله: ليلاً[1]. وغيرُه بالقليل.

و«ما» إما مزيدة ف «قليلاً» معمولُ الفعل صفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: هجوعاً قليلاً، و«مِن الليل» صفة، أو لغوٌ متعلِّقٌ ب «يهجعون» و«مِن» للابتداء، وجملةُ «يهجعون» خبر «كان».

أو «قليلاً» صفةٌ لظرف محذوفٍ، أي: زماناً قليلاً، و«مِن الليل» صفة على نحو: قليلٌ من المال عندي.

وإما موصولةٌ عائدُها محذوفٌ، فهي فاعلُ «قليلاً» وهو خبرُ «كان»، و«مِن الليل» حالٌ من[2] الموصول مقدَّم، كأنَّه قيل: كانوا قد قلَّ المقدارُ الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار من الليل.

وإما مصدرية، فالمصدرُ فاعلُ «قليلاً» وهو خبرُ «كان» أيضاً، و«مِن الليل» بيان لا متعلِّقٌ بما بعده؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يتقدَّم، أو حال من المصدر، و«مِن» للابتداء، كذا في «الكشف» فَهْماً من «الكشاف»[3].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ «مِن» على زيادة «ما» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

واعترض ابنُ المنيِّر احتمالَ مصدريتها بأنَّه لا يجوزُ في «مِن الليل» كونُه صفةً، أو بياناً للقليل، لأنَّه فيه واقعٌ على الهجوع، ولا صلةَ المصدر لتقدُّمه[4].

وأُجيبَ بأنَّه بيانٌ للزمان المبهم؛ وحكى الطيبي أنَّه إما منصوبٌ على التبيين أو متعلِّقٌ بفعلٍ يُفسِّره «يهجعون»، وجوّز أنْ يكونَ «ما يهجعون» على ذلك الاحتمال

(١) مفردات الراغب (هجع).
(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (م).
(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٥-١٦.
(٤) الانتصاف ٤/ ١٥.

بدلاً من اسم «كان» فكأنَّه قيل: كان هجوعُهم قليلاً. وهو بعيدٌ.

وجوِّز في «ما» أنْ تكونَ نافيةً، و«قليلاً» منصوبٌ بـ «يهجعون» والمعنى: كانوا لا يهجعون مِن الليل قليلاً ويُحيُونه كلَّه، ورواه ابن أبي شيبة وأبو نصر عن مجاهد(١)، وردَّه الزمخشريُّ(٢) بأن «ما» النافية لا يعملُ ما بعدها فيما قبلها؛ لأنَّ لها صدْرَ الكلام، وليس فيها التصرُّف الذي في أخواتها كـ: «لا»، فإنَّها قد تكون كجزءٍ مما دخَلَت عليه نحو: عُوتب بلا جُرْمٍ، و«لم» و«لن» لاختصاصهما(٣) بالفعل كالجزء منه.

وأنت تعلم أنَّ منْعَ العمل هو مذهبُ البصريين، وفي «شرح الهادي»: أنَّ بعضَ النحاة أجازَه مطلقاً، وبعضُهم أجازه في الظرف خاصَّةً للتوسع فيه، واستدلَّ عليه بقوله:

ونحن عن فَضْلك ما استَغْنَينا(٤)

نعم يَرِدُ على ذلك أنَّ فيه ـ كما في «الانتصاف» ـ خللاً من حيث المعنى، فإنَّ طَلَبَ قيامِ الليل غيرَ مستثنًى منه جزءٌ للهجوع وإنْ قلَّ غيرُ ثابتٍ في الشرع ولا معهود(٥).

اللهم إلا أنْ يُدَّعَى أنَّ مَن ذهب إلى ذلك يقول بأنَّه كان ثابتاً في الشرع؛ فقد أخرج ابن أبي شيبة وابنُ المنذر عن عطاء أنَّه قال في الآية: كان ذلك إذ أُمِرُوا بقيام الليل كلِّه، فكان أبو ذرٍّ يعتمدُ على العصا فمكثوا شهرَين ثم نزلت الرُّخصة ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠](٦).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/٥٦٨، وعزاه لأبي نصر في الصلاة السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣.

(٢) في الكشاف ٤/١٦.

(٣) في الأصل: لاختصاصها، والمثبت من (م).

(٤) قطعة من رجز لعامر بن الأكوع ضمن حديث أخرجه أحمد (١٦٥٣٨)، ومسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع ﷺ.

(٥) الانتصاف ٤/١٥-١٦.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٣٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣.

وقال الضحاك: «كانوا قليلاً» في عددهم، وتمَّ الكلامُ عند «قليلاً» ثم ابتدأ «من الليل ما يهجعون» على أنَّ «ما» نافية؛ وفيه ما تقدَّم مع زيادة تفكيكٍ للكلام.

ولعلَّ أظهرَ الأوجه زيادةُ «ما» ونصب «قليلاً» على الظرفية، و«مِن الليل» صفة.

قيل: وفي الكلام مبالغاتٌ: لفظ الهجوع بناءً على أنَّه القليل من النوم، وقولُه تعالى: «قليلاً» و«من الليل» لأنَّ الليل وقتُ السُّبات والراحة، وزيادة «ما» لأنَّها تؤكدُ مضمون الجملةِ، فتُؤكِّد القِلَّة وتُحقِّقُها باعتبار كونها قيداً فيها.

والغرضُ من الآية أنَّهم يُكابدون العبادةَ في أوقات الراحة وسكونِ النفس، ولا يستريحون مِن مشاقِّ النهار إلا قليلاً.

قال الحسن: كابدوا قيامَ الليلِ لا ينامون منه إلا قليلاً.

وعن عبد الله بن رواحة: هَجَعُوا قليلاً ثم قاموا.

وفسَّر أنسُ بن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يُصلُّون بين المغرب والعشاء[1]. وهي لا تدلُّ على الاقتصار على ذلك.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ أي: هم مع قِلَّة هجوعهم وكثرة تهجُّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنَّهم أسلفوا في ليلهم الجرائمَ ولم يتفرَّغوا فيه للعبادة، وفي بناء الفعل على الضمير إشعارٌ بأنَّهم الأحقَّاء بأنْ يُوصَفُوا بالاستغفار، كأنَّهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه. وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدمِ اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى.

وحَمْلُ الاستغفارِ على حقيقته المشهورةِ هو الظاهر، وبه قال الحسن، أخرج عنه ابنُ جرير وغيرُه أنَّه قال: صلَّوا فلمَّا كان السحر استغفروا[2].

وقيل: المرادُ طَلَبُهم المغفرةَ بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٦٧، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٣٢٣)، والطبري ٢١/ ٥٠٢.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٠٥-٥١٠، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد (٢٩٩).

ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّه قال: «يستغفرون»: يصلُّون[١]. وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً[٢]، ولا أراه يصحُّ.

وأخرج أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخرَ الليل في التهجد أحبُّ إليَّ مِن أوَّله؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾»[٣]. وهو محتملٌ لذلك التفسيرِ والظاهر.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيبٌ وافرٌ يستوجبونه على أنفسهم تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل وإشفاقاً على الناس، فهو غيرُ الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الطالبِ منهم ﴿وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ وهو المتعفِّفِ الذي يحسَبُه الجاهلُ غنيّاً، فيُحرَمُ الصدقةَ من أكثر الناس؛ أخرج ابن جرير وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ المسكينُ الذي تَردُّهُ التمرةُ والتمرتان، والأكلةُ والأكلتان» قيل: فمَن المسكينُ؟ قال: «الذي ليس له ما يُغنيهِ ولا يُعلَمُ مكانُه فيُتَصَدَّقَ عليه، فذلك المحروم»[٤].

وفسَّره ابن عباس بالمُحَارَفِ[٥] الذي يطلبُ الدنيا وتُدْبِرُ عنه ولا يسأل الناسَ.

وقيل: هو الذي يَبعُدُ منه ممكناتُ الرزقِ بعد قربها منه، فيناله الحرمانُ.

وقال زيدُ بن أسلم: هو الذي اجتيحَت ثمرته.

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٢٤٥، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٢٧، والطبري ٢١/ ٥١٠.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٣.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٥١٥، وصحيح ابن حبان (٣٣٥١)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٤، وهو عند الطبري من طريق الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، والمتصل إسناده صحيح، وأخرج نحوه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) دون قوله: «فذلك المحروم».

(٥) بفتح الراء: وهو المحروم الذي إذا طلب لا يُرزق، وقد حورف كسب فلان: إذا شدِّد عليه في معاشه وضيِّق. النهاية (حرف).

وقيل: مَن ماتَت ماشيتُه. وقيل: مَن ليس له سهمٌ في الإسلام. وقيل: الذي لا يَنمُو له مال. وقيل غير ذلك.

قال في «البحر»: وكلُّ ذلك على سبيل التمثيل، ويجمعُ الأقوالَ أنَّه الذي لا مالَ له لحرمانٍ أصابه[1].

وأنا بقول رسول الله ﷺ أقول.

وقال منذر بنُ سعيد: هذا الحقُّ هو الزكاة المفروضة. وتُعقِّب بأنَّ السورةَ مكية وفرضُ الزكاة بالمدينة. وقيل: أصلُ فريضة الزكاة كان بمكة، والذي كان بالمدينة القدرُ المعروف اليوم.

وعن ابن عمر أنَّ رجلاً سأله عن هذا الحقِّ فقال: الزكاةُ، وسوى ذلك حقوقٌ. فعمَّمَ، والجمهور على الأول.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ دلائلُ من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات، أو وجوهُ دلالاتٍ من الدَّحو وارتفاع بعضها عن الماء، واختلافِ أجزائها في الكيفيَّات والخواصِّ، فالدليل على الأول ما في الأرض من الموجودات، والظرفيةُ حقيقيةٌ والجمعُ على ظاهره، وعلى الثاني الدليلُ نفسُ الأرض، والجمعيةُ باعتبار وجوهِ الدلالة وأحوالها، والظرفيةُ مِن ظرفية الصفةِ في الموصوف، والدلالة على وجود الصانعِ جلَّ شأنه وعلمِهِ وقدرتِهِ وإرادته ووحدته وفرط رحمته عز وجل.

﴿لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ للموحِّدين الذين سلكوا الطريقَ السويَّ البرهاني الموصِل إلى المعرفة، فهم نظَّارُون بعيونٍ باصرةٍ وأفهامٍ نافذةٍ.

وقرأ قتادة: «آية» بالإفراد[2].

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في ذواتكم آياتٌ، إذ ليس في العالم شيءٌ إلا وفي ذات الإنسان له نظيرٌ يدلُّ مثلَ دلالته على ما انفرَدَ به من الهيئات النافعة، والمناظرِ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٦.

البهيَّة، والتركيباتِ العجيبةِ، والتمكُّن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكمالات المتنوعة، وآياتُ الأنفس أكثرُ من أنْ تُحصَى.

وقيل: أُريدَ بذلك اختلافُ الألسنةِ والصُّوَر والألوان والطبائع، ورواه عطاء عن ابن عباس. وقيل: سبيلُ الطعام وسبيلُ الشراب. والحقُّ أنْ لا حَصْرَ.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ألا تنظرون فلا تُبصرون بعين البصيرةِ، وهو تعنيفٌ على ترك النظر في الآيات الأرضيةِ والنفسيةِ، وقيل: في الأخير.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: تقديرُه وتعيينُه، أو أسبابُ رزقكم من النَّيِّرَين والكواكبِ والمطالعِ والمغارب التي تختلفُ بها الفصول التي هي مبادي الرزق إلى غير ذلك، فالكلامُ على تقدير مضافٍ أو التجوُّزِ بجَعْل وجود الأسباب فيها كوجود المسبَّب.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ السماء السحابُ، وهي سماءٌ لغةً؛ والمرادُ بالرزق المطرُ، فإنَّه سببُ الأقوات، ورُوي تفسيرُه بذلك مرفوعاً[(١)].

وقرأ ابنُ محيصن: «أرزاقكم» على الجمع[(٢)].

﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عطف على «رِزْقكم» أي: والذي تُوعدونَه من خيرٍ وشرٍّ كما روي عن مجاهد.

وفي روايةٍ أخرى عنه وعن الضحاك: «ما توعدون» الجنة والنار، وهو ظاهرٌ في أنَّ النار في السماء، وفيه خلاف.

وقال بعضُهم: هو الجنة، وهي على ظَهْر السماءِ السابعة تحت العرش.

وقيل: أمرُ الساعة.

وقيل: الثوابُ والعقابُ، فإنَّهما مقدَّران معيَّنان فيها.

وقيل: إنَّه مستأنَفٌ، خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ على أنَّ ضمير «إنَّه»

---

(١) أخرجه الديلمي من حديث علي ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ١١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والبحر المحيط ٨/١٣٦، وقرأها أيضاً «رازقكم» كما في القراءات الشاذة ص ١٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦.

لـ «ما»، وعلى ما تقدَّم، فإمَّا له، أو للرزق، أو لله تعالى، أو للنبيِّ ﷺ، أو للقرآن، أو للدِّين في «إنَّ الدينَ لواقع» أو لليوم المذكور في «أيانَ يومُ الدين» أو لجميع المذكور أماماً، أقوال.

واستظهرَ أبو حيان الأخيرَ منها[1]، وهو مرويٌّ عن ابن جُرَيج، أي: إنَّ جميع ما ذكرناه من أول السورة إلى هنا لحَقٌّ ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثلَ نُطقكم، كما أنَّه لا شكَّ لكم في أنَّكم تنطقون ينبغي أنْ لا تَشُكُّوا في حقِّية ذلك، وهذا كقول الناس: إنَّ هذا لحقٌّ كما أنك تَرَى وتسمع. ونصب «مِثْلَ» على الحالية من المستكنِّ في «لحقٌّ»[2]، وهو لا يتعرَّف بالإضافة لتوغُّله في التنكير، أو على الوصف لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنَّه حقٌّ حقّاً مثلَ نُطقكم.

وقيل: إنَّه مبنيٌّ على الفتح، فقال المازني: لتركُّبِهِ مع «ما» حتى صارا[3] شيئاً واحداً، نحو: ويحما، وأنشدُوا لبناء الاسم معها قولَ الشاعر:

أثورَ ما أَصِيدُكُم أم ثَورَيْن أمْ هذهِ الجَمَّاءَ ذاتَ القرنَيْن[4]

وقال غيرُه: لإضافتِهِ إلى غير متمكنٍ، وهو «ما» إنْ كانت نكرةً موصوفةً بمعنى شيء، أو موصولةً بمعنى «الذي»، و«أنَّكم» إلخ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو أنَّكم.. إلخ، والجملةُ صفةٌ، أو صلةٌ. أو هو «أنَّ» بما في حيِّزها إنْ جعلْتَ «ما» زائدة، وهو نصُّ الخليل[5].

ومحلُّه على البناء الرفعُ على أنَّه صفةٌ لـ «حقّ»، أو خبرٌ ثانٍ، ويُؤيِّده قراءةُ حمزة والكسائي وأبي بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلافٍ عن ثلاثتهم: «مثلُ» بالرفع[6].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(٢) في الأصل: الحقّ.

(٣) في الأصل: صار.

(٤) الخصائص ٢/ ١٨٠، واللسان (ثور)، والبحر المحيط ٨/ ١٣٨، والدر المصون ١٠/ ٤٨.

(٥) ينظر الكتاب ٣/ ١٤٠.

(٦) قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وهي قراءة خلف =

وفي «البحر»: أنَّ الكوفيين يجعلون «مثلاً» ظرفاً فينصبونَه على الظرفيةِ ويُجيزون: زيدٌ مثلَك، بالنصب، وعليه يجوزُ أنْ يكونَ في قراءة الجمهور منصوباً على الظرفية، واستدلالُهم والردُّ عليهم مذكورٌ في النحو[1].

وفي الآية من تأكيد حَقيَّة المذكور ما لا يخفى، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه قال فيها: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قاتَلَ الله قوماً أَقسَمَ لهم ربُّهم ثم لم يُصدِّقوا»[2].

وعن الأصمعي: أَقبلتُ من جامع البصرة، فطَلَع أعرابيٌّ على قَعودٍ فقال: ممن[3] الرجلُ؟ قلتُ: من بني أَصمَع. قال: مِن أينَ أقبلتَ؟ قلتُ[4]: من موضعٍ يُتلَى فيه كلامُ الرحمن. قال: اتلُ عليَّ. فتلوتُ «والذاريات» فلمَّا بلغتُ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ قال: حسبُك، فقام إلى ناقتِهِ فنَحَرها ووزَّعها، وعمَدَ إلى سيفه وقوسِهِ فكسَرَهما وولَّى، فلمَّا حججتُ مع الرشيد طَفِقْتُ أطوفُ فإذا أنا بمَن يهتِفُ بي بصوت رقيقٍ، فالتفتُّ فإذا بالأعرابي قد نَحَل واصفرَّ، فسلَّم عليَّ واستقرأ السورةَ، فلما بلغتُ الآيةَ صاح وقال: قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقًّا، ثم قال: وهل غيرُ هذا؟ فقرأتُ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ فصاحَ وقال: يا سبحان الله، مَن ذا أغضبَ الجليلَ حتى حلفَ؟ لم يصدِّقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجَت معها نفسُه[5].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأن الحديث وتنبيهٌ على أنَّه ليس مما عَلِمَه رسولُ الله ﷺ بغير طريقِ الوحي، قاله غيرُ واحد.

= من العشرة، وذكرت عن الحسن وابن أبي إسحاق والأعمش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤١، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٣٦.

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٢٣، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٤.

(٣) في الأصل: من.

(٤) قوله: قلت، ساقط من (م).

(٥) الكشاف ٤/ ١٧، وأخرجها البيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٧) مختصرة.

وفي «الكشف»: فيه رمزٌ إلى أنَّه لمَّا فَرَغ من إثبات الجزاء لفظاً بالقَسَم، ومعنًى بما في المُقسَم به من التلويح إلى القدرة البالغةِ مدمجاً فيه صِدْق المُبلِّغ، وقَضى الوَطَرَ من تفصيله مَهَّد لإثبات النبوة، وأنَّ هذا الآتي الصادقَ حقيقٌ بالاتِّباع لِمَا معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ إلخ، وضَمَّن فيه تسليتَه عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومِهِ، فلَهُ بسائر آبائه وإخوانِهِ من الأنبياء عليهم السلام أُسوةٌ حسنةٌ، هذا إذا لم يُجعَل قولُه تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطفاً على قوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ وأما على ذلك التقدير فوجْهُهُ أنْ يكونَ قصةُ الخليل ولوط عليهما السلام معترضةً للتسلِّي بإيعاد[1] مكذِّبيه، وأنَّه مرحومٌ مُنجًّى مُكرَّمٌ بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم، والترجيحُ مع الأول. انتهى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّقُ بقوله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾.

والضيف في الأصل مصدرٌ بمعنى المَيلُ، ولذلك يطلَقُ على الواحد والمتعدِّد، قيل: كانوا اثنَي عشر مَلَكاً، وقيل: ثلاثةٌ: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وسُمُّوا ضيفاً لأنَّهم كانوا في صورة الضيف؛ ولأنَّ إبراهيم عليه السلام حَسِبَهم كذلك، فالتسمية على مقتضَى الظاهر والحسبان، وبدأ بقصة إبراهيمَ وإنْ كانت متأخِّرةً عن قصة عادٍ؛ لأنَّها أقوى في غَرَض التسلية.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عند الله عز وجل كما قال الحسن، فهو كقوله تعالى في الملائكة عليهم السلام: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خَدَمهم بنفسه وزوجتِهِ، وعَجَّل لهم القِرى، ورَفَع مجالسَهم كما في بعض الآثار.

وقرأ عكرمةُ: «المكرَّمين» بالتشديد[2].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديث لأنَّه صفةٌ في الأصل، أو للضيف، أو لمكرَمين إنْ أُريدَ إكرامُ إبراهيمَ؛ لأنَّ إكرامَ الله تعالى إياهم لا يتقيدُ، أو منصوبٌ بإضمار «اذكر».

---

(١) في (م): بإبعاد.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٤٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣٨.

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ أي: نسلِّم عليك سلاماً، وأَوجَب في «البحر» حذفَ الفعل؛ لأنَّ المصدرَ سادٌّ مسدَّه[١]، فهو من المصادر التي يجبُ حذفُ أفعالها.

وقال ابن عطية: يتَّجهُ أنْ يَعملَ في «سلاماً» «قالوا» على أنْ يُجعَل في معنى «قولاً» ويكونُ المعنى حينئذ: أنَّهم قالوا تحيةً وقولاً معناه سلام[٢]. ونُسِب إلى مجاهد، وليس بذاك.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، عَدَل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثباتِ حتى يكونَ تحيتُه أحسنَ من تحيتهم، أخذاً بمزيد الأدب والإكرام، وقيل: «سلامٌ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: أمري سلام.

وقُرِئا مرفوعَين، وقرئ: «سلاماً قال سِلْماً» بكسر السين وإسكان اللام والنصب[٣]، والسِّلْمُ السلام.

وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة: «سلاماً قال سِلْمٌ» بالكسر والإسكان والرفع[٤]، وجعله في «البحر» على معنى: نحن ـ أو أنتم ـ سلم[٥].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو عَلَم الإسلام، أو لأنَّهم عليهم السلام ليسوا ممن عَهِدَهم من الناس، أو لأنَّ أوضاعهم وأشكالهم خلافُ ما عليه الناس.

و«قوم» خبرُ مبتدأ محذوفٍ والأكثر على أنَّ التقدير: أنتم قومٌ منكرون، وأنَّه عليه السلام قاله لهم للتعرُّف، كقولك لمن لقيتَه: أنا لا أعرفُك، تريدُ عرِّف لي نفسَك وصِفْها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٧.

(٣) كلا القراءتين في الكشاف ٤/ ١٧، والبحر المحيط ٨/ ١٣٩، دون نسبة.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٧، والبحر المحيط ٨/ ١٣٩، وهي قراءة حمزة والكسائي من السبعة كما في التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٣٩.

وذهب بعضُ المحققين إلى أنَّ الذي يظهر أنَّ التقديرَ: هؤلاء قومٌ منكرون، وأنَّه عليه السلام قاله في نفسه، أو لِمَن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أنْ يُشعرَهم بذلك، فإنَّه الأنسبُ بحاله عليه السلام؛ لأنَّ في خطاب الضيفِ بنحو ذلك إيحاشاً ما، وطَلَبُهُ به أنْ يعرِّفوه حالهم لعلَّه لا يزيلُ ذلك. وأيضاً لو كان مرادُه ذلك لكَشَفوا أحوالَهم عند القول المذكور، ولم يتصدَّ عليه السلام لمقدِّمات الضيافة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم على خِفْية من ضيفه، نقل أبو عبيدة[1] أنَّه لا يقال: راغَ إلا إذا ذهب على خفية، وقال: يقال: رَوَّغ اللقمة، إذا غَمَسها في السَّمن حتى تُروَى.

قال ابن المنير: وهو من هذا المعنَى؛ لأنَّها تذهبُ مغموسةً في السَّمن حتى تخفَى، ومن مقلوب الرَّوغِ غَوْرُ الأرض والجرح لخفائِهِ، وسائرُ مقلوباته قريبةٌ من هذا المعنى[2].

وقال الراغب: الرَّوغ الميلُ على سبيل الاحتيال، ومنه رَاغَ الثعلبُ، وراغَ فلانٌ إلى فلانٍ مال نحوَه لأمر يُريده منه بالاحتيال[3]. ويُعلَم منه أنَّ لاعتبار قيدِ الخفية وجهاً، وهو أمرٌ يقتضيه المقامُ أيضاً؛ لأنَّ مَن يذهب إلى أهله لتدارُكِ الطعام يذهبُ كذلك غالباً، وتُشعر الفاء بأنَّه عليه السلام بادَرَ بالذهاب ولم يُمهل، وقد ذكروا أنَّ مِن أدب المُضيفِ أنْ يُبادر بالقِرى مِن غير أنْ يَشعُرَ به الضيفُ حذراً من أنْ يمنعَه الضيفُ، أو يصيرَ منتظِراً.

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ﴾ هو وَلَدُ البقرة، كأنَّه سُمِّي بذلك لتصوُّر عَجَلَته التي تَعدمُ[4] منه إذا صار ثوراً ﴿سَمِينٖ﴾ ممتلئ الجسد بالشحم واللحم؛ يقال: سَمِنَ كسَمِعَ، سَمَانةً

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٩٧نقلاً عن الانتصاف، والذي في الانتصاف لابن المنير ٤/ ١٨: أبو عبيد.
(٢) الانتصاف ٤/ ١٨.
(٣) مفردات الراغب (روغ).
(٤) في الأصل: تقدم، والمثبت من (م) ومفردات الراغب (عجل).

بالفتح وسِمَناً كعِنَبٍ فهو سَامِنٌ وسَمِينٌ، وكمُحْسِن[١] السَّمينُ خِلْقَةً. كذا في «القاموس»[٢].

وفي «البحر»[٣]: يقال: سَمِنَ سِمَناً فهو سمين، شَذُّوا[٤] في المصدر واسم الفاعل، والقياس سَمَنٌ وسَمِنٌ، وقالوا: سامنٌ إذا حَدَث له السِّمن. انتهى.

والفاء فصيحةٌ أفصحَت عن جُمَل قد حُذفَت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بكمال سرعةِ المجيء بالطعام، أي: فذبَحَ عجلاً فَحَنَذَهُ فجاء به.

وقال بعضُهم: إنَّه كان مُعدّاً عنده حَنيذاً قبلَ مجيئهم لمن يَرِدُ عليه من الضيوف، فلا حاجةَ إلى تقدير ما ذكر، والمشهور اليوم أنَّ الذبح للضيف إذا ورَدَ أبلغُ في إكرامه من الإتيان بما هُيِّئ من الطعام قبل وروده، وكان كما روي عن قتادة عامةُ ماله عليه السلام البقرُ، ولو كان عنده أطيبُ لحماً منها لأكرمهم به.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ بأنْ وضعَهَ لديهم، وفيه دليلٌ على أنَّ مِن إكرام الضيف أنْ يقدَّم له أكثرُ مما يأكل، وأنْ لا يوضعَ الطعام بموضع ويُدعَى الضيف إليه.

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ قيل: عَرْضٌ للأكل فإنَّ في ذلك تأنيساً للضيف، وقيل: إنكارٌ لعدم تعرُّضهم للأكل، وفي بعض الآثار أنَّهم قالوا: إنَّا لا نأكلُ إلا ما أدَّينا ثمنَه. فقال عليه السلام: إني لا أُبيحُه لكم إلا بثمن. قالوا: وما هو؟ قال: أنْ تُسمُّوا الله تعالى عند الابتداء وتَحمَدُوه عز وجل عند الفراغ. فقال بعضُهم لبعض: بحقٍّ اتَّخذَه الله تعالى خليلاً.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فأضمَرَ في نفسه منهم خوفاً لمَّا رأى عليه الصلاة والسلام إعراضَهم عن طعامه، وظنَّ أنَّ ذلك لشرٍّ يُريدونه، فإنَّ أكل الضيف أَمَنَةٌ ودليلٌ على انبساط نفسه، وللطعام حرمةٌ وذِمامٌ، والامتناعُ منه وحشةٌ موجبةٌ

(١) في الأصل و(م): وكحسن، والمثبت من القاموس.
(٢) مادة (سمن).
(٣) ٨/ ١٣٢.
(٤) في (م): شذوذاً، والمثبت من الأصل والبحر.

لظنِّ الشرِّ. وعن ابن عباس أنَّه عليه السلام وقع في نفسه أنَّهم ملائكةٌ أُرسِلُوا للعذاب فخاف.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنَّا رسل الله تعالى، عن يحيى بن شدَّاد: مَسَح جبريلُ عليه السلام العِجلَ بجناحه فقامَ يَدرُجُ حتى لحِقَ بأمِّه، فعرفهم وأَمِنَ منهم، وعلى ما روي عن الحبر أنَّ هذا لمجرَّد تأمينه عليه السلام، وقيل: مع تحقيق أنَّهم ملائكةٌ وعلمهم بما أضمَرَ في نفسه إما بإطلاع الله تعالى إياهم عليه، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به، أو بظهور أمارته في وجهه الشريف، فاستدلوا بذلك على الباطن.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ [الآية:١١٢] أي: بواسطتهم ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو عند الجمهور إسحاق بنُ سارة، وهو الحقُّ للتنصيص على أنَّه المبشَّر به في سورة هود، والقصةُ واحدة، وقال مجاهد: إسماعيل بن هاجر كما رواه عنه ابنُ جرير وغيرُه(١). ولا يكاد يصحُّ.

﴿عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ عند بلوغه واستوائه، وفيه تبشيرٌ بحياته، وكانت البشارة بذَكَرٍ؛ لأنَّه أسرُّ للنفس وأَبهجُ، ووَصَفَه بالعلم لأنَّها الصفة التي يختصُّ بها الإنسان الكامل لا الصورةُ الجميلة والقوةُ ونحوهما، وهذا عند غير الأكثرين من أهل هذا الزمان، فإنَّ العلم عندهم لاسيما العلم الشرعي رذيلةٌ لا تعادلُها رذيلة، والجهلُ فضيلة لا توازنها فضيلة. وفي صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفَى مما يوجب السرور.

وعن الحسن: «عليم»: نبي.

ووقعَت البشارةُ بعد التأنيس، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ دَرْءَ المفسدة أهمُّ من جَلْب المصلحة.

وذكر بعضُهم أنَّ علمه عليه السلام بأنَّهم ملائكة من حيث بشَّروه بغيب.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٢٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٤ إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة لمَّا سمعَت بشارتَهم إلى بيتها، وكانت في زاوية تنظر إليهم، وفي «التفسير الكبير»: أنَّها كانت في خدمتهم، فلمَّا تكلَّموا مع زوجها بولادتها استحْيَتْ وأعرضَت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة[1]. وهو إنْ صحَّ مثلُه عن نَقْل وأثَر لا يأباه الخطابُ الآتي؛ لأنَّه يقتضي الإقبال دون الإدبار، إذ يكفي لصحته أنْ يكونَ بمسْمَع منها وإنْ كانت مدبرةً، نعم في الكلام عليه استعارةٌ ضِدِّية، ولا قرينةَ هاهنا تُصحِّحُها.

وقيل: «أقبلَت» بمعنى أخذَت، كما تقول: أَخذَ يشتُمني.

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة من الصَّرير قاله ابن عباس، وقال قتادة وعكرمة: صَرَّتُها رَنَّتها. وقيل: قولها: أوَّه، وقيل: يا ويلتي.

وقيل: الصَّرَّة الجماعةُ المنضَمُّ بعضُهم إلى بعض كأنَّهم صُرُّوا، أي: جُمعوا في وعاء، وإلى هذا ذهب ابن بحر، قال: أي: أقبلَت في صَرَّة من نسوة تبادَرْن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام.

والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أو المفعول به إنْ فُسِّر «أقبلت» بـ: أَخذَتْ، قيل: إنَّ «في» عليه زائدة كما في قوله:

يجرحْ في عراقيبها نَصْلي[2]

والتقدير: أخذَت صيحةً. وقيل: بل الجارُّ والمجرور في موضع الخبر؛ لأنَّ الفعل حينئذٍ من أفعال المقاربة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال مجاهد: ضَرَبت بيدها على جَبْهتها وقالت: يا وَيْلتاه.

وقيل: إنَّها وجدَت حرارةَ الدم فلطمَت وجهها من الحياء.

وقيل: إنَّها لطمَتْه تعجُّباً؛ وهو فعل النساء إذا تعجَّبن من شيء.

---

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ٢٨/ ٢١٤.

(٢) جزء من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وتمامه:

وإنْ تَعتَذرْ بالمَحْل من ذي ضُروعها ... على الضيف يَجرَحْ في عراقيبها نصلي

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي: أنا عجوز ﴿عَقِيمٌ ٢٩﴾ عاقرٌ فكيف ألدُ؟! وعَقِيْم فَعِيْل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول، وأصلُ معنى العُقْم اليَبْسُ.

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ﴾ أي: مثلَ ذلك القول الكريم الذي أَخْبَرْنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نحن مُعبِّرون نُخبرك به عنه عز وجل، لا أنَّا نقولُه من تلقاء أنفسنا، ورُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام قال لها: انظري إلى سَقْف بيتك. فنَظَرت، فإذا جُذوعُه مُورِقةٌ مثمرةٌ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيكون قولُه عز وجل حقّاً، وفعلُه سبحانه متقناً لا محالة، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدَّم في سورة الحِجْر[١]، وإنما لم يذكر هاهنا اكتفاءً بما ذكر هناك، كما أنَّه لم يذكر هناك سارة اكتفاءً بما ذكر هاهنا وفي سورة هود[٢].

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام لـمَّا عَلم أنَّهم ملائكةٌ أُرسلوا لأمْرٍ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسلتُم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٣٢﴾ يعنون قومَ لوطٍ عليه السلام ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد قَلْب قراهم عاليها سافلها حسبما فُصِّل في سائر السُّوَر الكريمة[٣] ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: طين مُتحجِّر وهو السِّجيلُ؛ وفي تقييد كونها من طين دفعُ[٤] توهُّم كونها بَرَداً، فإنَّ بعض الناس يُسمِّي البَرَدَ حجارةً.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعلَّمةً، من السُّومة وهي العَلَامة، على كلِّ واحدة منها اسمُ مَن يَهلِكُ بها؛ وقيل: أعلمت بأنَّها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامةٍ تدلُّ على أنَّها ليست من حجارة الدنيا.

وقيل: «مسومةً»: مرسلَةً، من أَسَمْتُ الإبلَ في المرعَى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

---

(١) عند الآية (٥٢).
(٢) عند الآية (٦٩).
(٣) كما في سورة هود آية (٦٩)، وسورة الحجر آية (٥٢).
(٤) في (م): رفع.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في محلِّ ظهورِ قدرته سبحانه وعظمته عز وجل، والمرادُ: أنَّها معلَّمةٌ في أول خَلْقها، وقيل: المعنى: إنَّها في علم الله تعالى معدَّةٌ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجور، و«أل» عند الإمام للعهد، أي: لهؤلاء المسرفين(١)، ووضع الظاهر موضع الضمير ذمّاً لهم بالإسراف بعد ذمِّهم بالإجرام، وإشارةً إلى علَّة الحكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إلى آخره حكايةٌ من جهته تعالى لِمَا جَرَى على قوم لوطٍ عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جَرَى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام، والفاء فصيحةٌ مُفصِحَةٌ عن جُمَل قد حُذفَت ثقةً بذكرها في موضع آخرَ، كأنَّه قيل: فقاموا منه، وجاؤوا لوطاً، فجرَى بينهم وبينه ما جرى، فباشروا ما أُمِرُوا به، فأخرَجْنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [الحجر:٦٥] إلخ ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قُرَى قوم لوطٍ، وإضمارُها بغير ذكر لشهرتها. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهلِ بيت للبيان بقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فالكلامُ بتقدير مضافٍ، وجوِّز أنْ يُراد بالبيت نفسِه الجماعةُ مجازاً، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ـ عن مجاهد: لوطٌ وابنتاه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنَّه قال: كانوا ثلاثةَ عشر(٢).

واستُدِلَّ بالآية على اتِّحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي، فإنَّ المعنى: فأخرجنا مَن كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرَجُ إلا أهلَ بيتٍ واحد. وإلا لم يَستقم الكلامُ. وأنت تعلم أنَّ هذا يدلُّ على أنَّهما صادقان على الأمر الواحد، لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر كالناطق والإنسان، أما على الاتِّحاد في المفهوم ـ وهو المختلَفُ فيه عند أهل الأصولِ والحديث ـ فلا، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيفٌ، نعم تدلُّ على أنَّهما صِفَتَا مَدْحٍ من أَوجُهٍ عديدة: استحقاق الإخراج، واختلاف الوصفَين، وجعلُ كلٍّ مستقلًّا بأنْ يجعل سبب النجاة، وما في قوله

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/٢١٨.
(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/١١٥.

تعالى: (مَن كَانَ) أولاً و(غَيْرَ بَيْتٍ) ثانياً من الدلالة على المبالغة، فإنَّ صاحبهما محفوظٌ مَن كان، وأين كان إلى غير ذلك.

ومعنى الوِجْدان منسوباً إليه تعالى: العلمُ على ما قاله الراغب[1]، وذهب بعضُ الأجلَّة إلى أنَّه لا يقال: ما وجدتُ كذا، إلا بعد الفحص والتفتيش، وجُعِلَ عليه معنى الآية: فأخرج ملائكتُنا مَن كان فيها من المؤمنين، فما وجد ملائكتنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين. أو في الكلام ضربٌ آخرُ من المجاز فلا تغفل.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في القرى ﴿ءَايَةً﴾ علامةً دالَّة على ما أصابهم من العذاب، قال ابن جريج: هي أحجارٌ كثيرةٌ منضودَةٌ.

وقيل: تلك الأحجار التي أُهلِكُوا بها.

وقيل: ماء مُنتنٌ؛ قال الشهاب: فإنَّه بحيرة طَبرية[2].

وجوَّز أبو حيان كونَ ضمير «فيها» عائداً على الإهلاكة التي أُهلِكُوها، فإنَّها مِن أعاجيب الإهلاك، بجعل أعالي القرية أسافل، وإمطارِ الحجارة[3]. والظاهر هو الأول.

﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: مَن شأنُهم أنْ يخافوه لسلامة فِطْرتهم ورِقَّة قلوبهم، دون مَن عداهم من ذوي القلوب القاسية، فإنَّهم لا يعتَدُّون بها ولا يعدُّونها آية.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على «وتركنا فيها» بتقدير عاملٍ له، أي: وجعلنا في موسى، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة، أو هو عطفٌ على «فيها» بتغليب معنى عاملِ الآية، أو سلوكِ طريقِ المشاكلة في عطفه، على الأوجُهِ التي ذكرها النحاة في نحو:

علفتُها تِبناً وماءً باردا[4]

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (وجد).

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٩٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٠.

(٤) سلف ٥/ ٢٩١ و٦/ ٣٢٥، وغيرها.

لأنه[1] لا يصحُّ تسليطُ الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ فقول أبي حيان: لا حاجةَ إلى إضمار «تركنا»[2] لأنَّه قد أمكنَ [أن يكون] العاملُ في المجرور «تركنا» الأول[3]، فيه بحثٌ.

وقيل: «في موسى» خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: وفي موسى آيةٌ.

وجوَّز ابنُ عطية وغيرُه أنْ يكونَ معطوفاً على قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾[4] وما بينهما اعتراضٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام على ما مرَّ.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه بعيدٌ جدّاً، يُنزَّه القرآنُ الكريم عن مثله[5].

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ قيل: بدلٌ من «موسى». وقيل: هو منصوبٌ بـ «آية». وقيل: بمحذوف، أي: كائنة وقتَ إرسالنا. وقيل: بـ «تركنا».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ هو ما ظهر على يدَيه من المعجزات الباهرةِ، والسلطانُ يُطلَقُ على ذلك مع شموله للواحد والمتعدِّد؛ لأنَّه في الأصل مصدر.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام، على أنَّ رُكنَه جانبُ بَدَنِهِ وعِطْفِهِ، والتولِّي به كنايةٌ عن الإعراض، والباءُ للتعدية؛ لأنَّ معناه ثَنَى عِطْفَه، أو للملابسة.

وقال قتادة: تولَّى بقومه، على أنَّ الركنَ بمعنى القوم؛ لأنَّه يَرْكَنُ إليهم ويَتقوَّى بهم، والباء للمصاحبة أو الملابسة، وكونُها للسببية غيرُ وجيه.

وقيل: تولَّى بقوته وسلطانه، والركن يُستعارُ للقوَّة كما قال الراغب[6].

---

(١) قوله: لأنه، ليس في (م).

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، والصواب «جعلنا» كما في الدر المنثور ١٠/ ٥٤ نقلاً عن أبي حيان.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٠. وقال السمين في الدر ١٠/ ٥٣: ووجْهُ استبعاده له بُعْدُ ما بينهما، وقد فعل أهل العلم هذا في أكثر من ذلك.

(٦) في مفردات ألفاظ القرآن (ركن).

وقرىء: «بِرُكُنِهِ» بضم الكاف[(١)] إتْباعاً للراء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنَّ اللعينَ جَعَل ما ظهر على يدَيه عليه السلام من الخوارق العجيبةِ منسوبةً إلى الجنِّ، وتردَّد في أنَّه حصل باختياره فيكون سحراً، أو بغير اختياره فيكونُ جنوناً، وهذا مبنيٌّ على زعمه الفاسد، وإلا فالسحرُ ليس من الجنِّ كما بُيِّن في محله[(٢)]، فـ«أو» للشكِّ، وقيل: للإبهام، وقال أبو عبيدة: هي بمعنى الواو[(٣)]؛ لأنَّ اللعينَ قال الأمرَين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وأنت تعلم أنَّ اللعين يتلوَّنُ تلون الحرباء، فلا ضرورةَ تدعو إلى جعلها بمعنى الواو.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرحناهم غيرَ معتدِّين بهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، والمراد: فأغرقناهم فيه، وفي الكلام من الدلالة على غاية عِظَمِ شأنِ القدرة الربانية ونهايةِ قَمْأة فرعون وقومِهِ ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه من الكفر والطغيان، فالإفعال هنا للإتيان بما يقتضي معنى ثلاثيِّه، كأغربَ: إذا أتى أمراً غريباً. وقيل: الصيغةُ للنسب، أو الإسنادُ للسبب، وهو كما ترى.

وكون الملام عليه هنا الكفرَ والطغيان هو الذي يقتضيه حالُ فرعون، وهو مما يختلفُ باعتبار مَن وُصِفَ به، فلا يُتَوَهَّم أنَّه كيف وُصِفَ اللعين بما وُصِفَ به ذو النون عليه السلام؟

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ على طِرْز ما تقدَّم ﴿عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ الشديد التي لا تُلقح شيئاً كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم، وفي لفظ: هي ريحٌ لا بركةَ فيها ولا منفعةَ ولا ينزلُ منها غيثٌ ولا يُلقح بها شجر[(٤)]. كأنَّه شبَّه عدمَ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩.

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧.

(٤) المستدرك ٢/ ٤٦٧، واللفظ لأبي الشيخ في العظمة (٨٥٨)، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٧.

تضمُّن المنفعةِ بعُقْم المرأة، ففعيل بمعنى فاعل من اللازم، وكونُ هذا المعنى لا يصحُّ هنا مكابرةٌ.

وقال بعضُهم وهو حسن: سُمِّيَتْ عَقيماً لأنَّها أهلكتهم وقطعَت دابرَهم، على أنَّ هناك استعارةً تبعيةً، شبَّه إهلاكَهم وقطْعَ دابِرهم بعُقم النساء وعدمِ حَمْلهنَّ لِمَا فيه من إذهاب النسل، ثم أَطلَق المشبَّه به على المشبَّه واشتقَّ منه العَقيمَ، وفَعِيْل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول.

وهذه الريحُ كانت الدَّبورَ؛ لِمَا صحَّ من قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبُور»[١].

وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي كرَّم الله تعالى وجهه: أنَّها النكباء[٢]؟

وأخرج ابنُ جرير وجماعة عن ابن المسيب: أنَّها الجنوب[٣].

وأخرج ابنُ المنذر عن مجاهد: أنَّها الصَّبا[٤].

والمعوَّل عليه ما ذكرنا أولاً، ولعلَّ الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غيرُ صحيح.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ﴾ ما تَدَعُ شيئاً ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ جَرَت عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ الشيءِ البالي من عَظْمٍ أو نباتٍ أو غيرِ ذلك، من رَمَّ[٥] الشيءُ: بَلِيَ، ويقال للبالي: رُمَام كغراب، وأَرَمَّ[٦] أيضاً، لكن قال الراغب: يختصُّ الرِّمُّ بالفتات من الخشب والتبن، والرِّمَّة بالكسر تختصُّ بالعظم البالي، والرُّمَّة بالضم بالحبل البالي[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) في الدر المنثور ٦/ ١١٥.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٣٨.
(٤) الدر المنثور ٦/ ١١٥.
(٥) في الأصل: أرم.
(٦) في الأصل: رمّ.
(٧) مفردات الراغب (رمّ).

وفسَّره السدي هنا بالتراب، وقتادة بالهشيم، وقُطرب بالرَّماد، وفسره ابن عيسى بالمنسَحق الذي لا يُرَمُّ، أي: لا يُصلَح، كأنَّه جعل الهمزةَ في أَرَمَّ للسلب.

والجملة بعد «إلا» حالية، والشيءُ هنا عامٌّ مخصوصٌ، أي: مِن شيءٍ أراد الله تعالى تدميرَه وإهلاكه، من ناسٍ أو ديارٍ أو شجر أو غير ذلك. روي أنَّ الريح كانت تمرُّ بالناس فيهم الرجل من عادٍ فتنتزعه من بينهم وتُهلِكه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ أخرج البيهقي في «سننه» عن قتادة: أنَّه ثلاثةُ أيام[١]. وإليه ذهب الفراء وجماعة[٢]، قال: تفسيره قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

واستُشكل بأنَّ هذا التمتُّع مؤخَّرٌ عن العُتُوِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا﴾ [هود: ٦٥] إلخ، وقولُه تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّ العتوَّ مؤخَّرٌ.

وأُجيبَ بأنَّ هذا مرتَّبٌ على تمام القصة، كأنَّه قيل: وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمودَ آيةً، أو: وفي زمان قولنا ذلك لثمودَ آيةٌ، ثم أَخذَ في بيان كونِه آيةً فقيل: «فعَتَوا عن أَمْرِ ربِّهم» أي: فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاء للتفصيل، قال في «الكشف»: وهو الظاهرُ من هذا المساق، وكذلك قوله تعالى: (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ) مرتَّبٌ على القصة زمان إرسالِ موسى عليه السلام بالسلطان، وإنْ كان هناك لا مانعَ من الترتُّب على الإرسال، وذلك لأنَّه جيء بالظرف مجيءَ الفضلة حيث جُعَل فيه الآيةَ، والقصةُ مِن تَولِّيهم إلى هلاكهم. انتهى.

وقال الحسن: هذا - أي: القولُ لهم: «تمتَّعوا حتى حين» - كان حين بعث إليهم صالح؛ أُمروا بالإيمان بما جاء به، والتمتُّعِ إلى أنْ تأتي آجالهم، ثم عتوا بعد ذلك.

---

(١) السنن الكبرى ١٠/ ٦٢.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، وذهب إليه أيضاً القرطبي في تفسيره ١٩/ ٥٠١.

قال في «البحر»: ولذلك جاء العطفُ بالفاء المقتضية تأخُّرَ العتوِّ عما أُمروا به، فهو مطابقٌ لفظاً ووجوداً(١).

واختاره الإمام فقال: قال بعض المفسرين: المرادُ بالحين الأيامُ الثلاثةُ التي أُمهِلُوها بعد عَقْر الناقةِ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ ترتبَ «فعتوا» بالفاء دليلٌ على أنَّ العتوَّ كان بعد القول المذكور، فالظاهرُ أنَّه ما قدَّرَ الله تعالى من الآجال فما مِن أحدٍ إلا وهو مُمْهَلٌ مدَّةَ الأجل، كأنَّه يقول له: تمتَّع إلى آخر أجلك، فإنْ أحسنتَ فقد حَصَل لك التمتُّع في الدارَين، وإلا فما لك في الآخرة من نصيب(٢). انتهى، وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ أي: أهلكتهم، روي أنَّ صالحاً عليه السلام وَعَدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تُصبحُ وجوهُكم غداً مُصفرَّةً، وبعد غدٍ مُحمرَّةً، واليومَ الثالثَ مُسودَّةً، ثم يُصبِّحكم العذابُ. ولمَّا رأوا الآيات التي بيَّنها عليه السلام عَمَدوا إلى قتله فنجَّاه الله تعالى، فذهب إلى أرض فلسطين، ولمَّا كان ضحوةَ اليوم الرابع تحنَّطوا وتكفَّنوا بالأنطاع، فأتتهم الصاعقةُ وهي نارٌ من السماء ـ وقيل: صيحةٌ منها ـ فهلَكوا.

وقرأ عمر وعثمان رضي الله عنهما والكسائي: «الصعقة»(٣)، وهي المرَّةُ من الصَّعْق بمعنى الصاعقة أيضاً، أو الصيحة.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها ويُعاينونها، ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلةَ المُبصَر على القول بأنَّ الصاعقة الصيحةُ، وأنَّ المراد: ينظرون إليها.

وقال مجاهد: «ينظرون» بمعنى ينتظرون، أي: وهم ينتظرون الأخذَ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأَوا فيها علاماته، وانتظارُ العذاب أشدُّ من العذاب.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤١، وعنه نقل المصنف قول الحسن.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) قراءة الكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وقراءة عمر وعثمان رضي الله عنهما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٤٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ١٤١.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقيل: هو من قولهم: ما يقومُ فلانٌ بكذا، إذا عَجَز عن دَفْعه، وروي ذلك عن قتادة، فهو معنًى مجازيٌّ، أو كنايةٌ شاعت حتى التحقَت بالحقيقة ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يتمنَّعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قومَ، فإنَّ ما قبله يدلُّ عليه، أو: واذكر، وقيل: عطف على الضمير في «فأخذَتْهم»، وقيل: في «فنبذناهم» لأنَّ معنى كلٍّ فأهلكناهم، وهو كما ترى.

وجوِّز أنْ يكونَ عطفاً على محلِّ «وفي عادٍ» أو «وفي ثمود» وأُيِّدَ بقراءة عبد الله وأبي عمرو وحمزة والكسائي: «وقومِ» بالجرِّ(١).

وقرأ عبدُ الوارث ومحبوب والأصمعيُّ عن أبي عمرو وأبو السمال وابن مقسم: «وقومُ» بالرفع(٢)، والظاهرُ أنَّه على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ، أي: أهلكناهم.

﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المهلَكين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ أي: وبنينا السماء ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوةٍ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومثله الآد(٣)، وليس جمع «يد» وجوَّزه الإمام(٤)، وإنْ صحَّت التورية به.

---

(١) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في التيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٣٧٧، وهي قراءة خلف من العشرة، وقراءة عبد الله هي: «وفي قوم» كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٨، والكشاف ٤/ ١٩، والبحر ٨/ ١٤١، والدر المصون ١٠/ ٥٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤١.

(٣) الآدُ: الصلب والقوة. القاموس (آد).

(٤) في مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٢٦-٢٢٧.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لقادرون، من الوُسْع بمعنى الطاقة، فالجملةُ تذييلٌ إثباتاً لسعَة قُدرته عز وجل كلَّ شيءٍ فضلاً عن السماء، وفيه رمزٌ إلى التعريض الذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وعن الحسن: «لموسعون» الرزق بالمطر. وكأنَّه أخذَه مِن أنَّ المساقَ مساقُ الامتنان بذلك على العباد لا إظهارُ القدرة، فكأنَّه أُشيرَ في قوله تعالى: (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ) إلى ما تقدَّم من قوله سبحانه: (وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ) على بعض الأقوال، فناسب أنْ يُتمَّمَ بقوله تعالى: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) مبالغةً في المنِّ، ولا يحتاج أنْ يفسر «الأيد» بالإنعام على هذا القول؛ لأنَّه يتمُّ المقصود دونه، واليدُ بمعنى النعمة لا الإنعام.

وقيل: أي: لموسعوها بحيث إنَّ الأرض وما يحيطُ بها من الماء والهواء بالنسبة إليها كحلقة في فلاة.

وقيل: أي: لجاعلون بينها وبين الأرض سِعةً، والمرادُ السعةُ المكانية، وفيه على القولَين تتميمٌ أيضاً.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: وفرشنا الأرض ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: مهدناها وبسطناها لتستقرُّوا عليها، ولا يُنافي ذلك شبهها للكرة على ما يزعمُهُ فلاسفة العصر.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن، وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسم برفع «السماء» ورفع «الأرض»[(١)] على أنَّهما مبتدآن وما بعدهما خبرٌ لهما.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كلِّ جنسٍ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعَين ذكراً وأنثى، قاله ابن زيد وغيره. وقال مجاهد: هذا إشارةٌ إلى المتضادَّات والمتقابلات كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، إلى غير ذلك، ورجَّحه الطبريُّ بأنَّه أدلُّ على القدرة[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٢.
(٢) تفسير الطبري ٢١/٥٤٨.

وقيل: أُريدَ بالجنس المنطقي، وأقلُّ ما يكون تحتَه نوعان، فخلَقَ سبحانه من الجوهرَ مثلاً الماديَّ والمجرَّد، ومن الماديِّ الناميَ والجامد، ومن النامي المدْرِك والنبات، ومن المدرك الصامت والناطق، وهو كما تَرَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فَعَلْنا ذلك كلَّه كي تتذكَّروا فتعرِفُوا أنَّه عز وجل الربُّ القادرُ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ما سواه.

وقيل: خَلَقْنا ذلك كي تتذكروا فتعلموا أنَّ التعدُّد من خواصِّ الممكِنَات وأنَّ الواجبَ بالذات سبحانه لا يقبلُ التعدُّد والانقسام.

وقيل: المرادُ التذكُّر بجميع ما ذُكِرَ لأمرِ الحشر والنشر؛ لأنَّ مَن قدر على إيجاد ذلك فهو قادرٌ على إعادة الأموات يوم القيامة. وله وجهٌ.

وقرأ أُبيٌّ: «تتذكرون» بتاءين وتخفيف الذال[1].

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تفريعٌ على قوله سبحانه: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وهو تمثيلٌ للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل، والمعنى: قل يا محمد: ففِرُّوا إلى الله لمكانِ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من عقابه تعالى المعدِّ لمن لم يَفِرَّ إليه سبحانه ولم يُوحِّده ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن كونَه مُنذِراً من الله سبحانه بالمعجزات، أو «مبين» ما يجبُ أنْ يُحذر عنه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عطف على الأمر، وهو نهيٌ عن الإشراك صريحاً على نحو: وحِّدُوه ولا تشركوا. ومن الأذكار المأثورة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[2].

وكرَّر قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لاتِّصال الأولِ بالأمر واتصال هذا بالنهي، والغرضُ من كلِّ ذلك الحثُّ على التوحيد والمبالغةُ في النصيحة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٨١، والبحر المحيط ٨/ ١٤٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٨١٩٢)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وقيل: إنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الأمرُ بالإيمان وملازمة الطاعة، وذكَر «ولا تجعلوا» إلخ إفراداً لأعظم ما يجبُ أنْ يفرَّ منه، و«إنِّي لكم» إلخ الأول مرتَّبٌ على ترك الإيمان والطاعة، والثاني على الإشراك، فهما متغايران لتغاير ما ترتَّب كلٌّ منهما عليه ووقع تعليلاً له. ولا يخلو عن كَدَر.

وقال الزمخشري في الآية: فِرُّوا إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه، ووحِّدُوا ولا تشركوا به، وكرّر «إنِّي لكم» إلخ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليُعلَمَ أنَّ الإيمان لا ينفعُ إلا مع العمل، كما أنَّ العمل لا ينفعُ إلا مع الإيمان وأنَّه لا يفوزُ عند الله تعالى إلا الجامع بينهما[1]. انتهى.

وفيه أنَّه لا دلالة في الآية على ذلك بوجهٍ، ثم تفسيرُ الفرار إلى الله بما فسَّره أيضاً لينطبقَ على العمل وحده غيرُ مسلَّمٍ، على أنَّه لو سُلِّم الإنذار بترك العملِ فمن أين يلزمُ عدمُ النفع، وأهل السنَّة لا يُنازعون في وقوع الإنذار بارتكاب المعصية، فالمنساقُ إلى الذِّهن على تقدير كونِ المرادِ بالفرار إلى الله تعالى العبادةَ أنَّه تعالى أمَر بها أولاً، وتوعَّد تاركها بالوعيد المعروفِ له في الشرع، وهو العذابُ دون خلود، ونهى جل شأنه ثانياً أنْ يُشرك بعبادته سبحانه غيرُه، وتوعَّد المشركَ بالوعيد المعروف له وهو الخلودُ، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرَين، وتكونُ الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظيرَ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] وأين هذا مما ذكره الزمخشريُّ، عامله الله تعالى بعدله؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ مثلُ ذلك، تقريرٌ وتوكيدٌ على ما مرَّ غير مرَّة، ومِن فصل الخطاب، لأنَّه لمَّا أراد سبحانه أنْ يستأنفَ قصةَ قولهم المختلفِ في الرسول ﷺ بعد أنْ تقدَّمت عموماً أو خصوصاً في قوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ) وكان قد توسَّط ما توسط، قال سبحانه: الأمر كذلك، أي: مثل ما يُذكَر ويأتيك خبرُه،

(١) الكشاف ٤/ ٢٠.

إشارةً إلى الكلام الذي يتلوه، أعني: قوله عز وجل: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ إلى آخره، فهو تفسيرُ ما أجمل، وهو مرادُ مَن قال: الإشارةُ إلى تكذيبهم الرسولَ عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه ـ وحاشاه ـ ساحراً ومجنوناً.

ويُعلَمُ مما ذُكِرَ أنَّ «كذلك» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ولا يجوز نصبُه بـ «أَتَى» على أنَّه صفةٌ لمصدره، والإشارةُ إلى الإتيان، أي: ما أَتَى الذين من قبلهم مِن رسولٍ إتياناً مثل إتيانهم إلا قالوا.. إلخ؛ لأنَّ ما بعد «ما» النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور، ولا بـ «أتى»(١) مقدَّراً على شريطة التفسير؛ لأن ما لا يعمل لا يفسِّر عاملاً في مثل ذلك كما صرَّح به النحاة.

وجَعْلُه معمولاً لـ «قالوا» والإشارةُ للقول، أي: إلا قالوا ساحر أو مجنون قولاً مثل ذلك القول، لا يجوز أيضاً على تعسُّفه؛ لمكان «ما».

وضميرُ «قبلَهم» لقريش، أي: ما أتى الذين من قبل قريش ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: رسول من رُسُل الله تعالى ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقِّه: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ساحر، و«أو» قيل: مِن الحكاية، أي: إلا قالوا: ساحرٌ، أو: قالوا: مجنون، وهي لمنع الخُلوِّ، وليسَت من المحكي ليكونَ مقولَ كلٍّ مجموعُ «ساحر أو مجنون».

وفي «البحر»: هي للتفصيل، أي: قال بعضٌ: ساحر، وقال بعضٌ: مجنون، وقال بعضٌ: ساحرٌ ومجنون، فجمِعَ القائلون في الضمير ودلَّت «أو» على التفصيل(٢). انتهى، فلا تغفل.

واستشكلَت الآية بأنَّها تدلُّ على أنَّه ما من رسول إلا كُذِّب، مع أنَّ الرسل المقرِّرين شريعةَ مَن قبلَهم كـ: يوشع عليه السلام لم يكذَّبوا، وكذا آدم عليه السلام أُرسِل ولم يُكذَّب.

---

(١) في (م): يأتي، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٠٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٢.

وأجاب الإمام بقوله: لا نُسلِّم أنَّ المقرِّر رسولٌ، بل هو نبيٌّ على دين رسولٍ، ومَن كَذَّب رسولَه فهو يُكذِّبُه أيضاً[1].

وتُعقِّب بأنَّ الأخبار وكذا الآيات دالةٌ على أنَّ المقرِّرين رُسُلٌ، وأيضاً يبقَى الاستشكال بآدم عليه السلام، وقد اعترف هو بأنَّه أُرسل ولم يكذَّب.

وأجاب بعضٌ عن الاستشكال بالمقرِّرين: بأنَّ الآية إنَّما تدلُّ على أنَّ الرسل الذين أَتَوا مِن قبلهم كلّهم قد قيل في حقِّهم ما قيل، ولا يدخُل في عموم ذلك المقرِّرون؛ لأنَّ المتبادر من إتيان الرسول قوماً مجيئُه إياهم مع عدم تبليغِ غيرِه إياهم ما أَتَى به مَن قبلَه، وذلك لم يحصُل للمقرِّر شرعَ مَن قبلَه كما لا يخفى.

وعن الاستشكال بآدم عليه السلام: بأنَّ المراد: ما أَتَى الذين مِن قبلهم من الأمم الذين كانوا موجودين على نحو وجودِ هؤلاء رسولٌ إلا قالوا.. إلخ، وآدم عليه السلام لم يأتِ أمةً كذلك، إذ لم يكن حين أُرسل إلا زوجتُه حواء. ولعلَّه أولَى مما قيل: إن المراد: مِن رسول من بني آدم، فلا يدخل هو عليه السلام في ذلك.

واستشكلت أيضاً بأنَّ «إلا قالوا» يدلُّ على أنَّهم كلّهم كُذِّبوا مع أنَّه ما مِن رسول إلا آمن به قومٌ.

وأجاب الإمام: بأنَّ إسناد القولِ إلى ضمير الجمع على إرادةِ الكثير بل الأكثر، وذُكر المكذِّب فقط لأنَّه الأوفقُ بغرض التسليةِ[2].

وأَخذَ منه بعضُهم الجوابَ عن الاستشكال السابق فقال: الحكمُ باعتبار الغالب، لا أنَّ كلَّ أمةٍ من الأمم أتاها رسولٌ فكذبته لِيَرِدَ آدمُ والمقرِّرون حيث لم يكذَّبوا. وفيه ما فيه.

وحمل بعضُهم «الذين مِن قبلهم» على الكفار، ودفع به الاستشكالَين. وفيه ما لا يخفى.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٠.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٠.

فتأمل جميع ذلك، ولا تظنَّ انحصارَ الجواب فيما سمعتَ، فأَمْعِنِ النظر والله تعالى الهادي لأحسن المسالك.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ تعجيبٌ من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي: كأنَّ الأوَّلين والآخرين منهم أَوصَى بعضُهم بعضاً بهذا القول، حتى قالوه جميعاً، وقيل: إنكارٌ للتواصي، أي: ما تواصَوا به.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أنَّ التواصي جامعُهم إلى أنَّ الجامعَ لهم على ذلك القولِ مشاركتُهم في الطغيان الحامل عليه.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن جدالهم، فقد كَرَّرْتَ عليهم الدعوة، ولم تألُ جهداً في البيان، فأَبَوا إلا إباءً وعناداً ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولِّي بعد ما بذلْتَ المجهودَ وجاوزَت في الإبلاغ كلَّ حدٍّ معهود.

﴿وَذَكِّرْ﴾ دُمْ[١] على فعل التذكير والموعظة ولا تَدَعْ ذلك؛ فالأمرُ بالتذكير للدوام عليه، والفعلُ منزَّلٌ منزلَة اللازم. وجوِّز أنْ يكون المفعولُ محذوفاً، أي: فذكِّرهم، وحُذِف لظهور الأمر.

﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين قَدَّر الله تعالى إيمانَهم، أو المؤمنين بالفعل، فإنها تزيدُهم بصيرةً وقوةً في اليقين، وفي «البحر»[٢]: يدلُّ ظاهرُ الآية على الموادعة، وهي منسوخةٌ بآية السيف.

وأخرج أبو داود في «ناسخه» وابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) إلخ، قال: أَمَره الله تعالى أنْ يتولَّى عنهم ليعذِّبَهم وعَذَر محمداً ﷺ، ثم قال سبحانه: (وَذَكِّرْ) إلخ فنسخَتها[٣].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» والضياء في «المختارة» وجماعة من طريق مجاهد عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: لمَّا نزلت: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

(١) في (م): ادم.
(٢) ٨/ ١٤٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١١٦.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لم يبقَ منَّا أحدٌ إلا أيقنَ بالهلكة، إذ أُمر النبيُّ ﷺ أنْ يتولَّى عنَّا، فنزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسُنا[1].

وعن قتادة: أنَّهم ظنُّوا أنَّ الوحيَ قد انقَطع، وأنَّ العذاب قد حضَر فأنزل الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ﴾ إلخ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ استئنافٌ مؤكِّد للأمر، مقرِّرٌ لمضمون تعليله، فإنَّ خَلْقَهم لِمَا ذَكَر سبحانه وتعالى مما يدعوه ﷺ إلى تذكيرهم، ويُوجب عليهم التذكُّر والاتِّعاظَ، ولعل تقديم الجنِّ في الذكر لتقدُّم خَلْقِهم على خَلْق الإنس في الوجود، والظاهرُ أنَّ المراد مَن يُقابَلون بهم وبالملائكة عليهم السلام، ولم يُذكَر هؤلاء قيل: لأنَّ الأمر فيهم مسلَّمٌ، أو لأنَّ الآيةَ سيقَت لبيان صَنيع المكذِّبين، حيث تركوا عبادةَ الله تعالى وقد خُلِقُوا لها؛ وهذا التركُ مما لا يكون فيهم، بل هم عبادٌ مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل.

وقيل: لأنَّه ﷺ ليس مبعوثاً إليهم، فليس ذكرُهم في هذا الحكم مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم. وأنت تعلم أنَّ الأصحَّ عمومُ البعثة، فالأَولى ما قيل بدله، لاستغنائهم عن التذكير والموعظة.

وقيل: المرادُ بـ «الجنِّ» ما يتناولهم؛ لأنَّه من الاستتار، وهم مستترون عن الإنس. وقيل: لا يصحُّ ذكرهم في حيِّز الخلق؛ لأنَّهم كالأرواح من عالم الأمرِ المقابلِ لعالم الخلق، وقد أُشير إليهما بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ورُدَّ بقوله سبحانه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] و«له الخلق والأمر» ليس كما ظنَّ.

والعبادة غايةُ التذلُّل، والظاهرُ أنَّ المراد بها ما كانت بالاختيار دون التي بالتسخير الثابتةِ لجميع المخلوقات، وهي الدلالة المنبِّهة على كونها مخلوقةً، وأنَّها

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥، وشعب الإيمان (١٧٥٠)، والأحاديث المختارة (٧١٤)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٦.

خَلْقُ فاعلٍ حكيم، ويعبَّر عنها بالسجود كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

و«أل» في «الجن» و«الإنس» على المشهور للاستغراق.

واللامُ قيل: للغاية، والعبادة وإنْ لم تكن غايةً مطلوبة من الخلق، لقيام الدليل على أنَّه عز وجل لم يخلق الجنَّ والإنس لأجلها، أي: لإرادتها منهم، إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلَّف ذلك، لاستلزام الإرادةِ الإلهية للمراد، كما بُيِّن في الأصول، مع أنَّ التخلُّفَ محقَّقٌ بالمشاهدة، وأيضاً ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يدلُّ على إرادة المعاصي من الكثير ليستحِقُّوا بها جهنَّم فيُنافي إرادةَ العبادةِ، لكن لمَّا كان خلقُهم على حالةٍ صالحة للعبادة مستعدَّةٍ لها، حيث ركَّب سبحانه فيهم عقولاً وجعل لهم حواسَّ ظاهرةً وباطنةً، إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد، جَعَل خلْقَهم مغيّاً بها، مبالغةً بتشبيه المعدِّ له الشيءُ بالغاية، ومثلُه شائعٌ في العرف، ألا تراهم يقولون للقويِّ جسمُه: هو مخلوقٌ للمصارعة، وللبقر: هي مخلوقةٌ للحرث.

وفي «الكشف»: إنَّ أفعالَه تعالى تَنساقُ إلى الغايات الكمالية، واللامُ فيها موضوعُها ذلك، وأما الإرادة فليسَت من مقتضَى اللام إلا إذا عُلِمَ أنَّ الباعث مطلوبٌ في نفسه، وعلى هذا لا يُحتاجُ إلى تأويلٍ، فإنَّهم خُلِقُوا بحيث يتأتَّى منهم العبادة، وهُدُوا إليها، وجُعِلَت تلك غايةً كماليةً لخلقهم، وتعوُّقُ بعضِهم عن الوصول إليها لا يمنعُ كونَ الغاية غايةً، وهذا معنًى مكشوفٌ. انتهى، فتأمل.

وقيل: المرادُ بالعبادة التذلُّلُ والخضوع بالتسخير، وظاهرٌ أنَّ الكلَّ عابدون إياه تعالى بذلك المعنى، لا فرقَ بين مؤمنٍ وكافر، وبرٍّ وفاجر.

ونحوُه ما قيل: المعنى: ما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَذِلُّوا لقضائي.

وقيل: المعنى: ما خلقتُهم إلا ليكونوا عباداً لي، ويرادُ بالعبد العبدُ بالإيجاد، وعمومُ الوصف عليه ظاهرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي

ﵟالرَّحْمَٰنِ عَبْدًاﵞ [مريم:٩٣] لكن قيل عليه: إنَّ عَبَدَ بمعنى صار عبداً ليس من اللغة في شيء.

وقيل: العبادةُ بمعنى التوحيد بناءً على ما روي عن ابن عباس أنَّ كلَّ عبادةٍ في القرآن فهو توحيدٌ، فالكلُّ يوحِّدونه تعالى في الآخرة، أما توحيدُ المؤمنِ في الدنيا هناك فظاهرٌ، وأما توحيدُ المشرك فيدلُّ عليه قوله تعالى: ﵟثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَﵞ [الأنعام:٢٣] وعليه قولُ مَن قال: لا يدخلُ النار كافرٌ.

أو المراد كما قال الكلبي: إنَّ المؤمن يُوحِّدُه في الشدَّة والرخاء، والكافر يوحِّدُه سبحانه في الشدَّةِ والبلاء دونَ النعمةِ والرخاءِ، كما قال عز وجل: ﵟفَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَﵞ [العنكبوت:٦٥]. ولا يخفَى بُعْدُ ذلك عن الظاهر والسياق.

ونُقِل عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس ﵄: ما خلقتُهم إلا لآمرَهم وأدعوهم للعبادة. فهو كقوله تعالى: ﵟوَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَﵞ [البينة:٥] فذكر العبادة المسبَّبَةِ شرعاً عن الأمر أو اللازمة له، وأُريدَ سببها أو ملزومها فهو مجازٌ مرسل، وأنت تعلم أنَّ أمرَ كلٍّ مِن أفراد الجنِّ وكلٍّ مِن أفراد الإنس غيرُ متحقِّق، لاسيَّما إذا كان غيرُ المكلَّفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمانِ التكليف داخلين في العموم.

وقال مجاهد: إنَّ معنى «ليعبدون»: ليعرفون، وهو مجازٌ مرسَل أيضاً من إطلاق اسمِ السبب على المسبَّب على ما في «الإرشاد»، ولعل السرَّ فيه التنبيهُ على أنَّ المعتبَر هي المعرفةُ الحاصلةُ بعبادته تعالى، لا ما يحصُل بغيرها كمعرفةِ الفلاسفة[١].

وقيل وهو حَسَنٌ: لأنَّهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يُعرَف وجودُه وتوحيدُه سبحانه وتعالى، وقد جاء: «كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أنْ أُعرفَ، فخلقْتُ الخلقَ لأُعرفَ»[٢].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٥.

(٢) لا أصل له، وسلف ١/ ١٩٩، ٤/ ١٥٤.

وتُعقب بأنَّ المعرفَة الصحيحةَ لم تتحقَّق في كلٍّ بل بعضٌ قد أنكر وجودَه عز وجل كالطبيعيين اليوم، فلا بدَّ من القول السابق في توجيه التعليل، ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغاني في «منتهى المدارك»[١]، وذكره غيره كالشيخ الأكبر في الباب المئة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر[٢]. وتعقَّبه الحفاظ فقال ابنُ تيمية[٣]: إنَّه ليس من كلام النبيِّ ﷺ، ولا يُعرف له سندٌ صحيحٌ ولا ضعيف. وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر[٤] وغيرهما، ومَن يَرويه من الصوفية معترِفٌ بعدم ثُبوته نقلاً لكنْ يقول: إنَّه ثابتٌ كشفاً، وقد نصَّ على ذلك الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في الباب المذكور، والتصحيحُ الكشفي شنشنةٌ لهم، ومع ذلك فيه إشكالٌ معنًى، إلا أنَّه أُجيبَ عنه ثلاثة أجوبة ستأتي[٥] إن شاء الله تعالى.

وقيل: «أل» في «الجن والإنس» للعهد، والمرادُ بهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الآية [الأعراف:١٧٩] أي: بناء على أنَّ اللام فيها ليست للعاقبة، ونُسِب هذا القولُ لزيد بن أسلم وسفيان، وأُيِّد بقوله تعالى قبل: (فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وأيَّده في «البحر» برواية ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «وما خلقْتُ الجنَّ والإنسَ من المؤمنين»[٦] ورواها بعضُهم قراءةً لابن عباس رضي الله عنهما[٧].

ومن الناس مَن جعلها للجنس، وقال: يكفي في ثبوت الحكمِ له ثبوتُه لبعض أفرادِه، وهو هنا المؤمنون الطائعون، وهو في المآل متَّحدٌ مع سابقه، ولا إشكال على ذلك في جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقةً، وكذا في جعلها للغرض عند مَن

---

(١) منتهى المدارك ومشتهى لبِّ كلِّ كامل وعارف وسالك، وهو شرح لتائية ابن الفارض في التصوف لمحمد بن أحمد الشهير بسعيد الفرغاني الصوفي، المتوفى سنة (٦٩٩هـ). كشف الظنون ١/ ٢٦٦ وهدية العارفين ٢/ ١٣٩-١٤٠.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٣٩٩، ولفظه فيه: «كنت كنزاً لم أعرف، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني».

(٣) في مجموع الفتاوى ١٨/ ١٢٢، ٣٧٦.

(٤) المقاصد الحسنة ص ٣٢٧.

(٥) ص٥٩-٦٠ من هذا الجزء.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٣، والبحر المحيط ٨/ ١٤٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.

يجوِّزُ تعليلَ أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتي وعدمِ الاستكمالِ بالغير، كما ذهب إليه كثيرٌ من السلف والمحدِّثين، وقد سمعْتُ أنَّ منهم مَن يقسمُ الإرادةَ إلى شرعية تتعلَّق بالطاعات، وتكوينيةٍ تتعلَّق بالمعاصي وغيرها، وعليه يجوز أنْ يبقى «الجن والإنس» على شمولهما للعاصين، ويقال: إنَّ العبادةَ مرادةٌ منهم أيضاً لكن بالإرادة الشرعية إلا أنَّه لا يتمُّ إلا إذا كانت هذه الإرادةُ لا تستلزم وقوعَ المراد، كالإرادة التفويضية القائلِ بها المعتزلة.

هذا، وإذا أحطتَ خُبراً بالأقوال في تفسير هذه الآية، هانَ عليك دفعُ ما يتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩] على تقدير كونِ الإشارةِ إلى الاختلاف بالتزام بعضِ هاتيك الأقوال فيها.

ودَفَعه بعضُهم بكون اللام في تلك الآية للعاقبة، والذي ينساقُ إلى الذهن أنَّ الحصر إضافيٌّ، أي: خلقتُهم للعبادة دون ضدها، أو دون طلب الرزق والإطعام، على ما يُشير إليه كلامُ بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝﴾ وهو لبيان أنَّ شأنه ـ تعالى شأنه ـ مع عباده ليس كشأن السادةِ مع عبيدهم؛ لأنَّهم إنما يملكونَهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، ومالكُ مُلَّاكِ العبيد نَفَى ـ عز وجل ـ أنْ يكون ملكُه إياهم لذلك، فكأنَّه قال سبحانه: ما أُريدُ أنْ أستعينَ بهم كما يستعينُ مُلَّاك العبيد بعبيدهم، فليشتغلوا بما خُلِقُوا له من عبادتي.

وذكر الإمام فيه وجهَين: الأول: أنْ يكونَ لدفع توهُّم الحاجة مِن خَلْقهم للعبادة، والثاني: أنْ يكونَ لتقرير كونهم مخلوقينَ لها، وبَيَّن هذا بأنَّ الفعل في العُرف لابدَّ له من منفعة، لكن العبيد على قسمَين: قسمٌ يُتَّخذُون لإظهار العظمةِ بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك، وقسمٌ يُتَّخذُون للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنَّه قال سبحانه: إنِّي خلقتُهم ولابدَّ فيهم من منفعةٍ، فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أنْ يُطلَبَ منهم تحصيلُ رزقٍ؟ وليسوا كذلك، فما أُريدُ منهم من رزق، وهل هم ممن يُطلَب منهم إصلاحُ قوتٍ

كالطبَّاخ ومَن يقرّب الطعام؟ وليسوا كذلك، فما أُريدُ أنْ يُطعمون، فإذاً هم عبيدٌ من القسم الأول، فينبغي أنْ لا يتركوا التعظيمَ.

والظاهرُ أنَّ المعنى: ما أُريدُ منهم مِن رزقٍ لي؛ لمكان قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ وإليه ذهب الإمام.

وذَكَر في الآية لطائفَ:

الأُولى: أنَّه سبحانه كرَّر نَفْي الإرادتين، لأنَّ السيد قد يطلبُ من العبد التكسُّبَ له، وهو طلبُ الرزق، وقد لا يطلبُ حيث كان له مال وافرٌ، لكنَّه يطلبُ قضاءَ حوائجه من حِفْظِ المال وإحضارِ الطعام من ماله بين يديه، فنَفْي الإرادة الأُولَى لا يستلزمُ نَفْيَ الإرادةِ الثانية، فكرَّر النهيَ على معنى: لا أُريدُ هذا ولا أُريدُ ذلك.

الثانية: أنَّ ترتيبَ النَّفْيَين كما تضمَّنه النظمُ الجليل من باب الترقِّي في بيان غِناهُ عز وجل، كأنَّه قال سبحانه: لا أَطلبُ منهم رزقاً ولا ما هو دونَ ذلك، وهو تقديمُ الطعام بين يدَي السيد، فإنَّ ذلك أمرٌ كثيراً ما يُطلَبُ من العبيد إذا كان التكسُّب لا يطلَبُ منهم.

الثالثة: أنَّه سبحانه قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ دون: ما أُريدُ منهم أنْ يرزقون؛ لأنَّ التكسُّب لطَلَب العين[1] لا الفعل، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ دونَ: ما أُريدُ من طعامٍ؛ لأنَّ ذلك للإشارة إلى الاستغناء عما يفعلُه العبد الغيرُ المأمور بالتكسُّب كعبد وافرِ المال، والحاجة إليه للفعل نفسه.

الرابعة: أنَّه جل وعلا خصَّ الإطعامَ بالذكر؛ لأنَّ أدنَى درجاتِ الاستعانةِ أنْ يستعينَ السيدُ بعبده في تهيئة أمر الطعام، ونَفْيُ الأدنى يَتْبعُه نَفْيُ الأعلى بطريق الأَولَى، فكأنَّه قيل: ما أُريدُ منهم من عَيْنٍ ولا عمل.

الخامسة: أنَّ «ما» لنَفْي الحال إلا أنَّ المرادَ به الدنيا، وتعرَّضَ له دون نَفْي

---

(١) في تفسير الرازي: لطلب الغنى.

الاستقبال؛ لأنَّ من المعلوم البيِّن أنَّ العبدَ بعد موتِه لا يصلُح أنْ يُطلَب منه رزقٌ أو إطعامٌ[(١)]. انتهى، فتأمله.

ويُفهَم من ظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ المعنى: ما أُريدُ منهم من رزقٍ لي ولهم[(٢)].

وفي «البحر»: «ما أُريدُ منهم من رزق» أي: أنْ يرزقوا أنفسَهم ولا غيرَهم «وما أُريدُ أنْ يطعمون» أي: أن يُطعموا خَلْقي، فهو على حذف مضافٍ، قاله ابن عباس[(٣)]. انتهى.

ونحوه ما قيل: المعنى: ما أُريدُ أنْ يرزقوا أحداً مِن خَلْقي، ولا أُريدُ أنْ يطعموه.

وأسند الإطعامَ إلى نفسه سبحانه؛ لأنَّ الخلقَ كلَّهم عيالُ الله تعالى، ومن أطعمَ عيالَ أحدٍ فكأنما أطعَمه، وفي الحديث: «يا عبدي مرضْتُ فلم تَعُدْني، وجُعْتُ فلم تُطعِمْني»[(٤)] فإنَّه ـ كما يدلُّ عليه آخرُه ـ على معنى: مرضَ عبدي فلم تَعُدْهُ، وجاعَ فلم تُطْعِمْهُ.

وقيل: الآيةُ مقدَّرةٌ بـ: قُلْ، فتكون بمعنى قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] والغيبة فيها رعاية للحكاية، إذ في مثل ذلك يجوزُ الأمران الغيبة والخطاب، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢][(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٣.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدَمَ مرضتُ فلم تَعُدْني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم اسْتَطْعَمتُك فلم تُطعِمني. قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمتَه لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم اسْتَسْقَيْتُك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقِهِ. أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

(٥) سلفت ٤/ ٥٢.

وقيل: المرادُ: قل لهم وفي حقِّهم، فتلائمه الغيبة في «منهم» و«يطعمون»، ولا ينافي ذلك قراءة: «إنِّي أنا الرزاق» فيما بعد[(١)]؛ لأنَّه حينئذٍ تعليلٌ للأمر بالقول أو الائتمار لا لعدم الإرادة، نعم لا شكَّ في أنَّه قولٌ بعيدٌ جداً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ مُفتَقرٍ إلى الرزق، لا غيرُه سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً، ويُفهَم من ذلك استغناؤُه عزَّ وجل عن الرزق.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: القدرةِ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ شديد القوة.

والجملةُ تعليلٌ لعدم الإرادة، قال الإمام: كونُه تعالى هو الرزاق ناظرٌ إلى عدم طلبِ الرزق؛ لأنَّ من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً؛ وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظرٌ إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) لأنَّ مَن يطلبه يكونُ عاجزاً لا قوةَ له، فكأنَّه قيل: ما أُريدُ منهم من رزقٍ لأنِّي أنا الرزاق، وما أُريدُ منهم من عمل؛ لأنِّي قويٌّ متينٌ. وكان الظاهر: إنِّي أنا الرزاق، كما جاء في قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة[(٢)].

والتعبيرُ بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية، فيكونُ في ذلك إشعارٌ بعلَّة الحكم، ولتخرج الآية مخرجَ المثل كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] والتعبيرُ به على القول بتقدير «قل» فيما تقدَّم هو الظاهر، وتحتاجُ القراءة الأُخرى إلى ما ذكرناه آنفاً.

وآثر سبحانه «ذو القوة» على القوي قيل: لأنَّ في «ذو» ـ كما قال ابن حجر الهيتمي وغيرُه ـ: تعظيمَ ما أُضيفَت إليه، والموصوفُ بها والمقامُ يقتضيه، ولذا جِيْءَ بـ «المتين» بعدُ، ولم يُكتفَ به عن الوصف بـ «القوة».

وقال الإمام: لـمَّا كان المقصودُ تقريرَ ما تقدَّم من عدم إرادةِ الرزق وعدمِ

(١) انظر التعليق الآتي.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٥-٢٣٦، والقراءة أخرجها الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٠٨)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وقال: حديث حسن صحيح. اهـ. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٥.

الاستعانة بالغير جيءَ بوصف الرزق على صيغة المبالغة؛ لأنَّه بدونها لا يكفي في تقرير عدمِ إرادة الرزق، وبوصف القوة بما لا مبالغةَ فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة، فإنَّ مَن له قوةٌ دون الغاية لا يستعينُ بغيره، لكنْ لمَّا لم يَدُلَّ «ذو القوة» على أكثر مِن أنَّ له تعالى قوةً ما، زِيدَ الوصفُ بالمتين، وهو الذي له ثباتٌ لا يتزلزل، ثم قال: إنَّ القويَّ أبلغُ من ذي القوة، والعزة أكملُ من المتانة، وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وفي قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ) إلخ لما اقتضى المقام ذلك[١]. وقد أطال الكلامَ في هذا المقامِ وما أظنُّه يصفُو عن كدر.

وقرأ ابنُ محيصن: «الرازق» بزنة الفاعل[٢].

وقرأ الأعمش وابن وثاب: «المتين» بالجرِّ[٣]، وخرِّج على أنَّه صفة «القوة»، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار، أو لكونه على زِنَة المصادر التي يستوي فيها المذكَّر والمؤنَّث، أو لإجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول، وأجاز أبو الفتح أنْ يكونَ صفةً لـ «ذو» وجُرَّ على الجوار كقولهم: هذا جُحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، وضُعِّف.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: إذا ثبتَ أنَّ الله تعالى ما خلق الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوه، وأنَّه سبحانه ما يريد منهم من رزقٍ، إلى آخر ما تقدَّم، فإنَّ للذين ظلموا أنفسَهم باشتغالهم بغير ما خُلِقُوا له من العبادة، وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسولَه عليه الصلاة والسلام، وهم أهلُ مكة وأضرابهم من كفار العرب = ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ﴾ أي: نصيب ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نظرائهم من الأمم السالفة.

وأصلُ الذَّنوبُ: الدَّلْوُ العظيمةُ الممتلئة ماءً أو القريبةُ من الامتلاء، قال

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٨٣، والبحر المحيط ٨/ ١٤٣.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ١٤٣.

الجوهريُّ: ولا يقال لها: ذَنوبٌ، وهي فارغة، وهي تُذكَّرُ وتُؤنَّث، وجمعُها أَذْنِبة وذَنَائب[١]، فاستُعيرَت للنصيب مطلقاً شرًّا كان كالنصيب من العذاب في الآية، أو خيراً كما في العطاء في قول علقمةَ بن عَبَدَةَ التميمي يمدحُ الحارث بنَ أبي شَمِر الغسَّاني وكان أَسرَ أخاه شأساً يوم عين أباغ:

وفي كلِّ حيٍّ قد خَبَطتَ بنعمةٍ　　فحُقَّ لِشَأسٍ من نَدَاك ذَنُوبُ

يُروَى أنَّ الحارثَ لمَّا سمع هذا البيت قال: نَعَم وأَذْنِبَة[٢]. ومن استعمالها في النصيب قول الآخر[٣]:

لعمرُك والمنايا طارقاتٌ　　لكل بَني أَبٍ منها ذَنوبُ

وهو استعمالٌ شائع. وفي «الكشاف»: هذا تمثيلٌ أصلُه في السُّقاة يقتسمون الماء فيكونُ لهذا ذَنُوبٌ ولهذا ذنوب؛ قال الراجز:

إنَّا إذا نازَلَنا غريبٌ

لَهُ ذنوبٌ ولَنَا ذنوبُ

وإنْ أَبيتُم فَلَنَا القليبُ[٤]

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: لا يطلبوا منِّي أنْ أُعجِّلَ في الإتيان به، يقال: استعجَلَه، أي: حثَّه على العجَلَة وطَلَبها منه، ويقال: استعجلتُ كذا، أي[٥]: طلبتُ وقوعَه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وهو على ما في «الإرشاد»: جوابٌ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٧١][٦].

---

(١) الصحاح (ذنب)، في الأصل: ذنابيب.

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٢٢١-٢٢٢، والكامل ١/ ٢٥١-٢٥٢، والبيت في ديوان علقمة ص٤٨، والبحر المحيط ٨/ ١٣٢.

(٣) هو أبو ذؤيب الهذلي، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧، والكشاف ٤/ ٢١، واللسان (ذنب)، والبحر المحيط ٨/ ١٣٢ والكلام منه، وفي المصادر عدا البحر: له ذنوب ولكم ذنوب.

(٥) في (م): إن.

(٦) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٤٥.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فويلٌ لهم، ووضع الموصول موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيِّز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلَّة الحكم، والفاء لترتيب ثبوتِ الويلِ لهم على أنَّ لهم عذاباً عظيماً، كما أنَّ الفاء التي قبلها لترتيب النَّهي عن الاستعجال على ذلك. و«مِنْ» في قوله سبحانه: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ للتعليل؛ والعائدُ على الموصول محذوفٌ، أي: يوعدونه، أو: يوعدون به على قول.

والمرادُ بذلك اليوم قيل: يومُ بدر، ورجح بأنَّه الأوفقُ لِمَا قبله من حيث إنَّه ذَنوبٌ من العذاب الدنيوي، وقيل: يومُ القيامة، ورجح بأنَّه الأنسبُ لِمَا في صدر السورة الكريمة الآتية، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قاله بعضُ أهل الإشارة في بعض الآيات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾ إشارة إلى الرياح التي تحملُ أنينَ المشتاقين، المتعرِّضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزَّة، ثمَّ تأتي بنَسيمِ نَفَحات الحقِّ إلى مشامِّ المحبين، فيجدون راحةً مّا من غلبات اللَّوعة.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ إشارة إلى سحائب ألطافِ الألوهية، تحملُ أمطارَ مراحمِ الربوبية، فتمطر على قلوب الصديقين. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ إشارة إلى سُفُن أفئدةِ المحبين، تجري برياح العناية في بحر التوحيد على أيسر حال. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القُدسِ بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة.

وإنْ شئتَ جعلْتَ الكلَّ إشارةً إلى أنواع رياح العناية، فمنها ما يطيرُ بالقلوب في جوِّ الغيوب، وقد قال العاشق المجازي:

خُذَا من صبا نجدٍ أماناً لقلْبه ... فقد كادَ ريَّاها يطيرُ بلُبِّهْ
إياكما ذاكَ النسيمَ فإنَّه ... متى هبَّ كان الوجدُ أيسرَ خَطْبِهْ[1]

---

(١) البيتان لابن الخياط كما في وفيات الأعيان ١/ ١٤٦، وشذرات الذهب ٦/ ٨٨.

ومنها الحاملات وِقْرَ[1] دواءِ قلوبِ العاشقين كما قيل:

أيَا جَبَلَيْ نعمانَ باللهِ خلِّيا ... نسيمَ الصبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمها
أَجِدْ بردَها أو تَشْفِ منّي حرارةً ... على كَبِدٍ لم يَبْقَ إلا صَمِيمُها
فإنَّ الصبا ريحٌ إذا ما تنَسَّمَت ... على نفس مهمومٍ تَجلَّتْ همومُها[2]

ومنها الجاريات من مَهابِّ حضراتِ القُدسِ إلى أفئدة أهلِ الأنس بسهولةٍ لِتُنعشَ قلوبَهم، ومنها المقسمات ما جاءت به مما عَبِقَ بها من آثار الحَضْرةِ الإلهية على نفوس المستعدِّين حسبَ استعداداتهم.

وإن شئت قلتَ غير ذلك فالباب واسعٌ.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⦗٧⦘﴾ إشارة إلى سماء القلبِ، فإنَّها ذاتُ طرائقَ إلى الله عز وجل. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⦗١٥⦘﴾ إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة. ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⦗١٨⦘﴾ يطلبون غَفْرَ ـ أي: سَتْرَ ـ وجودهم بوجود محبوبهم، أو يطلبون غُفرانَ ذنبِ رؤية عبادتهم من أوّل الليل إلى السحر.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ إشارة إلى أنَّ جميع ما يُرَى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدةً حقيقيةً، بل هو مركبٌ، ولا أقلّ من كونه مركباً من الإمكان وشيءٍ آخر، فليس الواحدُ الحقيقيُّ إلا الله تعالى الذي حقيقتُه سبحانه إنِّيَّته.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ بترك ما سواه عز وجل.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ⦗٥٦⦘﴾ أي: ليعرفون، وهو عندهم إشارةٌ إلى ما صحَّحوه كشفاً من روايته ﷺ عن ربه سبحانه أنه قال: «كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أنْ أُعرَفَ فخلقتُ الخلقَ لأعرفَ»، وفي كتاب «الأنوار السنية»[3] للسيد

---

(١) في (م): وقراً.
(٢) الأبيات لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص ٢٥١.
(٣) الأنوار السنية في أجوبة الأسئلة اليمنية، للشيخ نور الدين علي بن محمد السمهودي المتوفى (٩١١هـ)، وهي ثمانية أسئلة وردت من الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مجير اليمني سنة (٩٠٧). كشف الظنون ١/ ١٩٤.

نور الدين السمهودي بلفظ: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أنْ أُعرَفَ فخلقتُ هذا الخلقَ ليعرفوني، فبي عرفوني». وفي «المقاصد الحسنة» للسخاوي بلفظ(١): «كنتُ كنزاً لا أُعرَفُ فخلقتُ خلقاً فعرَّفْتُهم بي فعرفوني»(٢) إلى غير ذلك، وهو مشكلٌ؛ لأنَّ الخَفاءَ أمرٌ نسبيٌّ فلا بدَّ فيه من مخفي ومُخفى عنه، فحيث لم يكن خلقٌ لم يكن مُخفًى عنه، فلا يتحقَّق الخفاءُ.

وأُجيبَ أولاً: بأنَّ الخفاء عن الأعيان الثابتة؛ لأنَّ الأشياء في ثبوتها لا إدراكَ لها وجوديّاً، فكان الله سبحانه مخفيّاً عنها غيرَ معروفٍ لها معرفةً وجوديةً، فأحبَّ أنْ يُعرَفَ معرفةً حادثةً من موجودٍ حادث، فخلَقَ الخلقَ؛ لأنَّ معرفتَهم الوجودية فرعُ وجودهم، فتعرَّف سبحانه إليهم بأنواع التجلِّيات على حَسَب تفاوتِ الاستعدادات، فعرفُوا أنفسَهم بالتجليات فعرفوا اللهَ تعالى من ذلك، فبه سبحانه عرفوه.

وثانياً: بأنَّ المرادَ بالخفاء لازمُه، وهو عدمُ معرفةِ أحدٍ به جل وعلا، ويؤيِّدُه ما في لفظ السخاوي من قوله: «لا أُعرَفُ» بدل «مخفيّاً».

وثالثاً: بأن «مخفيّاً» بمعنى ظاهراً مِن أخفاه، أي: أظهرَه، على أنَّ الهمزة للإزالة، أي: أزال خَفاءَه، وترتيبُ قوله سبحانه: «فأحببتُ أنْ أُعرَفَ» إلخ عليه باعتبار أنَّ الظهورَ متى كان قويّاً أَوجبَ الجهالةَ بحال الظاهر فخلَقَ سبحانه الخلْقَ ليكونوا كالحجاب، فيتمكَّن معه من المعرفة، ألا يُرى أنَّ الشمس لشدَّة ظهورها لا تستطيعُ أكثرُ الأبصار الوقوفَ على حالها إلا بواسطة وَضْع بعضِ الحجبُ بينها وبينها، وهو كما ترى لا يخلو عن بحث.

وأما إطلاقُ الكنز عليه عز وجل فقد ورَدَ، روى الديلميُّ في مسنده عن أنس مرفوعاً: «كنزُ المؤمن ربه»(٣) أي: فإنَّ منه سبحانه كلَّ ما ينالُه من أمر نفيسٍ في الدارَين.

---

(١) قوله: بلفظ، ليس في الأصل.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٣٢٧.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٢٩٨ (٤٨٩٥)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «كرم كنز المؤمن ربه، وخزانته بطنه، ومشجبه ظهره» ولم أقف عليه عن أنس.

والشيخ محيي الدين قدس سره ذكر في معنى «الكنز» غير ذلك فقال في الباب الثلاثمئة والثمانية والخمسين من «فتوحاته»: لو لم يكن في العالم مَن هو على صورة الحقِّ ما حصَلَ المقصود من العلم بالحقِّ، أعني العلمَ الحادثَ في قوله: «كنتُ كنزاً» إلخ فجعل نفسَه كنزاً، والكنزُ لا يكون إلا مكتنزاً في شيء، فلم يكن كنزُ الحقِّ نفسَه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئية ثبوتِه، هناك كان الحقُّ مكنوزاً، فلمَّا ألبس الحقُّ الإنسانَ ثوبَ شيئيةِ الوجودِ ظهَرَ الكنزُ بظهوره، فعرَفَه الإنسانُ الكامل بوجوده، وعَلِمَ أنَّه سبحانه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته، وهو لا يشعرُ به[1]. انتهى. وهو منطقُ الطير الذي لا نعرفُه، نسألُ الله تعالى التوفيق لما يحبُّ ويرضَى بمنِّه وكرمه.

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٦٧.